فرانكنشتاين

أو بروميثيوس هذا العصر

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ماري شِلي

ترجَمة

هِشَام فَهْمي

التنوير

روايَـة

الكتاب: فرانكنشتاين، أو بروميثيوس هذا العصر
المؤلفة: ماري شِلِي
المترجم: هشام فهمي

عدد الصفحات: 272 صفحة

الترقيم الدولي: 978-977-6483-17-0

رقم الإيداع: 2015/2361

الطبعة الأولى، 2015
جميع الحقوق محفوظة ©
الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني
هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة – وسط البلد
19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) – الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

twitter @baghdad_library

مـاري شِـلِـي

فرانكنشتاين

أو پروميثيوس هذا العصر

ترجمة

هشام فهمي

twitter @baghdad_library

عن الأسطورة وصاحِبتها

منذ نُشِرَت «فرانكنشتاين» للمرَّة الأولى قبل ما يَقرُب من مئتي عام وهي تُعَدُّ من النُّصوص التي يُقاس عليها ويُستَشهَد بها بين دُرَر الأدب الإنجليزي والعالمي. وخلال هذا الزمن الطويل ظَلَّت من أشهَر الروايات وأكثرها قراءةً واحتفاءً من القُرَّاء في أنحاء العالم، بالإضافة إلى كونها من أكثر النُّصوص الأدبيَّة التي دُرِسَت وحُلِّلَت بدِقَّة، ما يَجعَلها اختيارًا مثاليًّا لأيِّ دارِس أدبٍ يُعنى بالقراءة النَّقدِيَّة والاطِّلاع على الثَّقافات الأخرى وتاريخ الآداب، تمامًا كما تُعَدُّ نَصًّا سَلِسَ القراءة خاليًا من الملل لأيِّ قارئٍ.

لكن تاريخ هذه الرواية بالتحديد أكثر تعقيدًا من تاريخ غيرها، من ناحيةٍ لأن لُبَّ الرواية، الذي يطرح أفكارًا جريئةً جديدةً بالنسبة لعَصرها عن الإبداع عندما يتخطَّى حدود الطبيعة والشعور بمرارة خيبة الأمل، قد تعاظَم واستقلَّ بشكلٍ ما عن الرواية نفسها، وصار في حَدِّ ذاته نوعًا من المجاز والأسطورة شَقَّ لنفسه طريقًا بين صُور الفَن الأخرى، بما في ذلك السينما والمسرح ورسوم الكاريكاتور والكومِكس وعالم الإعلانات والتسويق، وصار اسم فرانكنشتاين مُرادِفًا للإبداع عندما يصير هوسًا يَجلِب عواقب وخيمة على المُبدِع والعالم، ومن ناحية

أخرى للوحشيَّة وقد تحرَّرَت من عِقالها. يَعرِف الجميع تقريبًا، حتى هؤلاء الذين لا يقرأون على الإطلاق ولم يَسمَعوا باسم ماري شِلِي، موضوع الحَبكة الرئيسة والأحداث الغريبة التي قاد إليها؛ العالم الشَّاب الطَّموح الذي يَسعى إلى العثور على سِرِّ الحياة ويتوصَّل إليه، ومن أجزاءٍ مُجَمَّعة من جُثَثٍ مختلفةٍ يَصنَع كائنًا بالغًا عملاقًا يتَّضح أنه وحشٌ قبيحٌ لا تخلو شخصيَّته من مشاعرِ مُرْهفة.

من الجدير بالملاحَظة الخطأ الشَّائع الذي يجعل كثيرين يَخلِطون بين الكائن وصانِعه، فالرواية تقول بكلِ وضوحٍ إن العالم الشَّاب بطل الرواية اسمه ڤيكتور فرانكنشتاين، أما الوحشُ نفسه فبلا اسم، وعلى الرغم من ذلك غالبًا ما يأخذ الكائن في الثقافة العامَّة اسم صانِعه، كأنه لا يوجد فارِق في الوحشيَّة بين الاثنين، أو لأن شَكل الكائن المُنَفِّر يجعل العقل يَربُط بينه وبين الاسم الذي ليس مُعتادًا أو شائِع الاستخدام. كانت شِلِي قد استوحت الاسم من القلعة الشهيرة التي تُطِلُّ على مدينة دارمشتادت الألمانيَّة، والاسم نفسه يعني باللُّغة الألمانيَّة القديمة «الكأس المُقَدَّسَة»، بالإضافة إلى «الحَجَر الحُر»، ما يُعَدُّ اختيارًا موفَّقًا من شِلِي، نظرًا للتَّبايُن السَّاخر بين معنى الاسم وواقع بطل روايتها. لاحَظَ البعض أيضًا أن ثمَّة خطأً شائِعًا آخَر حتى بين الذين يَعرِفون الفارِق بين الاثنين، عندما يَستَخدِمون مصطلح «دكتور فرانكنشتاين»، مع أن الحقيقة أن الرواية لم تَذكُر حصول ڤيكتور فرانكنشتاين على أيِّ درجاتٍ علميَّة أو استكمال دراسته الجامعيَّة حتى.

إلى حَدٍّ كبيرٍ إذن تجاوزَت قِصَّة فرانكنشتاين رواية «فرانكنشتاين» التي جاءت منها، لكن فقط لأن جذورها في أعماق الرواية نفسها غزيرة الإيحاءات ومثيرة لمواضيع أكبر ولها وقعٌ رنَّان مثير للنقاشات الإنسانيَّة. هكذا تكون «فرانكنشتاين» إذن أكبر من نفسها في واقِع

twitter @baghdad_library

الأمر، ونَصًّا لا يَحُث على القراءة فحسب، بل وعلى السَّعي إلى إدراك ما يتضمَّنه من أفكارٍ واسعة شَتَّى.

مجيء هذه الرواية (وهذه القِصَّة) إلى الوجود حكاية غير تقليديَّة في حَدِّ ذاتها، ومن الممكن سَردها باختصارٍ شديد أو بالكثير من الإسهاب، حيث إن هناك قَدرًا كبيرًا من الغموض والتفاصيل الدَّقيقة يُحيط بأصولها. تَظَلُّ النُّسخة المختصَرة من الحكاية -ولئن كانت غير كاملةٍ ويعوزها بعض الوضوح- حافلةً بالتفاصيل المثيرة للاهتمام التي قادت إلى وجود هذا النَّص، فطِبقًا لما روته مؤلِّفته والحكايات التي ردَّدها من صاحَبوها وقت غُرِسَت بِذرة «فرانكنشتاين» الأولى، جاءت الفِكرة إلى الوجود لدى اقتراحٍ بإقامة مسابَقةٍ صغيرةٍ لكتابة قِصَص الأشباح.

وقتها كانت المؤلِّفة -التي ستُعرَف فيما بَعد باسم ماري شِلِي- في الثامنة عشرة من عُمرها، وأُمًّا لطِفلين (مات أحدهما وهو رضيع)، غير متزوِّجةٍ ولا تزال تحمل اسم ماري وولستونكرافت جودوِن، وكانت تقوم برحلةٍ عبر جبال الألپ السويسريَّة في صُحبة حبيبها وزوجها المُستَقبَلي پرسي شِلِي (الذي كان شاعرًا شهيرًا في ذلك الحين بالفعل ولا يزال متزوِّجًا من امرأةٍ أخرى)، بالإضافة إلى ابنها ويليام وأختها غير الشَّقيقة كلير كليرمونت، التي كانت تُعاني من الاضطرابات النفسيَّة. استقرَّت هذه المجموعة في أواخر ربيع 1816 في منزلٍ متواضع بين الجبال بالقُرب من چنيف، وبالقُرب أيضًا من الڤيلا الفاخرة التي كان يقيم فيها شاعر آخَر أكثر شُهرةً -وأكثر إثارةً للجدل- هو لورد بايرون، الذي استقرَّ هناك في صُحبة طبيبه الخاص ورفيقه الدكتور چون ويليام پوليدوري.

سرعان ما اندمجت المجموعتان معًا، ومرَّت أسابيع قضوا فيها

السواد الأعظم من ساعات يقظتهم برِفقة بعضهم بعضًا، فغالبًا ما كانوا يقضون وقتهم بالإبحار في بحيرة چنيڤ نهارًا، والقراءة والحوارِ حول مختلَف المجالات ليلًا وفي الأيام التي كانت تسوء فيها حالة الطَّقس، وقد كانت حالة الطَّقس غير مستقرَّةٍ غالبًا في ذلك الصيف، الذي كان أكثر صيفٍ باردٍ عاصِفٍ عرفته قارَّة أوربا في التاريخ المُدَوَّن كله، وقد عُرِفَ عام 1816 فيما بَعد بعدَّة أسماء، «منها العام الذي بلا صيف» و«عام الفقر»، وأحيانًا «الصيف الذي لم يَكُن»، ففي ذلك العام الذي لا يَذكُره أحدٌ بخير شهد العالم انخفاضًا غير مسبوقٍ لدرجات الحرارة، ووقعت تقلُّبات مناخيَّة شديدة القسوة نجم عنها تلف معظم المحاصيل في نِصف الكرة الأرضيَّة الشمالي، ما تسبَّب في مجاعةٍ استمرَّت طوال العام وراح ضحيتها أكثر من مئتي ألف إنسان بسبب تدنٍّ كبير في نشاط الشمس، بالإضافة إلى شتاءٍ بركاني حَلَّ نتيجةً لانفجار بركاني شديد العُنف في إندونيسيا.

هكذا كانت حوارات المجموعة تدور حول الأدب الإنجليزي والكتابات الكلاسيكيَّة القديمة والاكتشافات العلميَّة والسياسة البريطانيَّة والأوربيَّة بشكلٍ عام. كان لورد بايرون وپرسي شِلِي يتزعَّمان تلك الحوارات بطبيعة الحال، فقد كان كلاهما جريئًا في تفكيره وأسلوبه، إضافةً إلى كونهما صديقين جديدين يسعيان إلى معرفة اهتمامات وأفكار أحدهما الأخَر، على أن ماري -الأصغر سِنًّا وبطبيعتها أقل ميلًا إلى للجَدَل- كانت كثيرًا ما تَشتَرِك في الحوار بصفتها قارءة نَهِمة لا تنسى شيئًا تقريبًا مما قرأته. تنوَّعت الحوارات والمناقَشات كثيرًا، وغالبًا ما كانت تُحَدِّد مجراها قراءات كلٍّ منهم والموضوعات العامَّة المنشورة في المطبوعات وقتها، وعليه فإننا لا نَعرِف بالضبط ما كانوا يتحدَّثون عنه ويتناقشون فيه يومًا بَعد يوم، لكن

twitter @baghdad_library

هناك ما يشير بقُوَّةٍ إلى أنهم خاضوا في الحديث عن طبيعة ومنشأ الحياة ذاتها، وناقشوا أسطورة پروميثيوس بصُوَرها المتعدِّدة، وكان هذا قبل سنواتٍ من تأويل پرسي الشَّخصي الطويل لها في مسرحيَّته الشِّعريَّة «پروميثيوس بلا أغلال»، وقبل فترةٍ من تَرْكِ تلك الأسطورة الإغريقيَّة العتيقة بصمتها الحافلة بالمعاني الضِّمنِيَّة الموحية على رواية ماري الأولى.

كانت النتيجة الوحيدة ذات القيمة الحقيقيَّة لتلك الليلة التي أُجرِيَت فيها مسابَقة كتابة قِصَص الرُّعب، هي «فرانكنشتاين» التي نُشِرَت بعدها بتسعة عشر شهرًا من دون أن تَحمِل اسم مؤلِّفها، لكن مع إشاراتٍ كثيرة إلى أنه قد يكون پرسي شِلِي (كاتِب المقدِّمة) أو بايرون، وقد افترضَت بعض المقالات النَّقديَّة التي كُتِبَت عن الرواية في البداية أن مؤلِّفها رجل. ثم وُضِعَ اسم ماري شِلِي على الطبعة الثالثة الصادرة في عام 1831 -وهي الطَّبعة المُتَرجَمَة هُنا- حيث كتبت المقدِّمة بنفسها هذه المرَّة، وفيها استعادت ذكرياتٍ عمرها خمسة عشر عامًا، وفسَّرت كيف استطاعت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها كتابة رواية غير معتادةٍ كهذه، حاكيةً قِصَّة الليلة السالف ذِكرها بتفاصيلٍ كثيرةٍ ممتعة، خصوصًا عندما تَنقُل لنا عمليَّة مخاض الرواية.

بالإضافة إلى المسابقَة والحوارات الثَّريَّة وأواصِر الصداقة التي انعقدَت في صيف البدايات ذلك، ثمَّة أيضًا مجموعة من الجوانب الإبداعيَّة التي تضمَّنَت تفاعُل ماري الجلي مع المُحَفِّزات البصريَّة في كلِّ مكانٍ حولها، وأنها تأثَّرت كثيرًا بالمناظر المحيطة وحساسيَّة المكان والمناخ ومزاج الطبيعة المتقلِّب، علاوةً على المَشاهد الطبيعيَّة الخلَّابة التي تَندَمِج مع الأحداث وتُصبِح جزءًا منها. تَصِفُ ماري أماكن حقيقيَّة وتضعها في قالِبها التاريخي، وتتعامل مع هذا بحذرٍ

شديد عندما تُوضح مثلًا أن ڤيكتور فرانكنشتاين قد تلقَّى تعليمه في جامعة إنجولشتادت الألمانيَّة في فترةٍ ما من القرن الثامن عشر دون أن تُحدِّدَ أيَّ عام، وإن كانت الفترة التي كانت الجامعة لا تزال مفتوحة فيها ومعروفة على مستوى أوربا بأنها رمزٌ للتجارب العلميَّة الراديكاليَّة، وقد أُغلِقَت جامعة إنجولشتادت في عام 1800 على يد السُّلُطات بسبب هذه التجارب.

وراء الظروف التي قادَت في النهاية إلى كتابة «فرانكنشتاين» هناك الكثير من المواقِف والخبرات المتراكمة في حياة ماري، منها نقطتان كانتا الأهم على الإطلاق في تشكيل شخصيَّتها وأدبها؛ الأولى هي حياتها الأسريَّة المعقَّدة، والأخرى نهمها الشديد للقراءة والاطِّلاع. تقول النُّقطة الأولى الكثير عن القضايا الإنسانيَّة التي تحتلُّ روايتها، بينما تُساعِد الثانية على استيعاب بعض الأفكار وراء روايتها، والتي تتضمَّن الإبداع والطُّموح والمسؤوليَّة والواجب والعائلة والصداقة والسُّلطة.

كانت ماري تَكتُب القِصَص والقصائد وهي بَعدُ فتاة صغيرة، ما وجدَت تشجيعًا كبيرًا عليه من أبيها الذي فتح لها مكتبته المُتخَمَة بالكُتُب والمَراجع. لقد وُلِدَت ماري شِلِي في عام 1797 لاثنين من أبرز الكُتّاب في إنجلترا في ذلك الحين، إذ لم يكن أبو ماري وأمها مؤلِّفَين مشهورَين فحسب، بل كانت لهما كتابات مثيرة للجدل تلَّقت الكثير من الاحتفاء وكوَّنت لهما عددًا كبيرًا من الأتباع، ومع أنهما كانا غالبًا ما يَكتُبان الروايات (ضِمن أشياءَ أخرى)، فإنهما اشتهرا أكثر بآرائهما السياسيَّة والاجتماعيَّة التحرُّريَّة، خصوصًا تلك المتعلِّقة بالحُب والزواج.

كانت أمها، ماري وولستونكرافت، قد نشأت في عائلةٍ لم تَعرِف معها

twitter @baghdad_library

إلا الكبت والقمع حيث لا أهميَّة تقريبًا للأنثى، وهي النشأة التي دفعتها إلى أن تصير من رائدات حركة تحرير المرأة التي كانت لا تزال في مَهدها في ذلك الحين، وتتجلَّى أفكارها تلك في كتابيها «خواطر عن تعليم البنات» و«إثبات حقوق المرأة»، بالإضافة إلى روايتها «ماري» تلك الأعمال التي تلقَّت الكثير من الثناء، بينما حاول كثيرون في الوقت نفسه الحَطَّ من شأنها. أما أبوها، ويليام جودوِن، الذي نشأ في عائلةٍ مُحافِظةٍ متديِّنة، فقد تمرَّد على تربيته وصار من كبار الفلاسفة والسياسيِّين، واشتهر بفصاحته ولُغته المنمَّقة وكان وجهةً لكلِّ من يرغب في خوض حوارٍ عن الثورة الفرنسيَّة، وأصبح كتابه «تحقيق عن العدالة السياسيَّة» بمثابة دليلٍ ثوري استعان به كثيرون في توجُّهاتهم السياسيَّة، وهذا بالإضافة إلى روايته «كايلب ويليامز» التي قدَّم فيها فلسفته بشكلٍ خيالي.

جمعت وجهات النظر المشترَكة بين ويليام جودوِن -الذي كان في بدايات الأربعينات من عمره- وماري وولستونكرافت -التي كانت في أواخر الثلاثينات- وسرعان ما وقعا في حُبِّ أحدهما الآخَر بعد لقائهما في شتاء 1796، ولم يَمضِ وقت طويل قبل أن تحمل ماري بابنتها مؤلِّفة «فرانكنشتاين»، التي تزوَّج أبواها قبل مولدها بفترةٍ قصيرة، وهي الزيجة التي أثارَت دهشة بعض أصدقائهما الذين شعروا أن الاثنين قد خانا معتقداتهما التي كانت مُعارِضةً دومًا لفكرة المؤسَّسات القانونيَّة، بما فيها مؤسَّسة الزواج، لكن الزيجة لم تَدُم طويلًا على كلِّ حال، ولم يكن مقدَّرًا لماري الصغيرة أن تَعرِف أمها أبدًا، إذ ماتت ماري وولستونكرافت بعد أحد عشر يومًا فقط من وَضْع طفلتها.

دعم جودوِن ابنته ماري في استقلالها وتجاربها الإبداعيَّة، لكن مشكلته أنه كان غير مستقر عاطفيًّا وماديًّا، وكان أغلب الوقت مديونًا بمبالغ كبيرة، وعاجزًا إلى حدٍّ كبير عن تنظيم علاقاته الشخصيَّة. لم

تمضِ فترة طويلة على وفاة ماري وولستونكرافت حتى تزوَّج جودِن مرَّة أخرى، وضَمَّ إلى أهل بيته زوجته الجديدة مع طفلتيها التي كانت كلير كليرمونت واحدة منهما. وكانت عائلة ماري شِلِي تَضُمُّ عضوة أخرى هي فاني إيملاي ابنة ماري وولستونكرافت غير الشرعيَّة التي أنجبَتها من علاقةٍ سابقة وقام جودِن بتربيتها لدى زواجه من أمها. علاوةً على ذلك، في عام 1803، عندما كانت ماري لا تزال في السادسة من عُمرها، انضمَّ عضو جديد إلى العائلة مع مولد ويليام جودِن چونيور. هكذا كانت العائلة بالنسبة لماري شِلِي كيانًا مشوَّشًا غير واضح المعالم، خصوصًا مع المآسي الكثيرة التي شهدتها في حياتها، إذ لم تَمُت أمها بعد أيام من ولادتها فحسب -وهي التجربة التي جعلتها تَربِط بين الميلاد والمَوت دائمًا في كتاباتها- بل عانت أيضًا من وفاة طِفلتها الأولى بعد أيام من مولدها في عام 1815، ثم من وفاة طِفلتها الثانية التي ماتت في سِنِّ الثالثة بعد عام من نَشر «فرانكنشتاين». والأدهى من هذا هو حادث انتحار أختها غير الشقيقة فاني إيملاي في خريف 1816، ثم انتحار هاريت زوجة پِرسي شِلِي بعدها بفترةٍ قصيرة. ثم إن پِرسي نفسه لقي مصرعه في حادثٍ بحري في إيطاليا بعد نَشر «فرانكنشتاين» بأربعة أعوام، وإن ظلَّت ماري محتفظةً بقلبه ملفوفًا في منديلٍ حريري في دُرج مكتبها!

اجتمعَت كلُّ هذه الأسباب معًا لتَخرُج ماري شِلِي في النهاية على العالم بروايتها الأهم، لتُنشَر في ذُروة الحركة الرومانسيَّة، وهي الحركة التي اعتمدت فيها الفنون والآداب بشكلٍ كبير على الشعور بالتفاؤل نحو الإمكانيَّات البشريَّة التي تخلَّلت الثقافة الغربيَّة بعد الثورتين الأمريكيَّة والفرنسيَّة. في إنجلترا كانت فترة ما بعد الثورة مليئة بالأزمات الاقتصاديَّة والتفكُّك الاجتماعي مع تحوُّل المجتمع الإنجليزي مع

twitter @baghdad_library

النظام الاقتصادي الصناعي الجديد، فكانت شِلِي وقرَّاؤها يعيشون في حقبةٍ مُضطربة، وإن لم يتخلّوا عن الأمل في غدٍ أفضل. ابتعدت الحركة الرومانسيَّة التي استمرَّت غالبًا بين عامي 1798 و1832 عن أفكار الحُقبة المعروفة بحُقبة التنوير التي كانت مبنيَّة على العقل والمنطق، والمؤلِّفون الإنجليز في الحركة الرومانسيَّة كانوا يؤمنون بأهميَّة الفرد، وقدَّروا الذاتيَّة والخيال والتعبير عن المشاعر أكثر من التفكير العقلاني؛ والبطل الرومانسي التقليدي -الذي تجده في أشعار لورد بايرون وپيرسي شِلِي- هو شخص عاطفي مُختلِف عن الآخرين، وغالبًا ما يكون فنَّانًا ثائرًا على المجتمع أو طريدًا منه. الشعراء الرومانسيون، مثل ويليام ووردسوورث وساموِيل تايلور كولريدج وچون كيتس وپِرسي شِلِي، ينقلون القراء إلى عوالم الشاعر الخياليَّة، وكثيرًا ما يتَّخذون من الطبيعة مَعزِلًا لهم، ويستمتعون بجمالها وبِكارتها.

«فرانكنشتاين» نموذج للروايات القوطيَّة، وهو طراز الروايات الذي شاع بين عامي 1760 و1820. والمقوِّمات الأساسية للرواية القوطيَّة هي الغموض والرُّعب والأشياء الخارقة للطبيعة، وتشير كلمة «قوطي» -بين معانيها المختلفة- إلى الأعمال الأدبيَّة ذات الجو الكئيب الذي يحيط به المجهول ويُولد فيه الخوف؛ والروايات القوطيَّة بشكلٍ عام تدور في أماكنٍ ضبابيَّة منعزِلة، كالقلاع المسكونة أو المستنقعات القديمة، وتتناول حبكاتها أحداثًا عنيفة غامضة. وبينما جَوّ «فرانكنشتاين» هو جَوّ كابوسي، فالرواية أكثر من مجرَّد رواية رُعب. إن الشخصيتين الأساسيَّتين في رواية شِلِي -طالِب العلم الشاب، والمخلوق شِبه البشري الذي يصنعه- مليئتان بالمركَّبات الأخلاقيَّة والعاطفيَّة والعقليَّة، ومن خلال صراعهما تطرح شِلِي أسئلة عميقة عن العِلم والمجتمع، وعن الجانبين الإيجابي والمدمِّر في

الطبيعة الإنسانيَّة، ولقد لعبت هذه الأسئلة على وترٍ مهم في بدايات القرن التاسع عشر، فهو العصر الذي شهد بالنسبة لمقاييسه تطوُّراتٍ وفتوحاتٍ في العلم والتكنولوچيا، وشهد إيمانًا متزايدًا بقُدرة العِلم على تحسين الحياة البشرية؛ واليوم في عالمنا الذي يشهد تطوُّراتٍ أكبر، لا تزال أسئلة شِلِي مطروحة وتحتاج إلى إجابة.

تحوَّلت قِصَّة فرانكنشتاين إلى عددٍ من العروض المسرحيَّة، كان أولها العرض الذي قدَّمه هنري ميلنر على مسرح كوبرج الملكي في لندن في عام 1826، ثم مع ظهور السينما تحوَّلت إلى عدَّة أفلام عُرِضَ أولها في عام 1910، لكن أشهرها هي الأفلام التي لعب فيها بوريس كارلوف دور الكائن، واعتمد جميع هذه الأفلام على فكرة أن الكهرباء أو البَرق هي الطاقة التي تسبَّبَت في بَعث الحياة في الكائن، بينما لم تَذكُر ماري شِلِي شيئًا من هذا في نَصِّ الرواية، بل ويَرفُض ڤيكتور فرانكنشتاين في أحد مَشاهد الرواية أن يُفصِح عن الوسيلة التي توصَّل بها لسِرِّ إمداده بالحياة. على أن أغلب النقَّاد اتَّفقوا على أن الفيلم المأخوذ عن الرواية، الذي تَمَّ إنتاجه في عام 1994 ولعب فيه روبرت دي نيرو دور الوحش هو أقرب الأفلام لروح الرواية الأصليَّة.

بخلاف «فرانكنشتاين» كتبت ماري شِلِي ستَّ رواياتٍ أخرى، منها «ڤالپرجا» و«ماتيلدا»، و«الرجل الأخير»، التي تدور قِصَّتها عن دمار الجنس البشري في المُستَقبَل، كما كتبت القِصَص القصيرة والمقالات والأدلَّة السياحيَّة، وحفظت ميراث زوجها بجَمْع قصائده في كتابٍ ونشرها.

ماتت ماري شِلِي بوَرَم في المُخ في عام 1851، لكنها تبقى صاحبة واحدةٍ من أشهر وأهمِّ الرِّوايات في التاريخ على الإطلاق.

إعداد هشام فهمي

twitter @baghdad_library

ماري شِلِي

مُقدِّمة «فرانكنشتاين» الطَّبعة الثالثة (1831)

أبدى السَّادة النَّاشرون في Standard Novels، مع اختيارهم لإصدار «فرانكنشتاين» في سلسلتهم، رغبةً في أن أزوِّدهم بلمحةٍ عن أصل القِصَّة، والحقيقة أني أكثر رغبةً منهم في هذا، لأني بهذه الطريقة سأعطي إجابة للسؤال الذي طُرِحَ كثيرًا عليَّ: كيف أمكنني، وقد كنتُ فتاة صغيرة وقتها، أن أتوصَّل إلى فكرةٍ شنيعةٍ كهذه وأُسهِب فيها؟! صحيحٌ أني كارهة لفكرة أن أشرح الأمر بنفسي في هذه المطبوعة، لكن بما أن تدخُّلي ليس إلا بمثابة مُلحَق لعملٍ تم نشره سابقًا بالفعل، وبما أنه مرتبط بعملٍ من تأليفي وحدي، فإنني لا يُمكنني اتهام نفسي بالتطفُّل.

ليس من الغريب، وأنا ابنة اثنين من كبار الكُتَّاب، أن أفكِّر في الكتابة في سِنٍّ مبكرة. لقد كنتُ معتادة على (الشَّخبطة) منذ طفولتي، وهوايتي المفضَّلة خلال نشأتي كانت كتابة القِصَص. لكني كنتُ أحب التسلية بشيءٍ أهم من هذا، وهو بناء القلاع في الهواء، الانغماس في أحلام اليقظة، الاستسلام لتعاقُب الأفكار والخيالات. أحلامي كانت أروع

وأفضل من كتاباتي، ففي الثانية لم أكن أكثر من مُقلِّدة، أفعل ما فعله الآخَرون أكثر من وضع أفكاري الخاصَّة، وما كتبته كان موجَّهًا لعينٍ واحدةٍ أخرى على الأقل، وهي عين رفيقة وصديقة طفولتي، لكنَّ أحلامي كانت لي وحدي، ولم أحكِ عنها لأحد، فكانت ملاذي عند الضِّيق ومتعتي الأكبر عند السرور. عشتُ وأنا فتاة صغيرة أغلب الوقت في الريف، كما أمضيتُ وقتًا لا بأس به في سكوتلندا، وكنتُ أقوم أحيانًا بزياراتٍ إلى الأماكن الطبيعيَّة الجميلة، لكن مكان إقامتي المُعتاد كان قريبًا من شواطئ نهر تاي الشماليَّة القاحلة الموحشة بالقرب من داندي. أقولُ إنها قاحلة موحشة مع تفكيري فيها الآن، لكنها لم تكن كذلك في نظري وقتها، فقد كانت عُشَّ حُرِّيَّتي ومعقل تواصُلي مع أصدقاء مخيِّلتي. كنتُ أمارس الكتابة وقتها، لكنها كانت كتابة عاديَّة ليس فيها جديد، بينما أسفل الأشجار المحيطة بمنزلنا، أو على جوانب الجبال العارية القريبة، وُلِدَت كتاباتي الحقيقيَّة وترعرعت. لم أجعل نفسي بطلة حكاياتي، فالحياة بدت لي مُضجِرةً أكثر عندما أتدخَّل فيها، ولم أعرف وقتها أن الآلام الرومانسيَّة والأحداث الجسام ستُصبِح من نصيبي، لكنني لم أحبس نفسي في هويَّتي، وكان يُمكنني شَغل ساعاتي بمخلوقاتٍ أكثر جاذبيَّة من مشاعري الشخصيَّة في تلك السِّن.

بعدها أصبحت الحياة أكثر تعقيدًا، واحتلَّ الواقع مكان الخيال، لكن زوجي كان من البداية متلهِّفًا على أن أُثبِت أني جديرة باسم والديَّ، وأن أُدرِج اسمي في سجل المشاهير. لقد حثَّني دائمًا على الحصول على سُمعةٍ أدبيَّة، الأمر الذي اهتممتُ به بالفعل، لكني لم أبالِ باتِّخاذ الخطوة الأولى. في هذا الوقت طُلب مني أن أكتب شيئًا دون أن أتمسَّك بفكرة أن يكون جديرًا بالملاحَظة، بل أترك له الحُكم فيما إذا كنتُ أبشِّر بكتابةٍ أفضل بعدها، لكني لم أفعل شيئًا رُغم ذلك،

twitter @baghdad_library

فقد شغل السفر والاهتمام بعائلتي وقتي كله، وكانت الدراسة التي انحصرت في القراءة أو تطوير أفكاري بالتواصُل مع عقولٍ أكثر نُضجًا كلَّ ما اهتممت به أدبيًّا.

في صيف عام 1816 زُرنا سويسرا، وضرنا جيران اللورد بايرون. في البداية كنا نقضي ساعاتنا في الإبحار في مياه البحيرة، أو التجوال على شواطئها، وكان اللورد بايرون -الذي كان يَكتُب وقتها الفصل الثالث من قصيدة «رحلة الطِّفل هارولد»- هو الوحيد بيننا الذي يضع أفكاره على الورق. بدت هذه الأفكار، التي جلبها لنا متتابعةً مغلَّفةً بنور وتناغُم الشِّعر، كأنها تصف مجد السماوات والأرض الذي تقاسمنا تأثيره معه. لكن ذلك الصيف انقلب فجأةً إلى شتاءٍ غريب، وكانت الأمطار تَهطِل لأيام طويلة، فكنا لا نَخرُج من بيوتنا. ثم وقع في أيدينا عدد من قِصَص الأشْبَاح المُتَرْجَمَة من الألمانيَّة إلى الفرنسيَّة. كانت هناك قِصَّة العاشق متقلِّب المشاعر الذي، عندما عانق العروس التي منحها حبه، وجد نفسه في أحضان شبح العروس الأخرى التي هجرها من قبل. وكانت هناك قِصَّة الآثم الذي أسَّس جِنسه الخاص، والذي كان مصيره المُظلِم أن يعطي قُبلة الموت لكلِّ أبناء بيته الملعون عندما يَبلُغون ريعان الشباب. في الجادة المُظلِمة رأوا جسده العملاق الظَّليل المغطَّى بالدروع، كما الشبح في «هاملت»، على ضوء القمر في مُنتَصَف الليل، ثم توارى الشبح بين ظلال جدران القلعة، لكن سرعان ما انفتحت واحدة من البوَّابات، وسُمِعَ وقع أقدام، وانفتح باب الغُرفة، واقترب بخطواتٍ سريعةٍ من الأرائك التي يَرقُد عليها الشباب اليانع نائمًا. بدا الألم على وجهه جليًّا وهو يميل ليطبع قُبلاته على جباه الغلمان الذين ذبلوا كزهورٍ اقتُلِعَت سوقها. لم أرَ تلك القِصَص منذ ذلك الحين، لكن أحداثها ما زالت عالقةً بذهني كأني قرأتها بالأمس فقط.

قال اللورد بايرون:

- «سيَكتُب كلٌّ منا قِصَّة أشباح».

وُوفِق على اقتراحه في الحال، وكنَّا أربعة. بدأ اللورد حكايةً، ولاحقًا أخذ منها جزءًا ليَطبَعه في نهاية قصيدته «مازِيًّا». أما شِلِي، الذي كان راغبًا أكثر في تجسيد الأفكار والمشاعر على ضوء الخيال والموسيقى الموجودة في لُغتنا، وبدلًا من ابتكار قِصَّةٍ كاملة، فقد قَصَّ علينا قِصَّة استمدَّها من خبرات صباه. أما پوليدوري المسكين -صديق بايرون النطاسي- فقد خرج علينا بفكرةٍ بائسةٍ عن امرأةٍ رأسها جمجمة، وكان هذا عقابًا لها على النَّظَر في ثُقب مفتاح (نسيتُ ما رأت، لكنه كان شيئًا صادمًا شنيعًا بالطبع)، لكن عندما صارت حالها أسوأ من حالة توم كوڤنتري[1] الشهير، لم يعرف ماذا يفعل بها، فأرسلها إلى مقبرة آل كاپولت[2]، لأنه المكان الوحيد الذي يُناسِبها! سرعان ما نبذ الشاعران الفكرة المبتذَلة، وتخلَّيا عن الأمر كله.

شغلتُ نفسي بالتفكير في قِصَّة.. قِصَّة تُنافِس القِصَص التي أثارت فينا رغبة التأليف في البداية، قِصَّة تتحدَّث عن مخاوف طبيعتنا الغامضة، وتُوقِظ فينا رُعبًا مثيرًا، قِصَّة تجعل القارئ يخاف التلفُّت حوله، تُجَمِّد الدِّماء في العروق، وتجعل القلب يَنبِض بسرعة. إذا لم أستطع تحقيق هذه الأشياء، فقِصَّة الأشباح التي سأكتُبها ليست جديرة باسمها. فكَّرتُ وتأمَّلتُ، لكن عبثًا. شعرتُ بنضوب الأفكار الذي يُعَدُّ ألدَّ أعداء الكُتَّاب، عندما لا يجيب توسُّلاتنا أيُّ شيءٍ سوى العدم. كان

---

(1) توم كوڤنتري: أسطورة تحكي عن الرجل الذي تلصَّص على سيدةٍ في خدرها، ومن ثم صار مكفوفًا.

(2) عائلة چولييت في مسرحية «روميو وچولييت».

twitter @baghdad_library

السؤال يُطرَح عليَّ كلَّ صباح: هل فكَّرتِ في قِصَّة؟ وفي كلِّ صباحٍ كنت مُجبَرةً على الإجابة بالنفي.

لا بُدَّ لكلِّ شيءٍ من بداية، كما قيل في «دون كيشوت»، والبداية يجب أن تكون مرتبطة بشيءٍ حدث من قبل. يُعطي الهنود العالم فيلًا كي يحمله، لكنهم يجعلون الفيل يقف على سلحفاة. الابتكار.. يجب إفساح المجال له، فهو لا يتكوَّن من شيءٍ قادم من العدم، بل من شيءٍ أقرب إلى حالة الكون قبل التكوين، ويجب أن تكون المعطيات متوفِّرة في المقام الأول. يُمكن للخيال أن يمنح حياة للعناصر التي بلا شكل، لكنه لا يستطيع أن يَخلُق العناصر ذاتها. في كلِّ أمور الاكتشاف والابتكار، حتى تلك المتعلِّقة بالخيال، نتذكَّر جميعًا قِصَّة كولومبس والبيضة. الخيال ليس إلا القُدرة على اكتشاف قُدُرات الشيء، ثم تكوين الأفكار التي يُمكن أن تَرتَبِط به.

كثيرة وطويلة كانت المحادثات بين لورد بايرون وشِلِي، وكنتُ مواظبةً على الإصغاء إليها، لكن غالبًا في صمت. في واحدةٍ من هذه المحادثات ناقشا الكثير من المذاهب الفلسفيَّة، ومن بينها ناقشا طبيعة ومنشأ الحياة، وإن كانت هناك وسيلة لاكتشافه والتعامُل معه. تحدَّثا عن تجارب الدكتور تشارلز داروين -ولا أتحدث هُنا عما فعله الدكتور حقًّا، أو ما قيل إنه فعله، وإنما عما قيل وقتها إنه فُعِلَ عن طريقه- الذي حفظ قطعة من دودةٍ في وعاءٍ زجاجي، إلى أن جاء يوم تحرَّكت فيه من تلقاء نفسها بوسيلةٍ مجهولة. لا يُمكن خلْق الحياة بهذه الطريقة على كلِّ حال، لكن ربما يُمكن بعث الحركة في جُثَّة، وقد أبدت كهرباء التفاعلات الكيميائيَّة أماراتٍ على هذا بالفعل. ربما يُمكن تجميع العناصر الأساسيَّة لمخلوقٍ معًا، وبث الدفء الحيوي فيها. انقضى الليل والمحادثة لا تزال مُستمرَّة، وحتى الساعة الأولى

من الفجر مرَّت قبل أن نَخلُد إلى الراحة. عندما وضعتُ رأسي على الوسادة لم أستطِع النوم، لكن لا يُمكنني القول بأنني فكَّرتُ. خيالي وحده أرشدني وجمح بي حاملًا الصُّور المتتابعة التي استيقظَت في عقلي بوضوحٍ غير عادي، ورأيتُ -بعينين مُغلقتين وعقلٍ يقظ- تلميذًا لفنونٍ سوداءَ ملعونة يركعِ إلى جوار الشيء الذي جمع أجزاءه، رأيتُ الصورة البشعة لرجلٍ ممدَّد، ثم تعمل محرِّكات قويَّة، فتَدُبُّ فيه الحياة ويتحرَّك حركة متشنِّجة. لا بُدَّ أنه مشهد مُخيف، لكن المُخيف أكثر أن يحاول أيُّ إنسانٍ أن يهزأ بالآليَّة المُذهِلة التي يعمل بها الكون بإرادة خالقه. يرى الفنَّان نجاحه فيصاب بالرُّعب. سيَفِرُّ من عمل يديه البشع بقلبٍ راجف، سيأمل أن تنطفئ شرارة الحياة التي أشعلها، سيأمل أن يموتَ الشيء الذي تحرَّك، وقد ينام مؤمنًا بأن صمت القبر سيُخمِد إلى الأبد الوجود العابر في الجُثَّة الشوهاء التي اعتبرها في البداية مهد الحياة. ينام، لكنه يستيقظ ليرى الشيء البشع واقفًا إلى جوار فراشه، يزيح الستائر ويَرمُقه بعينين صفراوين دامعتين يبدو فيهما توسُّل ما.

وفتحتُ عينيَّ عندها في رُعب. استحوذت الفكرة على عقلي، حتى إنني أخذتُ أرتجف وجلًا، وتمنَّيتُ لو أني أستطيع استبدال الصورة الكريهة الآتية من خيالي بالواقعِ حولي. ما زلت أراها: الغُرفة ذاتها، الأرض الخشبيَّة، الستائر المغلقة، وضوء القمر يتسلَّل من خصاص النافذة، والشعور بالبحيرة وجبال الألپ الشَّاهقة في الخلفيَّة. لم أستطِع التخلُّص من الشبح بسهولة وطارَدَني طويلًا. يجب أن أفكِّر في شيءٍ آخَر. هكذا عُدتُ إلى قِصَّة الأشباح، قِصَّة الأشباح البائسة المُتعِبة! ياه! ليتني أستطيع تأليف واحدة تُرعِب القارئ كما ارتعبتُ أنا تلك الليلة!

كانت الفكرة التي تملَّكتني سريعة كالضوء، وملأتني بالحماسة، ووجدتني أقول:

twitter @baghdad_library

- «وجدتها! ما أرعَبَني سيُرعِب الآخَرين بدورهم لا شك، وكلُّ ما عليَّ هو وَصْف الشبح الذي سكن وسادتي في مُنتَصَف الليل».

في الصباح أعلنتُ أنني فكَّرت في قِصَّة، وبدأتُ الكتابة في اليوم نفسه بعبارة «كانت ليلة موحشة في نوڤمبر»، واضعةً مُسوَّدة للحُلم المخيف الذي رأيته في يقظتي. في البداية فكَّرتُ في كتابة صفحاتٍ قليلة، أي في كتابة قِصَّة قصيرة، لكن شِلِي شجَّعني على تطوير الفكرة حتى تُصبِح رواية طويلة. بالطبع لا أدين بالفضل في كلِّ شيءٍ لزوجي، لكن الحقيقة أنه من دون تشجيعه ما كانت الرواية لتَخرُج بالشكل الذي خرجت به إلى العالم. فقط أستثني من هذا التصريح المقدِّمة التي كتبها بالكامل.

والآن، ومرَّة أخرى، أتمنى لبنات أفكاري النجاح والازدهار. إنني مُتعلِّقة بها، فهي نتاج لأيام سعيدة، والموت والحزن لم يكونا سوى كلماتٍ ليس لها صدى حَقيقي في قلبي. صفحات الرواية الطويلة تحكي عن جولاتٍ كثيرة، رحلاتٍ كثيرة، مُحادثاتٍ كثيرة لم أشهدها وحدي، ورفيقي فيها لم يَعُد ينتمي إلى عالمنا، ولن أراه مجدَّدًا. لكن هذه التداعيات الفكريَّة لي وحدي، ولا علاقة لقُرَّائي بها. فقط أريد إضافة إشارةٍ واحدةٍ للتغييرات التي أحدثتها في الرواية، وهي عامةً تغييرات في الأسلوب، إذ لم أغيِّر شيئًا في الأحداث، ولم أضِف أيَّ أفكارٍ أو تفاصيلٍ جديدة. عالجتُ اللُّغة عندما كانت تتعارَض مع تشويق الرواية، وهذه التغييرات تقع بشكلٍ شِبه كامل في بداية الفصل الأول، وفيما عدا هذا فلُبُّ القِصَّة لا يزال كما هو.

م. و. ش.

لندن، 15 أكتوبر، 1831

twitter @baghdad_library

فرانكنشتاين

أو پروميثيوس هذا العصر

هَلْ رَجَوْتُكَ يَا خَالِقِي
أَنْ - مِنَ الطِّينِ - تَصْنَعَنِي؟
هَلْ اسْتَجْدَيتُكَ
أَنْ - مِنَ الظُّلُمَاتِ - تَرْفَعَنِي؟

«الفردوس المفقود» - چون ميلتون

twitter @baghdad_library

الرسالة الأولى
إلى السيِّدة ساڤيل، إنجلترا

سانت پيترسبرج،

الحادي عشر من ديسمبر، القرن الثامن عشر.

سيَسُرُّكِ بالتأكيد أن تعلمي ببدءِ مغامَرتي، التي أصابتكِ بالرَّيبة والتشاؤم، من دون أيِّ معوِّقات. وصلتُ إلى سانت پيترسبرج[1] البارحة، وأولى المهام التي كَلَّفتُ نفسي بها هي أن أُطَمئِن شقيقتي على أحوالي، وأن أؤكِّد لها ثقتي المتزايدة بنجاح المهمَّة. لقد وصلتُ بالفعل إلى أقصى الشَّمال من لندن، وبدأت أستمتع بجولاتي في شوارع سانت پيترسبرج حيث تُداعِب نسمات الشَّمال الرقيقة الباردة وجنتيَّ، فتهدأ أعصابي ويَغمُرني شعور بالبهجة. تُرى هل بإمكانكِ إدراك هذا الشعور؟ هذه النسمات التي تجيء من المناطق التي أنتوي الذهاب إليها تأتي وكأنها تُهَيِّئني بلمحةٍ مما أنا مُقدِمٌ عليه من أجواءٍ جليديَّة.

---

(1) مدينة روسيَّة تقع على رأس الخليج الفنلندي.

وبينما أنا مستمتع بتلك النسمات المبشِّرة، تَتَّقدُ في داخلي أحلام اليقظة وتتوهَّج. كثيرًا ما أحاولُ أن أقتنع بأن القُطب الجليدي ليس إلا مركزًا للصَّقيع والعُزلة، لكن بلا جدوى، فلا تزال تلك المنطقة تَفرِض نفسها في مخيِّلتي على أنها منبع للجمال والبهجة. في تلك المنطقة يا مارجريت لا يتوارى قُرص الشمس الرَّحِب عن الأنظار، بل يملأ الأفق بأشعَّته، ويَنثُر في جميع الاتجاهات روعة لا تنتهي. لهذا يا أختاه، إذا سمحتِ لي، سأذهبُ في رحلةٍ بحريَّة إلى مناطق ذابت ثلوجها، وسأبحرُ في مياه البحر الهادئة حتى أرسو على أراضٍ قد يفوق جمالها وروعتها أيَّ أرض سِواها اكتشفها الإنسان في هذا العالم، لا يكون لمعالمها وهيئتها مثيل، تمامًا كروعة الأجرام في السماوات البعيدة، فما الذي لا يُمكنكِ توقُّعه في بلادٍ نورها أبدي؟ لعلي أكتشفُ هناك القوى المُدهِشة التي تؤثِّر في اتجاه إبرة البوصلة، ولربما أتوصَّلُ إلى آلاف الملاحَظات عن أسرار القوى التي ستَنكَشِف في هذه الرحلة، فتُبَرهِن على أن غرابتها الواضحة هي ما يجعلها منضبطةً إلى الأبد. لعلي أُشبِعُ فضولي المشتعِل حين أبصرُ جزءًا من العالم لم تُبصِره عينٌ من قبلي، وحين أطأ أرضًا لم تطأها قدم بَشَرٍ سواي. هذا هو ما يَجذِبني ويُغويني، وهو يكفي لأن أقهر خوفي من المخاطر أو الموت، ويُغريني ببدءِ تلك الرحلة المُجهِدة بسعادةٍ كتلك التي يَشعُر بها الطِّفل فور نزوله إلى قاربٍ صغير مع رفاقه في رحلةٍ استكشافيَّةٍ إلى مياه النهر الذي يجري في بلدته.

لكن حتى إذا ثبت عدم صِحَّة أيٍّ من تلك الافتراضات، فلن يُمكنكِ إنكار المنفعة الكبيرة التي ستَعُمُّ على الإنسانيَّة جمعاء حتى يوم الدينونة، إذا تمكَّنتُ من أن أكتشف معبرًا على مقربةٍ من القُطب الجليدي يصل إلى تلك البلدان (المعبر الذي سيتطلَّب الوصول إليه

twitter @baghdad_library

في الوقت الحالي شهورًا طويلة)، أو إذا تمكَّنتُ من التحقُّق من سِرِّ المغناطيس -هذا بالطبع إذا كان أمرًا قابلًا للتحقُّق- وطبعًا لن يتحقَّق كلُّ هذا إلا بمشروعٍ[1] كالذي أخطِّط له.

بَدَّدَت هذه الأفكار مخاوفي التي بدأتُ بها رسالتي، وأحسُّ الآن بتوهُّجٍ في قلبي من فرط الحماسة التي أشعرُ بها، والذي بإمكانه أن يرفعني إلى السماء من فرط الانفعال، فما من شيءٍ يُمكنه أن يُصَفِّي الذهن ويُهَدِّئه كتحديد المرء لهدفٍ ثابت يكون بمثابة نقطةٍ راسخةٍ يَرتَكِن إليها ويضعها نُصب عينيه. لطالما كانت تلك الرحلة الاستكشافيَّة هي حُلمي المفضَّل منذ نعومة أظفاري. لقد قرأتُ بنهم سجلَّاتٍ شتَّى للرحلات البحريَّة التي دُوِّنَت عن احتماليَّة الوصولِ إلى المحيط الهادئ الشمالي، عن طريق خوض البحار المحيطة بالقُطب الجليدي. لعلكِ تذكُرين كيف كانت مكتبة العم توماس تحفل بمؤلَّفات جميع الرحلات البحريَّة الاستكشافيَّة. كُنت أُهمِل دراستي، لكني كنت مولعًا بالقراءة ودرستُ تلك المجلَّدات ليل نهار، ولعل ارتباطي الشديد بتلك المجلَّدات قد زاد من شعوري بالأسى حين علمتُ -وأنا لا أزال طِفلًا- أن والدي وهو على فِراش الموت قد أوصى عمي بمنعي من الاشتغال في البحر.

لكن الأفكار تلك تلاشت حينما بدأتُ أطالِع كُتُب الشُّعراء التي تدفَّقت منها النَّشوة وسرَت إلى نفسي كأنما ترفعني إلى السماء، فصرتُ شاعرًا، ولمدَّة عامٍ كامل عِشتُ في جنَّةٍ من نسج خيالي، حتى

---

(1) كانت رحلات الاستكشاف، الباحِثة عن معبر شمال شرقي صالح للإبحار، مألوفة ومتكرِّرة في زمن شِلي، وامتلأت الدوريَّات المعاصرة المنشورة حينئذٍ بتفاصيلٍ كثيرة عنها. كان الاعتقاد السَّائد أن تلك البلاد ذات النور الأبدي قد تحوي جنَّة مفقودة ما، وإن كان مجرَّد أملٍ في وجودها أكثر منه ثِقَةً.

إنه خُيِّل إليَّ أن محرابًا قد يُخَصَّص لاسمي في الرواق ذاته المخصَّص للشعراء العظام أمثال هوميروس وشكسبير. أعلم بالطبع أنكِ على درايةٍ كاملةٍ بقِصَّة فشلي في هذا المجال، وكيف كان تحمُّل خيبة الأمل التي أصابتني شاقًّا على نفسي، ولم يمر وقت طويل حتى ورثتُ ثروة عن ابن عمي، فصارت أفكاري وميولي أكثر وضوحًا.

ستة أعوام مرَّت منذ قرَّرتُ القيام بمهمَّتي الحاليَّة، ولا يزال بإمكاني أن أذكر لحظة أن قرَّرتُ تكريس حياتي لتلك المهمَّة العظيمة. كان لا بُدَّ في البداية أن أُعَوِّد جسدي على المشقَّة، فرافقتُ صيَّادي الحيتان في العديد من الرحلات البحريَّة في بحر الشمال، وبهذا كان عليَّ تحمُّل البرودة والجوع والعطش والأرق طوعًا. كنتُ أحيانًا أبذلُ جهدًا أكبر مما يَبذُله البحَّارة أنفسهم خلال النهار، بينما أُكَرِّس المساء لدراسة الرياضيَّات والنظريَّات الطِّبِّيَّة وأفرُع العلوم الطبيعيَّة التي تُساعِد أيَّ مُغامرٍ بحري على التطبيق العملي. لقد قبلتُ العمل كمعاون بحَّار مرَّتين في مراكب صيد الحيتان في جرينلند وأثَرتُ في من حولي الإعجاب، وأعترفُ أيضًا بأنني شعرتُ بالفخر حين منحني قبطان المركب منزلة الشَّرَف من الرُّتبة الثانية وطلب مني البقاء، على أن يمنحني راتبًا مُغريًا تقديرًا لخدماتي.

والآن يا شقيقتي العزيزة، ألا أستحق إنجاز بعض أهدافي العظيمة؟ كان من الممكن أن أقضي حياتي يا مارجريت في ترفٍ ورفاهية، لكنني فضَّلت المجد على أيِّ إغراءٍ ألقى به الثراء في طريقي. إنني أكيد من أن الإجابة عن سؤالي ستكون بالإيجاب، ولديَّ قَدر كبير من الشجاعة والتصميم، لكن أحيانًا ما تكون آمالي مُذَبذَبَة ومعنويَّاتي في انحدار. إنني على وشك بدءِ رحلةٍ بحريَّةٍ طويلةٍ وشاقَّة، وعليَّ أن أتحلَّى بالثبات في حالات الطوارئ، وهذا لا يتطلَّب فقط تشجيع الآخَرين ورفع معنويَّاتهم، بل أيضًا أن أُعَزِّز ثِقَتي بنفسي حين تَهتَزُّ ثِقَة غيري.

twitter @baghdad_library

هذا الوقت من العام هو الأنسب للارتحال في روسيا، فعرباتهم تتزحلق على الجليد بسرعةٍ كبيرةٍ كأنها تطير، كما أن حركتها غير مُزعِجة، وهي في رأيي أفضل كثيرًا من عربات نقلِ الرُّكَّاب الإنجليزية الصُّنع. أما بالنسبة لبرودة الجو فهي مُحتمَلة إذا تدثَّرتُ بالفراء، وهو ما بدأت فعليًّا في أن أتخذه ثوبًا، فشتَّان بين العمل على سطح سفينة وبين الجلوس بلا حراك لساعاتٍ لا يقوم فيها المرء بأيِّ عملٍ يمنع الدِّماء من التجمُّد في عروقه؛ وأنا لا أنتوي مطلقًا أن أفقد حياتي في الطريق بين سانت پيترسبرج وآركنچل[1].

من المقرَّر أن أرحلُ إلى آركنچل خلال أسبوعين أو ثلاثة، وأعتزمُ أن أستأجر سفينةً هناك، والأمر ليس عسيرًا إذا دفعتُ مبلغًا للتأمين على السفينة لمالكها، وحينها سأستأجرُ عددًا مناسبًا من البحَّارة ممن اعتادوا صيد الحيتان. لقد قرَّرتُ ألا أبدأ رحلتي قبل حلول شهر يونيو، لكن متى يحين موعد عودتي؟ آه يا أختي العزيزة! كيف أجيبكِ الآن؟ إذا كُتِبَ لرحلتي النجاح، فستمر شهور، شهور عديدة -وربما أعوام- قبل أن ألتقي وإياكِ. أما إذا باءت بالفشل، فسنلتقي قريبًا، أو لا نلتقي أبدًا.

إلى لقاءٍ يا مارجريت الغالية. فلتُمطِركِ السماء ببَرَكتها وتُنَجِّيني، فأحيا لأُعَبِّر لكِ عن امتناني الشديد لمحبتكِ وطيبة قلبكِ.

من أخيكِ المُحِب،

ر. والتون

---

(1) ميناء يقع شمال غرب السَّاحل الروسي.

الرسالة الثانية
إلى السيِّدة ساڤيل، إنجلترا

آركنچل، الثامن والعشرون من مارس، القرن الثامن عشر.

كم هو بطيءٌ مرور الوقت هنا وأنا مُحاطٌ بالصقيع والثلوج! لكني تمكَّنتُ من إنجاز أمرٍ آخَر في مهمَّتي، فقد استأجرتُ سفينة، وما يُشغِلني الآن هو تجميع العدد المطلوب من البحَّارة. أما بالنسبة لمن اخترتهم بالفعل، فيبدو أنهم رجال أستطيع الاعتماد عليهم، ويتحلُّون بقدرٍ كبيرٍ من الشجاعة والجرأة.

لكن ثمَّة رغبة في داخلي لم أتمكَّن من إشباعها بعد، وهي الآن تُطارِدني كهمٍّ لا يُمكن الخلاص منه: إنني بلا أصدقاء يا مارجريت.. ليس هناك من يُشارِكني بهجتي حين يسطع نجمي وتُكَلَّل مهمَّتي بالنجاح، أو من يحرص على أن يَشُدَّ من أزري حين تصيبني خيبة الأمل وقِلَّة العزيمة. صحيحٌ أنني أسطرُ أفكاري على الورق، لكنها ليست بالطريقة المُثلى للتعبير عن مشاعري. إنني أتوقُ إلى صُحبة صديقٍ يتعاطف معي ويفهم نظراتي. قد أبدو لكِ الآن يا شقيقتي العزيزة كشخصٍ عاطفي، لكن الحقيقة أنني في أمسِّ الحاجة إلى صديقٍ

twitter @baghdad_library

حقيقي، فليس بقُربي من يجمع ما بين رِقَّة المشاعر والشجاعة في الوقت ذاته، مَن يملك عقلًا واعيًا مُدرِكًا وعلى قدرٍ عالٍ من الثقافة، مَن يُشارِكني ذوقي وآرائي ويُساعِدني على تعديل خُططي.. وكيف يُمكن لمثل ذلك الصديق أن يُصلِح عيوب أخيك المسكين! تعرفين كم أكون شديد الحماسة وقت تنفيذي لشيءٍ ما، وكم أكون نافد الصبر وقت الصعاب، لكني أعرف أن غاية الشرور قد تكمن في كوني قد علَّمت نفسي بنفسي، فالأربعة عشر عامًا الأولى من حياتي كانت خروجًا عن المألوف، ولم أكن أقرأ سوى كُتُب العم توماس عن الرحلات البحريَّة، ثم بدأتُ أطَّلع على أعمال أشهر شُعراء بلدنا، لكني لم أُدرِك ضرورة التعرُّف على لُغاتٍ أخرى غير لُغتي الأم إلا حين وصلتُ للاعتقاد بأنني فقدتُ القُدرة على أن أستمد من تلك الأعمال أعظم فوائدها. إنني في الثامنة والعشرين من عُمري، لكني في واقع الأمر أكثر جهلًا من تلميذٍ في الخامسة عشرة من عُمره. صحيحٌ أنني مفكِّر بطبعي، وأن أحلام يقظتي أوسع أفقًا وأروع، لكن تلك الأحلام يعوزها الاتِّصال المطلوب بالواقع، حسب تعبير الرَّسَّامين، بينما أنا في حاجةٍ شديدةٍ لصديقٍ لديه قَدرٌ من الوعي يكفيه لأن لا يَستَخِفَّ بحقيقة أني شخصٌ واسِع الخيال، وأن يكون على قدرٍ من التعاطُف يُمَكِّنني من تنظيم أسلوب تفكيري.

حسنٌ، سأكفُّ عن الشَّكوى عديمة الجدوى، فبالطبع لن أجد صديقًا في المحيط مترامي الأطراف، أو حتى هنا في بلدة آركنجل وسط التُّجَّار والملَّاحين.

على أن بعض المشاعر الطيِّبة المنفصلة عن مساوئ النَّفس البشريَّة يُمكنها تملُّك حتى قلوب أكثر الرجال خشونة، فعلى سبيل المثال، الملازم الأول على سفينتي يمتاز بالبسالة وروح المغامَرة، فهو توَّاق لنيل المجد، أو -إن أعدتُ صياغة الجملة- سأقولُ إنه توَّاق للوصول

لأعلى المراتب في مهنته. إنه إنجليزي، وعلى الرغم من تحيُّزه الواضح والصريح لجنسيَّته ومهنته، فإنكِ تستطيعين أن تلمسي فيه صفاتٍ وطباعًا من أرقى ما عرفت الإنسانيَّة. لقد التقيته للمرَّة الأولى على متن سفينةٍ لصيد الحيتان، وحين علمتُ أنه عاطل عن العمل في هذه المدينة كان من السهل أن أضمه إلى طاقمي ليُساعِدني في مهمَّتي.

أما بالنسبة لرُبَّان السفينة، فهو يتحلَّى بطباع مميَّزة، ولا يخفى على الجميع لُطفه وطيبة قلبه الممزوجان بحُبِّه للنظَّام والانضباط. كلُّ هذا، بالإضافة إلى حُسن خُلُقه وشجاعته المتناهية، ما جعلني أرغب بشِدَّة في انضمامه لطاقم السفينة. لقد انقضت أيام شبابي في عُزلة، لكن أفضل سنوات حياتي هي التي قضيتها منعَّمًا في رعايتكِ وحنانكِ الأنثويَّين اللذين ساهما في بناء شخصيَّتي على نحوٍ يجعلني دائمًا أنفر بشِدَّةٍ من القسوة المتَّبَعة على متن أيِّ سفينة، والتي لم أرَ ضرورة لها قَط. حين سمعتُ عن بحَّارٍ شهير يتمتَّع بمثل ما لديَّ من طيبة قلبٍ وطاعةٍ واحترام يُكِنُّه له أفراد طاقمه، شعرتُ أن من حُسن طالعي أنني ضممته إلى طاقم السفينة. أول من حدَّثني عن هذا الرجل كان سيِّدة تدين له بسعادتها الأبديَّة، وإليكِ قِصَّتهما باختصار: وقع البحَّار منذ سنواتٍ طويلة في حُبِّ فتاةٍ روسيَّة متوسِّطة الثروة، وبعد أن جمع مبلغًا معقولًا من المال، قَبِله والد الفتاة زوجًا لابنته، وحين التقى محبوبته مرَّة قبل احتفاليَّة الزواج المقرَّرة وجدها غارقة في دموعها، وألقت بنفسها عند قدميه، واستعطفته ليبحث عن غيرها زوجةً له بعد أن اعترفت له بحُبِّها لرجلٍ آخَر فقير تعلم أن أباها لن يُبارِك أبدًا زواجها منه، فما كان من صديقي النبيل إلا أن عدل عن فكرة الزواج منها فور أن أخبرته الفتاة باسم محبوبها. في تلك الأثناء كان البحَّار قد ابتاع مزرعة بأمواله، وقرَّر البقاء فيها حتى آخِر أيام حياته، لكنه منحها لمحبوب الفتاة، بالإضافة

twitter @baghdad_library

إلى بقيَّة أمواله لشراء الماشية، وبعد ذلك حاول البحَّار بنفسه إقناع والد الفتاة بتزويجها ممن تُحِب، لكن رفض الرجل كان قاطعًا، حيث اعتبر نفسه ملتزِمًا بكلمة شرفٍ أعطاها لصديقي البحَّار. هكذا، حين أحسَّ بأن والد الفتاة لن يتنازل عن موقفه، قرَّر مغادَرة بلاده التي لم يَعُد إليها إلا بعد أن تأكَّد من زواج الفتاة التي وقع في حُبِّها ممن أرادت. لعلكِ تقولين في نفسكِ: يا له من رجلٍ نبيل! وهو كذلك بالفعل، لكنه لم يتلقَّ أيَّ نوعٍ من التعليم، وهو دائم الصمت كجوادٍ تُركي، ويُلازِمه نوعٌ من اللامبالاة يجعل تصرُّفاته مثيرةً للدهشة، ويُقَلِّل مما يستحق من اهتمامٍ وتعاطُف.

لا تُفَكِّري لمجرَّد أنني أشكو قليلًا، أو لأنني أرغبُ في عزاءٍ على مواقفٍ صعبة لا يُمكنني تصوُّرها الآن، إنني متردِّدٌ في قراراتي بشأن مهمَّتي، فهي ثابتة ومحدَّدة كمصيري، ورحلتي البحريَّة مؤجَّلة فقط في الوقت الحالي حتى يعتدل الجو ويسمح بانطلاق سفينتي، فقد كان فصل الشتاء هذا العام مروِّعًا بحق، لكن الربيع سيأتي مبشِّرًا وسابقًا لأوانه، وربما أُبحِر بأسرع مما أتوقَّع. لن أتسرَّع في أيِّ شيء، فأنت تعرفينني جيدًا، وتثقين في تعقُّلي وحِرصي حين يتعلَّق الأمر بضمان سلامة الآخَرين.

لا يُمكنني أن أصف لكِ شعوري مع اقتراب موعد بدء رحلتي. من المستحيل أن أنقل لكِ مدى اضطراب أحاسيسي وانقسامها بين الشغف والرهبة -بالتَّساوي- بينما أستعدُّ للمغادَرة. إنني متجهٌ إلى مناطقٍ لم يكتشفها أحد من قبلي، إلى أرض الضباب والثلوج، لكني لن أقتل طائرًا واحدًا حتى، فلا داعي لأن تقلقي على سلامتي، وإلا

سأعود إليكِ مُرهَقًا ومُثيرًا للشفقة تمامًا كالبحَّار العجوز[1]. أعرفُ أنك ستضحكين مني، لكني سأفصحُ لكِ عن سِر: غالبًا ما أنسبُ هذا الارتباط والحماسة المُبالغ فيهما وغموض المحيط المُنذِر بالخطر لأعمال أجمح الشعراء المعاصِرين خيالًا. أحيانًا ما تتملَّك نفسي أحاسيس لا أفهمها، فأنا رجل مُجِدٌّ ومُجتَهِدٌ بطبعي، وحين أعمل أكون دؤوبًا ومثابرًا. لكن بالإضافة إلى ذلك، فإن حُبِّي لكلِّ ما يمتاز بالجمال وإيماني به يُسَيطِر على مشاريعي وخُططي، الأمر الذي يُبعِدني سريعًا عن أيِّ طريقٍ مألوف قد يَسلُكه بقيَّة الرجال، ويدفعني لخوض بحرٍ عاصفٍ ومناطقٍ غير مأهولةٍ كالتي أنا على وشك اكتشافها.

لكن عودة لما هو أهم.. هل سأقابلك مُجدَّدًا بعد أن أجوب البحار الشاسعة وأعود من طريقٍ في أقصى جنوب القارة الإفريقيَّة أو أمريكا؟

لا أجرؤُ على توقُّع مِثل هذا النجاح، وفي الوقت ذاته لا يُمكنني تصوُّر عكسه. استمري في الوقت الحالي في الكتابة لي عِند كلِّ فرصةٍ سانحة، فربما أتسلَّم رسائلكِ حين تكون نفسي في أمسِّ الحاجة لدعمكِ. أحبكِ بشدة، واذكريني بمحبةٍ إذا لم تسمعي مني مُجَدَّدًا.

من أخيك المحب،

روبرت والتون

---

(1) يَقصِد البحَّار الذي تحكي عنه قصيدة «البحَّار العجوز» للشاعر الإنجليزي ساموَيل تايلور كولريدج، وجلب لعنة على نفسه وسفينته بَعد أن قتل طائر قَطْرَس، وقد ذكرت ماري شِلي أنها سمعت كولريدج يتلو القصيدة بنفسه وهي في سِنِّ التاسعة.

twitter @baghdad_library

الرسالة الثالثة

إلى السيِّدة ساڤيل، إنجلترا

السابع من يوليو، القرن الثامن عشر.

شقيقتي العزيزة،

أكتبُ لكِ بضعة أسطُرٍ في عجلةٍ لأطمئنكِ على سلامتي، ولأُعلِمكِ بتقدُّمي في رحلتي. ستصل هذه الرسالة إلى إنجلترا عن طريق تاجرٍ متَّجِه في رحلةٍ من آركنچل إلى بلده، وبهذا تكون الرسالة أكثر حظًّا مني، بما أنني قد لا أرى وطني لسنواتٍ عديدة. على الرغم من ذلك، فإن معنوياتي مرتفعة، فطاقمي يضم رجالًا شجعانًا يبدو عليهم الحزم عند الحاجة، فعل الرغم من مصادفتنا لصفحاتٍ من الجليد الطَّافي على سطح المياه تعوق تقدُّمنا باستمرار، وتُنذِر بمخاطر المنطقة التي نُقبِل عليها، لا يبدو على أفراد الطاقم الانزعاج. لقد وصلنا بالفعل إلى منطقةٍ دافئة، لكنه دِفء فصل الصيف. وعلى الرغم من أنه ليس كدفء صيف إنجلترا، إلا أن العواصف الجنوبيَّة التي تَدفَعنا بسرعةٍ عاليةٍ في اتِّجاه الشواطئ التي أتوقُ إلى الوصول إليها تُبشِّر بنسمات دِفءٍ لم أتوقَّعها. لكن حتى الآن لم يحدث لنا ما هو جدير بالذِّكر،

فهبوب عاصفةٍ أو اثنتين وتسُّرب المياه إلى بعض أجزاء السفينة ما هو إلا مصادفات لا تُزعِج البحَّارة المتمرِّسين، وسوف تكتَمِل سعادتي إذا لم يحدث ما هو أسوأ من ذلك خلال رحلتنا.

إلى لقاءٍ أيا مارجريت العزيزة. تأكَّدي أنني إكرامًا لي ولكِ لن أواجِه المخاطر بطيش، بل سأكون هادئًا مُتعقِّلًا ثابِتَ الجنان.

لكني واثق من أن النجاح سيُكَلِّل مسعاي.. ولِمَ لا؟ حتى هذه اللحظة أتحرَّى طريقًا آمنًا في البحر الواسع، وستشهد النجوم ذاتها على نجاحي. ولِمَ لا أواصِل رحلتي فوق مياهٍ جامحةٍ ومطيعةٍ في الآن نفسه؟ ماذا عساه أن يقف في طريق قلب عاقد العزم، ورغبة رجلٍ صادِقٍ في عزيمته؟

قلبي الممتلئ يتدفَّق لا إراديًّا بمشاعرٍ صادقة، لكن عليَّ أن أنتهي من كتابة رسالتي الآن، ولتُبارِك السماء شقيقتي الحبيبة!

ر.و

twitter @baghdad_library

الرسالة الرابعة
إلى السيِّدة ساڤيل، إنجلترا

الخامس من أغسطس، القرن الثامن عشر.

وقع لنا حادث غريب جدًّا إلى درجة أنني لا أطيق صبرًا على تدوينه، على الرغم من أنه من المحتمَل أنكِ ستريننني قبل تلقيكِ لهذه الرسالة.

يوم الأحد الماضي -الموافق الحادي والثلاثين من شهر يوليو- أحاطت الثلوج بالسفينة من كلِّ جانب، تاركةً لها مجرىً ضيِّقًا لا تكاد تسري فيه. كان الموقف خطِرًا إلى حدٍّ كبير، خاصةً أن ضبابًا كثيفًا كان يَحجُب الرؤية، وبناءً على ذلك توقَّفنا آملين أن يحدث تغيُّر في حالة الطقس. بحلول الثانية ظُهرًا اختفى الضباب، وأبصرنا من حولنا مساحاتٍ شاسعة لا توصَف من الجليد المنبسِط الذي بدا بلا نهاية. كان الموقف قد بدأ يصيب بعض رفاقي بالضِّيق، وبدأت الأفكار المزعِجة تحتل ذهني، حين أبصرنا فجأةً مشهدًا أثار انتباهنا وألهانا عن همومنا النابعة من موقف سفينتنا. ما رأيناه كان عربة صغيرة مثبَّتة على مزاليج تَجُرُّها الكلاب، وتتَّجه إلى الشَّمال على بُعد نصف ميلٍ من سفينتنا، ومن بعيد رأينا ما حسبناه رجلًا ضخم الجثمان على ما يبدو

جالسًا في العربة يقود الكلاب، وراقبنا -بواسطة التلسكوبات- تقدُّم الرحَّالة السريع حتى اختفى بين ثنايا الثلوج البعيدة.

أثار هذا الحادث دهشتنا وحيرتنا، فقد كنا -بحسب ما اعتقدنا- نبعد عن أيِّ يابسةٍ بمسافة مئات الأميال، لكن ظهور هذا الرجل دَلَّ على أننا -في الحقيقة- لسنا بعيدين عن اليابسة قَدر ما افترضنا. كان من المستحيل، بما أننا كنا محاطين بالثلوج، أن نلحق بخُطاه في طريقه الذي راقبناه باهتمامٍ بالِغ.

بعد مرور ما يقرب من ساعتين من ظهور هذا الرجل، سمعنا صوت تموُّج البحر، وقبل حلول المساء كان الثلج قد انقسم وحرَّر سفينتنا، لكننا قرَّرنا الانتظار حتى مجيء الصباح خوفًا من أن نصطدم في الظلام بكُتَل الثلج الكبيرة المقلقلة التي طفت على سطح المياه بعد انقسام الثلج، واستغليتُ تلك الفترة في الراحة لبضع ساعات.

في الصباح، وبمجرَّد أن أضاءت الدنيا، صعدتُ إلى السَّطح لأجد جميع البحَّارة مشغولين على أحد جوانب السفينة، وبدا لي أنهم يتحدَّثون إلى شخصٍ ما في البحر. كان في الحقيقة رجلًا يركب زلَّاجة كالتي رأيناها من قبلُ فوق قطعةٍ كبيرة من الجليد انجرفت في اتجاهنا أثناء الليل. لم يبقَ على قيد الحياة سوى واحدٍ من الكلاب، بالإضافة إلى الرجل الذي كان البحَّارة يُحاولون إقناعه بالصعود إلى متن السفينة. لم يَبْدُ كرجل بدائي من سُكَّان الجُزُر غير المأهولة كالرجل الذي كان في العربة الأخرى، بل بدا عليه أنه أوربي. وحينما ظهرتُ على سطح السفينة، قال كبير البحَّارة:

- «ها هو القبطان، ولن يسمح بأن تهلك وحيدًا في وحشة البحر».

وما إن رآني، خاطَبني الرجل الأجنبي بلغةٍ إنجليزيَّة تشوبها لكنة أجنبية، وقال:

twitter @baghdad_library

- «قبل أن أصعد إلى سفينتك، أمن الممكن أن تُعلِمني بوجهتكم؟».

ولكِ أن تتخيَّلي مدى اندهاشي لسماعي هذا السؤال من رجل على حافَّة الهلاك، من المفترَض أن سفينتي تُمَثِّل له ملجأً لا يَستَبدِلُه في موقفه هذا بكنوز الأرض. أجبته على أيِّ حال بأننا في رحلةٍ استكشافيَّة إلى القُطب الشمالي. ولدى سماعه إجابتي بدا راضيًا وموافقًا على الصعود إلى متن السفينة. رباه يا مارجريت! لو رأيتِ هذا الرجل الذي يَشتَرِط إجابة قبل نجاته، لتعجَّبتِ بشدَّة. لقد أوشكت أطرافه على التجمُّد، وأوشك جسده على الانهيار من شِدَّة التعب والمعاناة. لم أرَ في حياتي رجلًا في حالٍ أسوأ من حال هذا الرجل. حاولنا حمله إلى قمرة القيادة، لكن بمجرَّد أن ابتعد عن الهواء الطَّلق أصيب بالإغماء، فأعدناه إلى سطح السفينة، وحاولنا إفاقته بتدليك جسده بالنبيذ وإجباره على ابتلاع كميَّةٍ صغيرةٍ منه. بمجرَّد أن ظهرت عليه ملامح الحياة، دثَّرناه بالبطاطين، وأجلسناه بالقُرب من مدخنة موقد المطبخ، وبالتدريج استردَّ وعيه وتناوَل القليل من الحساء، ما أفاده بطريقةٍ مدهِشة.

ظَلَّ الرجل على تلك الحالة لمدَّة يومين استطاع بعدهما أن يتكلَّم، وقد كنتُ أخشي أن تؤثِّر معاناته السابقة على قُدرته على الاستيعاب. أمرتُ حين تعافى بنقله إلى قمرتي الخاصَّة، وأوليته عنايتي قَدر ما استطعتُ. لم أرَ في حياتي مخلوقًا مثيرًا للانتباه مثله، فعيناه تبرقان بالحماسة، بل بالجنون، لكن في بعض الأحيان، حينما يقوم شخص بتقديم خدمةٍ له حتى إذا كانت بسيطة يستنير وجهه كأنما سقط عليه شعاع من المودَّة واللُّطف لم أرَ مثلهما، لكنه بصِفَةٍ عامَّة ميَّال إلى الكآبة والبؤس، وأحيانًا يَصِرُّ بأسنانه، فتَشعُرين بأن صدره قد ضاق بما يحمله من مِحَن.

حين تماثَل ضيفي للشفاء، تكبَّدتُ عناء إبقاء البحَّارة بعيدًا عنه لتفادي آلاف الأسئلة التي أرادوا أن يُلقوها عليه، فما كنتُ لأسمح

بإزعاجه بفضولهم وهو في حالةٍ جسديَّةٍ وذهنيَّة تتطلَّب الراحة التامَّة. لكن في إحدى المرَّات سأله كبير البحَّارة عن السبب وراء بلوغه هذه المنطقة البعيدة فوق الثلوج بعربته الغريبة، فاعتلت وجه الرجل على الفور نظرة مكفهرَّة، ثم أجاب قائلًا:

- «كنتُ أبحث عن شخصٍ فرَّ مني».

- «وهل كان الرجل الذي تُلاحِقه يتنقَّل بالوسيلة نفسها؟».

- «أجل».

- «إذن أظننا رأيناه، ففي اليوم السابق لعثورنا عليك رأينا كلابًا تَجُرُّ عربة على الثلج يركبها رجلٌ ما».

أثار حديث كبير البحَّارة اهتمام الرجل، ما جعله يُلقي أسئلة عديدة تدور حول الطريق الذي سلكه الشيطان[1] (وهذا هو الاسم الذي أطلقه على طريدته)، وبعد ذلك حينما صار وحيدًا في القمرة معي، قال لي:

- «لقد أثرتُ فضولك وفضول هؤلاء الرجال الطيِّبين بلا شك، لكن مراعاتك لشعوري تمنعك من الاستفسار».

- «بالطبع. مؤكَّد أنه من الصفاقة والقسوة أن أزعِجك بفضولي».

- «وعلى الرغم من ذلك، فقد أنقذتني من موقفٍ خَطِر وغريب، وأعدتني بسماحتك إلى الحياة».

سألني بعد هذا مباشرةً إن كنتُ أعتقد أن انقسام الثلج قد دمَّر عربة الرجل الآخَر، فأجبته بأنني لست واثقًا، فالثلج لم يَنقَسِم إلا بحلول مُنتَصَف الليل، وربما يكون الآخَر قد وصل إلى برِّ الأمان قبل هذا، لكني لا أستطيع تأكيد ذلك أو نفيه.

---

(1) يُفَرِّق قاموس أوكسفورد بين كلمة daemon التي تعني كيانًا ذا مرتبة أدنى من الإله وكلمة demon التي تعني روحًا شريرة، لكن لا يبدو في نَصِّ شِلي أنها تُفَرِّق بينهما.

twitter @baghdad_library

ومنذ ذلك الحين دبَّت الحياة في الرجل الأجنبي، فأظهر لهفة للصعود على ظَهر السفينة ليرقب ظهور العربة الأخرى، لكني أقنعته بأن يبقى في القمرة نظرًا لوهن جسده الذي لن يتحمَّل قسوة الجو، وتعهَّدتُ بتعيين أحد البحَّارة ليُلاحِظ ظهور أيِّ جسمٍ غريب ويُبلِغه على الفور.

هذه هي ملاحظاتي على كلِّ ما يتعلَّق بتلك الحادثة الغريبة حتى يومنا هذا. لقد تحسَّنت صِحَّة الأجنبي تدريجيًّا، لكنه لا يزال غارقًا في صمته، ويبدو عليه الانزعاج كلما دخل عليه القمرة أيُّ شخص سواي. على الرغم من ذلك، فهو دائمًا لطيفٌ حَسَن الخُلُق، حتى إنَّ البحَّارة جميعًا يهتمّون لأمره، حتى مع مَيْله إلى التزام الصمت المطبق بينهم. ومن جهتي، فقد بدأتُ أحبه كأخٍّ لي، وحزنه العميق والمستمر يملأ قلبي تعاطُفًا معه وشفقةً عليه، فهو على الرغم من شعوره بالإحباط الآن، لا يزال إنسانًا ودودًا وممتع الصُّحبة، ومن المؤكَّد أنه كان أكثر نُبلًا في أيامه الأولى.

لقد ذكرتُ في إحدى رسائلي يا عزيزتي مارجريت أنه من المستحيل أن أجد في المحيط الرَّحِب صديقًا لي، لكني وجدتُ رجلًا لو لم تكن نفسه قد تاهت وسط أحزانها، لكنتُ قد سعدتُ بقربه واتخذته أخًا لي.

سأستمرُّ إذن في تدوين ملاحَظاتي بخصوص الرجل الأجنبي على فتراتٍ إذا جدَّ أيُّ جديدٍ بشأن قِصَّته.

***

الثالث عشر من أغسطس، القرن الثامن عشر.

يزداد تعلُّقي بضيفي مع كلِّ يوم يَمُرُّ، فهو يثير إعجابي وشفقتي في آنٍ واحد وبدرجةٍ مذهِلة. كيف لَي أن أرى شخصًا نبيلًا مِثله دمَّرته تعاسته ولا أحزن أشدَّ الحزن على حاله؟ إنه لطيف للغاية، لكنه أيضًا

حكيم ومتفتِّح الذِّهن، فهو حين يتكلَّم ينتقي كلماته بدِقَّةٍ وإمعان، فيتدفَّق حديثه بسرعةٍ وبلاغةٍ لا نظير لهما.

لقد تحسَّنت حالته الصِّحِّيَّة بدرجةٍ كبيرة، وهو الآن دائم الوجود على سطح السفينة، وما زال على ما يبدو يأمل في ظهور العربة التي سبقت عربته من قبل. وعلى الرغم من شعوره بالتعاسة، إلا أنه لا يَنشَغِل بها طوال الوقت، بل يُشغِل نفسه تمامًا بخُطط ومشاريع الآخَرين. غالبًا ما يُحادِثني في مشاريعي، فأحدِّثه عنها بدوري دون أيِّ تحفُّظ، ودائمًا ما يشترك معي بذكاءٍ في النقاش لضمان نجاح مهمَّتي في النهاية، ويُناقِش معي أدقَّ تفاصيلِ الإجراءات التي اتَّخذتها لضمان هذا النجاح، وقد أغراني هذا التعاطُف الذي أبداه بأن أفتح له قلبي، وبأن أدع نفسي تُعَبِّر عن الحماسة الملتهبة في داخلها، فأوضِّح كم أنني على استعدادٍ للتضحية بثروتي، بل بوجودي ذاته وبجميع أحلامي، لاستمرار مهمَّتي ونجاحها. إن حياة نفسٍ أو موتها ليسا إلا ثمنًا بخسًا لإدراك ما أنشده من معرفةٍ وسيطرةٍ علىَ أعداء الجنس البشري. وبينما أنا أتحدَّث عن كلِّ هذا، اعتلت وجهَ الرجلِ نظرةٌ كئيبة عابسة. في البداية لاحظتُ أنه يُحاوِل كبت مشاعره، فقد غطَّى عينيه بكفَّيه، لكن صوتي ارتعد حين رأيتُ الدموع تنساب بسرعةٍ من بين أصابعه وسمعته يئن ويتنهَّد، فبترتُ كلامي، وأخيرًا تكلَّم الرجل في انكسار قائلًا:

– «يا لك من تعس! أتُشارِكني جنوني؟ هل تجرَّعت أنت أيضًا الكأس المسمومة؟ أصغِ إليَّ. دعني أقُص عليك قِصَّتي، فلربما تُلقي بالكأس بعيدًا عن شفتيكَ!».

ولكِ أن تتخيَّلي كم أثارت كلماته فضولي، لكن نوبة الأسى التي سيطرت على الرجل الأجنبي واهِن القوى تمكَّنت منه، وتطلَّب الأمر ساعاتٍ عدَّة من الراحة والسَّكينة ليستردَّ رباطة جأشه. ثم بعد أن استطاع كبح جموح مشاعره، بدا كأنه يَحتَقِر نفسه لتركه العنان لانفعالاته، وبعد

twitter @baghdad_library

أن أسلم نفسه لطغيان اليأس دار حديثنا مرة أخرى، لكن حولي أنا هذه المرَّة. سألني عن حكايتي، ولم تتطلَّب روايتها وقتًا طويلًا، لكنها أيقظت أفكارًا ومشاعر عديدة. أفصحتُ عن رغبتي في العثور على صديق، عن توقي لتواصلٍ أعمق وأكثر حميميَّة مع عقلٍ متعاطِف يقع في نصيبي، وأظهرتُ اقتناعي بأن من لم يَنعَم بنِعمة الصَديق قد حظيَ فقط بقسطٍ صغيرٍ من السعادة.

هكذا أجابني الرجل قائلًا:

- «أتَّفقُ معك، فلا يُمكن لنا أن نتكيَّف ونكتمل إذا لم يقم شخص آخَر أفضل منا وأكثر حكمة وقربًا من قلوبنا -كما ينبغي للصديق أن يكون- بمساعدتنا على تقويم أنفسنا الضعيفة الخطَّاءة. كان لديَّ صديق في الماضي، وكان أكثر الرجال شهامةً، ولذا أقدِّر وأحترم الصداقة. لديك آمال تتطلَّع إليها، والعالم بين يديك، وما من شيءٍ يدعوك لليأس، أما أنا.. أنا خسرت كلَّ شيء، ولا يُمكنني بدء حياتي من جديد».

كان يتكلَّم وعلى وجهه ملامح حزنٍ ساكنٍ عميق شعرتُ به يمس قلبي، لكنه التزم الصمت وعاد إلى قمرته.

حتى وهو مُحطَّم المعنويَّات لم أرَ من يَشعُر بجمال الطبيعة ويُقَدِّره مثله، فلا يزال منظر نجوم السماء والبحر الأزرق، وكلُّ منظرٍ خلَّاب في تلك المناطق الرائعة، كأنما يرفع روحه إلى الأعالي. لهذا الرجل وجود مزدوج، فربما يعاني من الأسى وتَغمُره خيبة الأمل، لكنه حين يَخلُد إلى فِراشه يكون كطيفٍ سماوي تُطَوِّقه هالة لا تسمح لأيِّ حزنٍ أو حمقٍ بالاقتراب.

أتضحكين من الحماسة التي أصف بها هذا الأجنبي الهائم؟ لو رأيته لفهمتِ. لقد تلقَّيتِ العِلم من الكُتُب بعيدًا عن العالم الخارجي، ما يجعلكِ إلى حدٍّ كبير صعبة الإرضاء، لكن ذلك يجعلكِ أيضًا جديرة

بتقدير الخصال الاستثنائيَّة في هذا الرجل الرائع. أحيانًا أحاول أن أعرف أيَّ صِفَةٍ من صفاته تجعله يسمو بلا استثناءٍ على أيِّ شخص آخَر عرفته. أظن أنه يملك فطنةً وحَدْسًا وقدرةً عاليةً على إصدار الأحكام الصحيحة، ومقدرةً خارقةً على إدراك الأشياء، ويمتاز أيضًا بالوضوح والدِّقَّة، وأضيفي إلى هذا سهولة التعبير بصوتٍ ذي نبراتٍ متنوِّعةٍ مريحةٍ كالموسيقى.

***

التاسع عشر من أغسطس، القرن الثامن عشر.

بالأمس حدَّثني الأجنبي قائلًا:

- «يُمكنك أن تُلاحِظ بسهولة أيها القبطان والتون أنني قد عانيتُ كثيرًا ونِلتُ قسطًا وافرًا من الأحزان. كنتُ قد قرَّرتُ أن أدفن ذكرى تلك الشرور معي، لكنك أقنعتني بأن أعدل عن رأيي. إنك -مثلما كنتُ أنا- تنشد المعرفة والحكمة، وآملُ بشِدَّةٍ ألا تتحوَّل سعادتك بغايتك إلى أفعى تَلدَغك كما حدث معي. لا أدري إن كان ما يتعلَّق بمصائبي مفيدًا لك، لكني حين أفكِّرُ كيف أنك تَسلُك الطريق نفسها وتُعَرِّض حياتك للمخاطر ذاتها التي جعلتني على هذا النحو، فإني أتصوَّرُ أنك قد تستمد من حكايتي عظةً أو عِبرةً ربما تُرشِدك إن نجحت مساعيك، أو تواسيك إن حدث غير ذلك. استعد لسماع ما يَعُدُّه الكثيرون حكاية رائعة. إذا لم نكن مُحاطين بتلك الطبيعة الموحشة، لخشيتُ ألا تُصَدِّق حكايتي، أو حتى تسخر منها، لكن قد يبدو الكثير من الأشياء في هذه المناطق الغامضة المقفرة ممكنًا، والأشياء ذاتها قد تثير ضحك من هُم غير مُطَّلِعين على قوى الطبيعة المتفاوتة، ولا يُخالِجني شكٌّ في أن حكايتي تحمل في تَسَلْسُلِهَا براهين ذاتيَّة على صِدق أحداثها».

لكِ الآن أن تتخيَّلي سعادتي بعرضه أن يروي حكايته عليَّ، لكني لم أتحمَّل رؤيته وهو يُجَدِّد أحزانه بقَصِّ تلك الأحداث المؤسِفة.

twitter @baghdad_library

لقد كنتُ متلهِّفًا على سماع الحكاية التي وعد بحكايتها لي لسببين: أحدهما إشباع فضولي، والآخَر رغبتي الشديدة في مساعدته إذا كان هذا في مقدوري، وعبَّرتُ له عن مشاعري تلك في إجابتي، فردَّ قائلًا:

- «أشكرك على تعاطُفك، لكنه غير مفيد الآن، فقد تحدَّد مصيري بالفعل. إنني أنتظر حدوث شيءٍ واحد، وبعدها سوف أرقد في سلام».

وحين لاحظ رغبتي في مقاطعته استفسارًا، استطرد قائلًا:

- «أتفهَّمُ مشاعرك، لكنك مخطئ يا صديقي -إذا كنت تسمح لي بتلقيبك بصديقي- فما من شيءٍ يُمكنه تبديل مصيري. استمع إلى حكايتي، وعندها ستُدرِك كم يتعذَّر تبديله».

أخبرَني بعدها بأنه سيبدأ في سرد حكايته في وقت فراغي في اليوم التالي، وجعلني وعده هذا أُعَبِّر عن خالِصِ شكري وامتناني. لقد قرَّرتُ أن أدوِّن كلَّ ليلة -حين لا أكون مشغولًا رغم إرادتي بواجباتي على السفينة- ما أستطيع مما يرويه الأجنبي عليَّ خلال النهار مستخدِمًا كلماته ذاتها، وإذا كنت مشغولًا فعلى الأقل سأدوِّن بعض الملاحظات. تلك المخطوطة ستجلب إليكِ من دون شَكٍّ مُتعة عظيمة، لكن بالنسبة إليَّ، فعلى الرغم من أنني أعرفه وسأستمعُ إلى الحكاية منه شخصيًّا، فإنني أتساءل كم سيكون قَدر اهتمامي وتعاطُفي حين أقرأ تلك الحكاية في أحد الأيام!

حتى الآن وأنا أشرعُ في الكتابة لا يزال تفاوُت نغمات صوته يرن في أذنيَّ، ولا أزال أذكر بريق عينيه بلُطفهما الحزين، وحركة يديه النحيلتين، وإشراقة قسمات وجهه بما يدور في نفسه. لا بُدَّ أن الحكاية غريبة ومروِّعة، كعاصفةٍ عاتيةٍ تجتاح سفينة متينة تصير بعدها أثرًا بعد عين!

الفصل الأول

چنيڤيّ الجذور أنا، وعائلتي واحدة من أكثر العائلات التي تحظى بالشُّهرة والاحترام في تلك الجمهوريَّة[1]، فأسلافي عملوا هناك كقضاةٍ ومستشارينٍ لسنواتٍ طويلة، واحتلَّ والدي عددًا كبيرًا من المناصِب المهمَّة بكلِّ شرفٍ وإخلاص، وبسمعةٍ لا يرقى إليها الشَّك. كلُّ من عرفوه كانوا يُكِنُّون له الاحترام، لانشغاله البالغ بالعمل العام، حيث كان قد أمضى معظم سنوات شبابه مهتمًّا كلَّ الاهتمام بقضايا بلاده، وحالت ظروف كثيرة دون زواجه في سِنٍّ مبكرة، وكان العُمر قد تقدَّم به بالفعل عندما تزوَّج أخيرًا وبدأ في تكوين أُسرة.

وبما أن ظروف زواجه تقول الكثير عن شخصيَّته، فلا يُمكنني إذن الإحجام عن التطرُّق إليها. كان أحد أقرب الأصدقاء إليه تاجرًا ثريًّا، قبل أن تَنحَدِر به الحال بعد سلسلةٍ من الصفقات الخاسرة إلى فقرٍ مُدقِع. هذا الرجل، الذي كان يحمل اسم بيوفورت، كان يملك كبرياءً عالية، ولم يحتمل فكرة أن يحيا في فقرٍ وعوزٍ في البلد نفسه الذي شهد أيام ثرائه ومجده، ومن ثَمَّ، بعد أن سدَّد ديونه كما تُملي أصول الشَّرف، رحل مع ابنته إلى بلدة لوتسرن حيث عاش مجهولًا بائسًا.

---

(1) يُطلِق إقليم چنيڤ، كعددٍ من الأقاليم السويسريَّة الأخرى، على نفسه اسم جمهوريَّة، لأنه جزء من الاتحاد الكونفدرالي السويسري.

twitter @baghdad_library

كان أبي يُكِن لبيوفورت أعمق مشاعر الصداقة، وأحزنه كثيرًا رحليه في تلك الظروف المؤسفة، واستنكر الكبرياء الزائفة التي أدَّت بصديقه إلى تصرُّفٍ لم يكن يليق بالمودَّة التي جمعت بينهما؛ وهكذا لم يُبَدِّد أبي وقتًا في السعي بحثًا عنه، آملًا في إقناع الرجل بأن يعيد بناء تجارته معتمِدًا على سُمعته ومساعدته.

كان بيوفورت قد اتَّخذ كلَّ التدابير اللازمة ليعزل نفسه، ولم يستطع أبي اكتشاف محل إقامته إلا بعد مُضي عشرة أشهُرٍ كاملة. سعيدًا بهذا الاكتشاف، أسرع أبي إلى المنزل القائم في شارعٍ متواضع قُرب نهر ريوس، لكن البؤس واليأس وحدهما استقبلاه عِند عتبة الباب. لم يستطع بيوفورت أن يُوَفِّر سوى النَّزر اليسير من بقايا ثروته، وكان هذا كافيًا بالكاد لتدبير أقلّ القليل من متطلَّبات المعيشة لبضعة شهور، وكان يأمل في تلك الفترة أن يتمكَّن من الحصول على عملٍ لدى أحد التُّجَّار، وهكذا مضى هذا الوقت بلا عمل، ووجد الرجل حزنه يتزايد ويتضاعف مع احتلال الأفكار السوداء لعقله كله، وفي النهاية سيطرت تلك الأفكار عليه تمامًا، وبعد انقضاء ثلاثة شهور كان طريحًا لفراش المرض، غير قادرٍ على بَذْلِ أيِّ جهد.

كانت ابنته تشمله برعايتها، لكنها كانت تُراقِب في حسرة مدَّخراتهما القليلة التي تتناقص باضطراد، وكانت تعرف أن ليس لديهما مصدر دخلٍ آخَر. لكن كارولين بيوفورت كانت مخلوقة من طينةٍ غير تقليديَّة، واتَّكأت على شجاعتها لتُساعِدها في محنتها هذه، فاشتغلت في أعمالٍ بسيطة، كأن تَجدِل أعواد القَشِّ المستخدَمة في صُنع القُبَّعات وغيرها، بالإضافة إلى أعمالٍ أخرى متعدِّدة كانت تنال منها أجورًا زهيدة تكفي متطلَّبات الحياة بالكاد.

شهور طويلة مرَّت على هذه الحال. ازدادت حالة أبيها سوءًا وأصبحَت العناية به تشغل وقتها كله، فيما تناقصَت موارد الرِّزق؛

وفي الشهر العاشر مات أبوها بين ذراعيها، تاركًا إياها يتيمة مُعدَمة. كانت هذه هي القشَّة التي قصمت ظهر البعير، وعندما دخل أبي إلى المنزل، وجدها منكفئةً على تابوت بيوفورت تبكي بمرارة. كان مجيء أبي كمجيء روْح حارسةٍ إلى الفتاة المسكينة التي أوْدعت نفسها تحت رعايته، وبعد دفْن صديقه اصطحبها أبي معه إلى چنيف حيث ظلَّت تحت حمايته، وبعد عامين من هذه الأحداث اتَّخذ أبي من كارولين زوجةً له.

كان فارِق العُمر بين أبي وأمي كبيرًا، وإن بدا أن الظروف قد وحَّدت وقاربت بينهما في رباطٍ من المحبَّة والإخلاص. كان هناك ميل في عقل أبي المُنظَّم إلى أهميَّة الخضوع للحُب، وربما يرجع هذا إلى أنه، منذ سنواتٍ مضت، كان قد اكتشف عدم أحقيَّة امرأةٍ ما بحُبِّه، ومن ثم قرَّر أن يعيد الكَرَّة مع واحدةٍ أخرى تستحقُّه، مانحًا إياها ما هو أكثر. كان التبجيل والعرفان بالجميل واضِحَيْن في ارتباطه بأمي، ولم تكن لهما علاقة بفارق السِّن، بل كان الدافع من ورائهما هو إعجابه بمزاياها وفضائلها، والرغبة في تعويضها بشكلٍ ما عن الأحزان التي تحمَّلتها، فاتَّسمَت تصرُّفاته معها برِقَّةٍ تفوق الوصف. كلُّ شيءٍ كان خاضعًا لرغباتها وما يُلائِمها ويريحها، وكافح أبي ليحيطها، كما يحيط البستاني زهرة جميلة بفائق عنايته ليحميها من الرياح العنيفة، بكلِّ ما يثير البهجة في نفسها الرقيقة. كانت صِحَّتها، وحتى روْحها المعنويَّة التي اتَّسمت بالثبات حتى تلك الفترة، تعاني من الاعتلال بعد ما مرَّ بها، وخلال العامين اللذين سبقا زواجهما كان أبي قد تخلَّى عن جميع أنشطته العامَّة، وبعد الزواج مباشرةً سعيا معًا إلى المناخ الإيطالي الصافي، حيث تغيير المناظر المحيطة والجولات الشيِّقة في هذه البلاد المليئة بالعجائب، كي تَرتَدُّ إلى أمي صحَّتها، ويعود إليها روْنقها.

بعد إيطاليا زارا ألمانيا وفرنسا، ووُلِدتُ أنا -ابنهما البِكر- في

twitter @baghdad_library

ناپولي، وصَحِبتهما طِفلًا في جولاتهما، ولسنواتٍ ظللتُ ابنهما الوحيد. وبقَدر الحُب الذي كان يُكِنُّه كلّ منهما للآخَر في قلبه، فقد بدا أنهما يغترفان حُبَّهما لي من نبعٍ لا يَنضُب ويغمراني به، والحق أن أول ذكرى أحملها من طفولتي هيَ عناق أمي الدافئ وابتسامة أبي الرقيقة وهما يُداعِباني. كنتُ لعبتهما المفضَّلة ومعبودهما، والأهم أنني كنتُ طِفلهما؛ الشيء البريء عديم الحيلة الذي أرسلته إليهما السماء، والذي كان عليهما تربيته خير تربية، فمُستَقبَله كان في أيديهما، فإما أن يوجِّهاه إلى السعادة أو إلى الشقاء، وكلاهما معتمد على إجادتهما لأداء واجباتهما نحوه. بهذا الشعور العميق بالواجب نحو المخلوق الذي جاءا به إلى الحياة، بالإضافة إلى الروْح المُحِبَّة التي تحلَّى بها كلاهما، فمن السَّهل أن تتخيَّل أنه خِلال كل ساعةٍ من طفولتي كنت أتلقَّى درسًا في المَحبَّة والصَّبر والتحكُّم في النَّفس، فكأن رباطًا حريريًّا كان يقودني وهو يبدو لي كسلسلةٍ طويلةٍ من المتع.

كنتُ مَحَطَّ اهتمامهما الأوحد لوقتٍ طويل، وكانت أمي تتوق لإنجاب فتاة، لكني ظللت ذُرِّيَّتهما الوحيدة حتى بلغتُ الخامسة من عمري. كانا يقضيان العُطلة وقتئذٍ عند الحدود الإيطاليَّة، وأقاما أسبوعًا على شواطئ بحيرة كومو. كانت طبيعتهما الطيِّبة كثيرًا ما تجعلهما يدخلان أكواخ البسطاء، وبالنسبة لأمي لم يكن هذا مجرَّد واجبٍ وإنما ضرورة، بل إنه كان شغفًا يدفعها للعمل كملاكٍ حارِس للفقراء، فلم يَغِب عن بالها قَطُّ كيف عانت هي من قبل، وكيف أُنقِذَت من معاناتها. وأثناء واحدةٍ من نزهاتهما، لفت أحد الأكواخ في الوادي انتباههما، إذ كان في حالةٍ يُرثى لها أكثر من المعتاد، والأطفال المجتمعون حوله بملابسهم البالية كانوا تجسيدًا للفاقة في أسوأ صورها. هكذا عادت أمي إلى ذلك الكوخ مصطحبةً إياي بعد عِدَّة أيام بينما كان أبي وحده في ميلانو. وجدَت أمي فلَّاحًا وزوجته يبدو عليهما العناء الشديد،

محنيًّا ظَهراهما من فرط الهَمِّ والكَدِّ، يُوَزِّعان وجبة هزيلة على خمسةٍ من الأفواه الجائعة. من بين الأطفال الخمسة شعرت أمي بانجذاب شديد إلى طِفلةٍ بعينها، طِفلةٍ بدت كأنها من سلالةٍ أخرى تمامًا. الأربعة الآخَرون كانوا داكني الأعين، ولا يتعدون حَفنة من المتشرِّدين الصغار، أما هذه الفتاة فكانت نحيلة بارعة الحُسن، ورغم فقر ملابسها الواضح فقد بدت كأنها تضع تاجًا من السُّمُو على رأسها. شعرها كان شلَّالًا من الذَّهب الحي، جبهتها عريضة ناصعة، وعيناها الزرقاوان كلُجَّتين صافيتين من ماء البحر، شفتاها وقسمات وجهها تنضح برِقَّةٍ وعذوبةٍ تجعل كلَّ من يتطلَّع إليها يكاد يُقسِم أنها من جنسٍ آخَر؛ كائن سماوي يحمل سمات الجمال في ملامحه كلها.

لاحظَت الفلَّاحة أن أمي كانت تَرمُق هذه الفتاة الفاتنة بنظراتٍ تحمل كلَّ الإعجاب والشَّغف، فبادرَت متطوِّعة بحكي حكايتها. هي لم تكن ابنتها، بل ابنة نبيل من ميلانو وأم ألمانيَّة ماتت أثناء الولادة، فتعهَّد الزوجان الطيِّبان برعاية الرضيعة، وكانت ظروفهما أفضل في تلك الأيام، حيث كانا حديثي الزواج وابنهما الأكبر كان لا يزال رضيعًا. كان أبو الفتاة واحدًا من هؤلاء الذين ما زالوا يحلمون بعودة مجد إيطاليا القديم، وعضوًا في حركة العبيد المرتجفون دومًا[1]، فكان يُكَرِّس نفسه لتحرير بلاده. راح الرجل ضحيةً لضَعف البلاد، وظَلَّ مصيره غامضًا، سواء مات أو انزوى في غياهب سجون النمسا، فصودِرَت ممتلكاته، وصارت الفتاة بلا أهلٍ أو مال، وهكذا واصلَت حياتها مع أبويها بالتَّبنِّي، وترعرعت في بيتهما الفقير كزهرةٍ يانعةٍ تفتَّحت وسط غابةٍ من الحشائش.

---

(1) حركة ثوريَّة كانت تُكافِح الاحتلال النمساوي لإيطاليا في تلك الفترة، والتعبير يشير إلى الارتجاف غضبًا من المحتل.

twitter @baghdad_library

هكذا عندما عاد أبي من ميلانو وجدني ألعب في ردهة ڤيلتنا مع فتاةٍ أجمل من الملائكة التي نراها في الصُّور؛ طِفلة تُشِعُّ نظراتها بالعذوبة، وتتحرَّك بخِفَّةٍ ونعومةٍ تُذَكِّرانك بغزلان التلال.

سرعان ما فسَّرت له أمي حقيقة الفتاة التي بدت له أشبه بالطَّيف، وبإذنه انتقلَت الصغيرة من رعاية أبويها البسيطين إلى عناية أمي. كانا مُغْرَمَيْن بالفاتنة اليتيمة، وكان حضورها يحيطهما بالبَرَكة، لكن كان من غير العدل أن يُبقياها في حياة الضَّنك هذه طالما جاءت إليها العناية الإلهيَّة بهذه الفرصة للفرار منها. استشار الزوجان قِسَّ القرية، وكانت النتيجة أن أصبحَت إليزابث لاڤنزا نزيلة في منزلنا وأضحَت أكثر من أختٍ لي، رفيقتي الجميلة المحبوبة في كلِّ اهتماماتي ومسرَّاتي.

أحبَّ الجميع إليزابث، وكان الارتباط العاطفي الذي يكاد يبلغ حَدَّ التوقير بكلِّ ما يتعلق بها -وكنت أنا جزءًا منه بالطبع- مصدر فخري وبهجتي. أذكرُ أن في الليلة السابقة لمجيئها إلى منزلنا، قالت لي أمي مُداعِبةً:

- «لديَّ هديَّة جميلة لصغيري ڤيكتور، وسيحصل عليها غدًا».

وعندما قدَّمت أمي إليزابث لي في اليوم التالي كهديَّتها الموعودة وجدتُ نفسي -بجدِّيَّة طفوليَّة- أترجم كلماتها حرفيًّا، ونظرتُ إلى إليزابث على أنها لي.. لي كي أحِبُّها وأحميها وأدلِّلها.

كلُّ كلمة ثناءٍ أو إعجاب أو مديح لها تلقَّيتها أنا على أنها موجَّهة إلى شيءٍ أملكه. على نحوٍ غير رسميٍّ كان كلانا يدعو الآخَر بابن العم، لكن ليس من كلمةٍ أو تعبيرٍ يُمكنهما وصف العلاقة التي ربطتنا معًا. هي أكثر من أختي، وحتى الموت كانت لي وحدي.

الفصل الثاني

تربَّينا معًا، إليزابث وأنا، ففارِق العُمر بيننا كان أقلَّ من عام واحد، ولستُ في حاجةٍ لأن أقول إن علاقتنا لم تعانِ من أيِّ خلافٍ أوَ شِقاق، فالتناغُم والانسجام كانا السِّمة المميِّزة لرفقتنا، والتبايُن بين شخصيَّتينا قرَّب بيننا أكثر وأكثر. إليزابث كانت أكثر هدوءًا وثباتًا مني، أما أنا فكنتُ مليئًا بالحماسة وقادرًا على بذل المجهود العنيف، فقد كنتُ مصابًا بظمأٍ مستمرٍّ للمعرفة. شغلَت هي نفسها بمتابَعة أعمال الشُّعراء الخياليَّة، وفي المناظر الخلَّابة المحيطة ببيتنا السويسري -ذُرى الجبال المهيبة، الفصول المتعاقِبة، العواصف والهدوء الذي يَسبِقها ويتلوها، صمت الشِّتاء، فتنة الحياة في صيف جبال الألپ- وجدت إليزابث فرصة لا تُعَوَّض للاستمتاع بالجَمال والصَّفاء. وبينما كانت رفيقتي تتأمَّل بروح راضية روعة الأشياء حولنا، كنتُ أجد متعتي في البحث عن أسبابها، فالعالم كان بالنسبة لي سِرًّا أتوقُ لاكتشافه. هكذا صار الفضول والبحث الدؤوب عن خفايا قوانين الطبيعة، والسرور المشوَّب بالنشوة مع تجلِّي هذه الأسرار لي، بعضَ أولى المشاعر التي عرفتها.

مع مولد الابن الثاني -أخي الذي يَصغُرني بأعوام سبعة- تخلَّى أبي وأمي تمامًا عن حياة التجوال، واستقرَّا بشكلٍ دائم في بلدهما الأم. كنا نملك منزلًا في چنيف ومنزلًا ريفيًّا آخَر في بيلرِّڤا على الشاطئ

twitter @baghdad_library

الشرقي للبحيرة الذي يَبعُد بما يزيد قليلًا عن الفرسخ عن المدينة. أقمنا أغلب الوقت في المنزل الثاني، ومرَّ ما تبقَّى من حياة والديَّ في عُزلةٍ تامَّة. كان من طباعي أن أتجنَّب الزحام، وأن أنجذب بتلقائيَّةٍ إلى المجموعات قليلة العدد، وترتَّب على هذا قِلَّة اهتمامي بزملائي في المدرسة بشكلٍ عام، لكن صداقة قويَّة ربطتني بواحدٍ فقط منهم. كان هنري كليرڤال ابنًا لتاجرٍ من چنيڤ، يتميَّز بموهبةٍ وذوقٍ فريدين، ويُحِبُّ المغامَرة والمشقَّة والخطر لمجرَّد أن هذا يروق له. كان يهيم حُبًّا أيضًا بكُتُب الفروسيَّة وقصص الحب الأسطوريَّة، وألَّف كثيرًا من القصائد البطوليَّة، وبدأ يكتب العديد من حكايات السِّحر ومغامَرات الفرسان. حاول كليرڤال أن يجعلنا نُمَثِّل في مسرحيَّاتٍ من تأليفه، وأن نقيم حفلاتٍ تنكُّريَّة تُجَسِّد شخصيَّاتها أبطال معركة رونسيڤو[1]، أو تأتي من حول مائدة الملك آرثر المستديرة[2]؛ أو تُمَثِّل غيرهم من الأبطال الكثيرين الذين بذلوا دماءهم من أجل حماية القبر المقدَّس[3].

---

(1) معركة شهيرة تحمل من الأسطورة أكثر من التاريخ، وهي مذكورة في ملحمة رولاند التي يعود تاريخ كتابتها إلى الفترة ما بين سنة 1100 م وسنة 1125 م، وتتكوَّن من أكثر من أربعة آلاف بيتٍ من الشِّعر الملحمي باللغة الفرنسيَّة القديمة. تُصوِّر هذه الملحمة فَناء مؤخِّرة الجيش الچرماني الغربي على يد جيش المسلمين في ممر رونسيڤو الإسپاني، ثم انتقام ملك الفرنجة كارلوس ماجنوس من المسلمين؛ وتدور أحداث هذه الملحمة حول المعركة البطوليَّة التي سقط فيها الشريف الألماني رولاند، أحد فرسان ماجنوس.

(2) المائدة التي كان الملك آرثر وفرسانه يجتمعون حولها دائمًا في كاميلوت وأصبحت رمزًا للمساواة، لأن لا أحدَ منهم كان يجلس على رأس المائدة، وآرثر نفسه شخصيَّة أسطوريَّة، رُغم أن هناك دلائل تشير إلى كونه شخصيَّة حقيقيَّة.

(3) يَقصِد قبر المسيح عليه السلام، الذي يُعتَقَد أنه يقع في كنيسة القيامة المبنيَّة داخل أسوار البلدة القديمة في القُدس، والأبطال المقصودون هنا هُم فرسان الحملات الصليبيَّة.

لا يُمكنني أن أتخيَّل إنسانًا آخَر أمضى طفولة أسعد من طفولتي مع روْح الحنان والتدليل التي تحلَّى بها والداي، فلم نشعر للحظةٍ واحدةٍ أن أيهما طاغية يفعل بنا ما يشاء كما يُملي عليه مزاجه، بل كانا بمثابة رسولَيْن للمسرَّات التي كنا ننهل منها، وتجلَّت لي هذه الحقيقة أكثر عندما اختلطتُ بالعائلات الأخرى، فشعرتُ حينها كم كنت محظوظًا، وأصبح الامتنان لأبويَّ جزءًا من حبي البُنُوِّي لهما. كان مزاجي يميل أحيانًا إلى العُنف، وانفعالاتي إلى الاتِّقاد، لكن ثمَّة شيئًا ما في داخلي كان يجعلني أتجنَّب مطارَدة الأوهام الطفوليَّة، ويُوَجِّهني بكلِّ ما لديَّ من شغفٍ نحو الرغبة في التعلُّم، بشَرط ألا أحاول أن أتعلَّم كلَّ شيءٍ بلا تمييز. أعترفُ أنني لم أحمل أيَّ اهتمام بقواعد اللُّغات أو قوانين الحكومات أو سياسات الدُّول المختلِفة؛ إذ كانت أسرار الأرض والسماء هي الشيء الذي أتوق إلى تعلُّمه؛ وسواء كان ما يشغل بالي هو العناصر الخارجيَّة للأشياء، أم روح الطبيعة المتوارية وجوهر الإنسان الغامض، فإن اهتماماتي كلها كانت منصبَّة على أسرار ما وراء الطبيعة، أو -بمعنى أصح- على الأسرار الفيزيائيَّة للعالم.

في تلك الأثناء كان كليرڤال -على عكسي- شاغلًا نفسه بالعلاقات المعنويَّة بين الأشياء. أفكاره كلها كانت تدور حول مسرح الحياة صاخِب الحركة وفضائل الأبطال ومآثر البَشَر، وكان أمله وحلمه أن يُصبِح واحدًا من هؤلاء الذين تُسَجَّل أسماؤهم في القِصَص مصحوبةً بعبارات التمجيد والتعظيم لهم كمُساهِمين في منفعة جنسنا البَشَري. أما إليزابث فقد كانت روحها الطاهرة تحيط بنا كنورِ سراجٍ لا يخبو. تعاطُفها وتشجيعها كانا لنا طوال الوقت، وابتسامتها وصوتها الرقيق ونظرة عينيها الصافية كانت تُفعِمنا بالحيويَّة دائمًا. كانت إليزابث تجسيدًا حيًّا للحُبِّ بكلِّ حنانها وجاذبيَّتها، ولعلَّ طبيعتي الحماسيَّة

twitter @baghdad_library

كانت لتوقعني في قبضة الهَمِّ والاكتئاب مع مُثابَرتي في دراستي لولا وجودها لتُخَفِّف عني في رِقَّة. كذلك كليرڤال -الذي أتمنى ألا تصاب روْحه النبيلة بأيِّ سوء- لم يكن ليتحلَّى بالعطف والسماحة والرِّقَّة في غمار ولعه الدائم بالبطولات والملاحم، لولا أنها وضحت له معنى البطولة الحقيقي، وجعلت فِعل الخير غاية ومنتهى طموحه المُحَلِّق.

أشعرُ بلَذَّةٍ بالغةٍ في إسهابي في سَرد ذكريات طفولتي، فهي كلُّ ما حملتُ في مخيِّلتي قبل أن يتلوَّث عقلي ويطمس السواد بصيرتي، فعندها استحالت كلُّ رؤى المُستَقبَل الباهِر إلى نظرةٍ ضيِّقةٍ مُظلِمةٍ إلى نفسي، بالإضافة إلى أنني، في رسمي لصورة أيامي الأولى، أسجِّل الأحداث التي قادتني بخطىً عمياء إلى حكايتي البائسة، كما أنني حينما أُذَكِّر نفسي بهذا الشَّغف الذي سيطر على مصيري فيما بعد، أجده ينهض من جديد كنهرٍ يَنهَمِر على جبل من مكانٍ منسي في العقل، وأجده يتضاعَف ويتعاظَم حتى يُصبِح ذلك السَّيل الذي اكتسح في مجراه كلَّ آمالي وسعادتي.

الفلسفة الطبيعيَّة هي المجال الذي حدَّد مصيري، ولهذا أرغبُ من خلال سياق هذه الحكاية أن أصارِحك بالحقائق التي قادتني إلى الانشغال بهذا العِلم. عندما كنتُ في الثالثة عشرة من عمري ذهبنا كلنا في رحلة استجمام إلى الينابيع الواقعة قرب ثونون في فرنسا، وأجبرَنا سوء الطقس على البقاء ليوم كامل في الخان الذي نزلنا فيه. في هذا المنزل عثرتُ على مجلَّدٍ يَضُمُّ أعمال كورنيليوس أجريبا. فتحتُ الكتاب في فتور، لكن النظريَّات التي وجدتُ أنه يحاول البَرهَنَة عليها، والحقائق التي ربط بينها، سرعان ما جعلت الحماسة تُسَيطِر على مشاعري. بدا كأن ضوءًا جديدًا يُشرِق على عقلي، وهُرِعت إلى أبي مسرورًا باكتشافي، لكنه نظر إلى العنوان في لامبالاة، وقال:

- «آه! كورنيليوس أجريپا[1]. عزيزي ڤيكتور، لا تُضَيِّع وقتك في قراءة هذا. إنه مجرَّد هراء».

لو كان أبي، بدلًا من تلك الملاحَظة العابرة، قد كلَّف نفسه عناء أن يشرح لي أن مبادئ ومعتقدات أجريپا لم تَصمُد أمام العِلم الحديث الذي يستحوذ على قوى أكبر من العِلم القديم بمراحل، لأن قوى الأخير وهميَّة، بينما قوى الأول حقيقيَّة وعمليَّة، لكنتُ بالتأكيد قد نحَّيتُ كتاب أجريپا جانبًا، وأقنعتُ خيالي الدافئ بأن يعود بحماسةٍ أشد لدراساتي السابقة، ومن المحتمَل كذلك أن سلسال أفكاري لم يكن ليتلقَّى الدَّفعة المهلِكة التي قادت في النهاية إلى دماري.

لكن النظرة العابرة التي ألقاها أبي على المجلَّد جعلتني متأكِّدًا من أنه لم يسبق له الاطلاع على محتوياته، وهكذا واصلتُ القراءة في شراهة، وعندما عُدنا إلى منزلنا كان همِّي الأول هو العثور على بقيَّة مؤلَّفات هذا الرجل، وبعده على مؤلَّفات پاراسلسوس[2] وألبرتوس ماجنوس[3]. قرأتُ ودرستُ أفكار هؤلاء الكُتَّاب الجامحة في شغف، وبدت كتاباتهم لي ككنوزٍ لا يدري بها إلا أنا وقِلَّة من الناس. لقد وصفتُ نفسي دائمًا بأنني ممسوسٌ بتوقٍ لا ينضب للنفاذ إلى أسرار الطبيعة، وعليه كنتُ -على الرغم من الجهود الشاقَّة والاكتشافات الرائعة للفلاسفة المعاصِرين- لا أجد في دراستي ما يُشبِع نهمي ويُرضيني.

---

(1) هنريكوس كورنيليوس أجريپا: كيميائي وعالم لاهوت ومشعوذ ألماني سيئ السمعة، له عدد من المؤلفات التي أثبت العلم الحديث خطأ كلِّ ما جاءت به.

(2) ثيوفاراستوس ڤون هوهنهايم، الشهير بپاراسلسوس: طبيب وكيميائي سويسري.

(3) ألبرتوس ماجنوس: راهب وفيلسوف ألماني دومينيكي، اهتمَّ بدراسة النباتات والمخ البشري.

twitter @baghdad_library

يُقال إن سير إسحق نيوتن قد أعلن أنه شعر كأنه طِفل يجمع المحار من بين رمال شاطئ محيط الحقيقة العظيم الذي لم يستكشفه أحد، وهكذا بدا لإدراكي الصبياني أن خلفاءه في كلِّ فرعٍ من فروع الفلسفة الطبيعيَّة الذين تعرفتُ إليهم كانوا مجرَّد مبتدئين يسيرون في الطريق ذاتها. لقد لاحَظ نيوتن، الفلَّاح الأُمِّي، العناصر المحيطة به وعرف كيف ينتفع منها، واستطاع نيوتن، الفيلسوف المتعلِّم، أن يعرف ما هو أكثر بقليل: بشكلٍ ما كشف الستار عن وجه الطبيعة، لكن ملامحها الخالدة لم تزل أعجوبَةً ولغزًا. كان بإمكانه أن يُحَلِّل ويختبر ويُشرِّح ويمنح أسماءً للأشياء، لكنه -بصرف النظر عن الإرادة الإلهيَّة- ظَلَّ يجهل الكثير عن أسباب حدوثها في الأصل. أما أنا فقد تطلَّعتُ إلى الحصون والبروج التي بدت كأنها تمنع الإنسان من دخول قلعة الطبيعة، وبتهوُّرٍ وجهلٍ تذمَّرتُ.

لكن ها هي الكُتُب، وها هم رجال تعمَّقوا وعرفوا أكثر، ووثقتُ أنا في البراهين التي منحوها، وإذا بي أصبحُ واحدًا من حواريهم. قد يبدو غريبًا أن يَحدُث شيء كهذا في القرن الثامن عشر، لكنني، وأنا أتلقَّى تعليمي التقليدي في مدارس چنيف، كنتُ إلى حدٍّ كبير أُعَلِّم نفسي بنفسي فيما يتعلَّق بدراساتي الأخرى التي أهواها. لم يكن أبي ملمًّا بالعلوم، ولهذا كان عليَّ -مع عطشي للمعرفة- مصارَعة الجهل في طفولتي، وقادني هذا تحت قيادة أساتذتي الجُدُد إلى أن أبدأ بكلِّ حماسةٍ بحثًا عن حجر الفيلسوف[1] وإكسير الحياة، لكن الأخير سرعان ما استحوذ على جُلِّ اهتمامي. كانت الثروة هدفًا ثانويًّا، لكن المجد

---

(1) كان كيميائيُّو العصور الوُسطى يبحثون دائمًا عن حجر الفيلسوف، الذي اعتقدوا أنه يستطيع تحويل المعادن إلى ذهب وفِضَّة، وعن إكسير الحياة الذي يمنح الخلود.

كله كان يَكمُن في تمكُّني من طرد المرض من الجسد البَشَري، وجَعْل الإنسان منيعًا أمام أيِّ شيءٍ سوى ميتة عنيفة! لم يكن هذا هو مبتغاي الوحيد، فإحياء الأشباح والشياطين كان موضوعًا تحدَّث عنه مؤلِّفيَّ المفضَّلون بسخاء، وتحقيقه أصبح هدفًا لي. وعندما كانت تعاويذي تفشل دائمًا، وكنت أعزو هذا إلى قِلَّة خبرتي وارتكابي للأخطاء، بدلًا من افتراض افتقار أساتذتي للمهارة والدِّقَّة. هكذا انشغلتُ لوقتٍ طويل بمنظوماتٍ هشَّة، مازِجًا بكلِّ حمقٍ بين مئات النظريَّات المتناقِضة، ومتخبِّطًا في يأسٍ في مستنقَع المعارف المتنوِّعة، يقودني خيالي الواسع وتفكيري الطفولي.. حتى وقع حادِث آخَر جاء ليُغَيِّر مجرى أفكاري.

كنتُ في الخامسة عشرة من عمري تقريبًا عندما عُدنا إلى منزلنا الريفي بالقُرب من بيلرڤا، وشهدنا هناك عاصفة رعديَّة يفوق عنفها الوصف. جاءت العاصفة من وراء جبال چورا، وكان هزيمها يُدَوِّي بصوتٍ مخيف يَصُمُّ الآذان في شتَّى أركان السماء. ظللتُ في مكاني أراقب تقدُّم العاصفة في فضولٍ وشغف، وبينما كنتُ واقفًا عند باب الدار، إذا بخيطٍ من النيران يَندَلِع من شجرة بلوط قديمة جميلة تبعد عن المنزل بعشرين ياردة تقريبًا، وبمجرَّد أن راح الضوء المبهر كانت الشجرة كلها قد اختفت معه، ولم يتبقَّ مكانها إلا قطعة خشبٍ محترِقة. عندما ألقينا نظرة على البُقعة التي كانت تحتلها الشجرة في اليوم التالي وجدناها محطَّمة بشكلٍ غريب. لم تكن ممزَّقة من الصَّدمة، بل تحوَّلت إلى أشلاءٍ من شرائط الخشب؛ ولم يكن قد سبق لي أن رأيتُ شيئًا حَلَّ به دمار بهذه الصورة على الإطلاق.

قبل هذا الحادث كنت مُلِمًّا بالقوانين العامَّة للكهرباء، وفي هذه المناسبة كان معنا رجل متبحِّر في الفلسفة الطبيعيَّة، وقد أثار الحادث

twitter @baghdad_library

حماسته، فاندفع يشرح لنا تفسيرًا لنظريَّة توصَّل إليها عن الكهرباء والتفاعلات الكيميائيَّة، وهي نظريَّة بدت لي جديدة ومُدهِشة. كان كلُّ ما قاله يتناقَض تمامًا مع نظريَّات أساتذتي أجريبا وماجنوس وپاراسلسوس، وكان قَدَري حينها أن تدفعني هزيمة هؤلاء إلى العودة إلى دراساتي المعهودة. بدا لي وقتها أنني لن أستطيع معرفة أو اكتشاف أيِّ شيء، وجُلُّ ما انصبَّ عليه اهتمامي كله أصبح حينها عديم القيمة. بهذا التقلُّب في المزاج الذي نتعرَّض له كثيرًا في سنوات الشباب الأولى تخلَّيتُ عن اهتماماتي السابقة، واعتبرتُ التاريخ الطبيعي وكلَّ ما يُبنى عليه هراءً في هراء، بل إنني استمتعتُ بازدرائي لشِبه العِلم هذا الذي لن يخطو خطوة واحدة أبدًا على عتبة المعرفة الحقيقيَّة. بهذه الأفكار انكببتُ على الرياضيَّات وغيرها من فروع الدراسة المتعلِّقة بالعِلم الحديث المبني على دعائم صلبة، العِلم الذي يستحق اهتمامي بحق. هكذا نفوسنا.. غريبة، متقلِّبة، وبروابطٍ صغيرة كهذه يكون مصيرنا النجاح أو الهلاك. عندما أنظرُ إلى هذه الأحداث يبدو لي أن هذا التغيُّر العجيب في الميول والإرادة كان إيحاءً مُباشرًا من ملاك حياتي الحارِس؛ آخِر مُحاوَلة من روْحي الحارِسة لمنع العاصفة التي كانت معلَّقة وقتها بين النجوم تستعد لابتلاعي، والتي أعلنت انتصارها بهدوءٍ نفسيٍّ غير معتاد تبع هجراني لدراساتي القديمة التي اكتشفتُ لاجدواها حديثًا. هكذا تعلَّمتُ أن أربط الإيمان بها بالشر، وإهمالها بالسعادة.

مجهود قوي بذلَته روح الخير في داخلي بلا جدوى. كان القَدَر قد حدَّد مصيري بالفعل، وقوانينه الصارمة كانت قد قضت بدماري التَّام.

الفصل الثالث

عندما أتممتُ السابعة عشرة من عمري، قرَّر أبي وأمي أنني يجب أن أدرس في جامعة إنجولشتادت[1]. كنتُ أتلقَّى علومي حتى ذلك الحين في مدارس چنيڤ، لكن أبي ارتأى أنه من الضروري لإتمام عمليَّة تعليمي أن أطَّلع على أعراف وعادات البلاد الأخرى. هكذا تحدَّد ميعاد رحيلي في وقتٍ مبكِّر، لكن قبل أن يأتي اليوم الموعود وقعت أول مأساة في حياتي، وكأنها كانت نذيرًا ببؤسي القادم. أصيبت إليزابث بالحُمَّى القرمزيَّة، وكانت حياتها في خطرٍ حقيقي من شِدَّة المرض. حاولنا إقناع أمي مرارًا وتكرارًا خلال مرض إليزابث بأن تمتنع عن رعايتها، واستسلمَت أمي في البداية لتوسُّلاتنا، لكنها عندما سمعت أن حياة فتاتها المفضَّلة مُعرَّضة للخطر لم تستطع التحكُّم في توتُّرها، ولازمت إليزابث في فراش المرض، وفي النهاية تغلَّبت رعايتها على الداء وصارت إليزابثَ في أمان، لكن عواقب هذه الحماقة كانت وخيمة على راعيتها. مرضت أمي في اليوم الثالث، وصاحَبَت حُمَّاها أشد الأعراض طرًّا، وكانت النظرات في عيون الأطباء الذين

---

(1) تأسَّست الجامعة في البلدة الباڤاريَّة التي تحمل الاسم نفسه في عام 1472، وكانت المكان الذي شهد مولد حركة التنويريِّين.

twitter @baghdad_library

لازموها منذرةً بأسوأ نتيجةٍ يُمكن تخيُّلها. على فِراش الموت لم تتخلَّ تلك التي كانت خير النساء عن ثباتها ورِقَّتها، وقَبِضَت على يدي ويد إليزابث معًا، وقالت:

- «أيها العزيزان، إن كلَّ آمالي في سعادتي المُستَقبَليَّة كانت مبنيَّة على إمكانيَّة اجتماعكما معًا، وسيكون هذا هو السلوان الوحيد لأبيكما الآن. إليزابث يا حبيبتي، يجب أن تُعَوِّضي ابنيَّ الصغيرين عن غيابي. يا للخسارة! يُؤسِفني أن أرحل عنكم هكذا. أفليس من الصعب أن أُسلَب منكم بعد كل السعادة والحُبِّ اللذين حظيت بهما؟ لكن تلكم الأفكار لا تُلائِمني، وسأحاولُ أن أُسَلِّم نفسي للموت وأنا راضية، وأكتفي بأملي في لقياكم جميعًا في عالمٍ آخَر».

أسلمَت أمي الروْح بهدوءٍ، ولم تحمل ملامحها سوى الرِّقَّة والوداعة حتى في الموت. لستُ في حاجةٍ لأن أصف مشاعر هؤلاء الذين تنقطع أعز وأحب روابطهم بشَرٍّ لا رجعة منه، والفراغ الذي يفرض نفسه على الروح، واليأس الذي يرتسم على الوجوه. يمضي وقت طويل قبل أن يستطيع العقل إقناع نفسه بأن تلك التي كنَّا نراها كلَّ يوم، والتي كان وجودها جزءًا من وجودنا ذاته، قد رحلت ولن تعود، وأن الألق في عينيها الجميلتين قد انطفأ، وأن وَقْع صوتها الحميم الحبيب على الأذن قد صمت ولن يُسمَع بعدها أبدًا. هذه هي أفكار الأيام الأولى، لكن عندما يمضي الزمن كاشفًا عن حجم الفجيعة.. عندها يبدأ الألم الحقيقي. لكن ممن لم تَسلِب يد الموت القاسية عزيزًا؟ ولماذا يجب أن أصف أحزانًا لا بُدَّ وأن يختبرها الجميع ذات يوم؟ يأتي في النهاية الوقت الذي يُصبِح فيه الحزن عادةً أكثر من ضرورة، والابتسامة التي تتلاعَب على الشِّفاه، رغم اعتقاد البعض أنها انتهاك لحُرمة الحزن، ليست بعيدة المنال إلى ذلك الحد. ماتت

أمي، لكن كانت هناك واجبات ما زال علينا القيام بها، فيجب أن نكمل طريقنا مع الأحياء، ونتعلَّم أن نَعُدَّ أنفسنا محظوظين طالما لم نقع بعد في براثن هادم الملذَّات. رحيلي إلى إنجولشتادت -الذي تأجَّل بسبب هذه الأحداث- تحدَّد له موعد جديد، بعد أن كنتُ قد حصلتُ من أبي على إذنٍ بإرجائه لبضعة أسابيع. خطر لي أنه من المُخجِل أن أترك الهدوء الذي ساد المنزل بعد الوفاة، وأنغمس في حومة الحياة. كان الحزن شيئًا جديدًا عليَّ لكنه لم يُرهِبني، وإن كنتُ غير راغبٍ في ترك هؤلاء الذين تبقُّوا لي، وفوق كل شيء كنتُ أتوق إلى أن أرى إليزابث العزيزة وقد خَفَّ حزنها.

كانت إليزابث، في الواقع، تواري حزنها وتكافح كي تُعَزِّينا جميعًا، وواصلَت الحياة بثبات، وأدَّت واجباتها بشجاعةٍ وحماسة، مُكرِّسةً نفسها لهؤلاء الذين اعتادت أن تناديهم بالعم وأبناء العم. لم تَبْدُ ساحرةً قَطُّ مثلما بدت في تلك الفترة، عندما استعادت بريق ابتساماتها ووزَّعتها علينا، حتى إنها نسيت حزنها في محاولتها لجعلنا ننسى حزننا.

وجاء يوم سفري أخيرًا، وأمضى كليرڤال الليلة الأخيرة معنا. كان قد حاول كثيرًا إقناع والده بالسماح له بأن يصحبني ويُصبِح زميلي في الدراسة، لكن بلا جدوى. كان والده تاجرًا ضَيِّق الأفق، وكان يرى في أحلام وطموحات ابنه سخفًا. شعر هنري بالحزن الشديد لحرمانه من التعليم الحُر. تحدَّث قليلًا ليلتها، لكن عندما كان ينطق كنت أرى في عينيه المتَّقدتين ونظراته المشعَّة تصميمًا راسخًا -وإن كان مكبَّلًا رُغم ذلك- على ألا يُصبِح أسيرًا للتجارة.

جلسنا حتى وقتٍ متأخِّر، ولم يستطِع أحدنا فصل نفسه عن الآخَر، أو أن يُقنِع نفسه بأن يقول كلمة «وداعًا»، وعندما قلناها تظاهر كلٌّ منا بأن الآخَر قد خدعه ولم يقلها. عندما جاء الفجر ونزلتُ إلى العربة التي

twitter @baghdad_library

ستُقِلُّني كانوا كلهم هناك: أبي ليُبارِكني مرَّة أخرى، وكليرڤال ليَشُدَّ على يدي من جديد، وإليزابث لتُجَدِّد مناشدتها بأن أكتب لها كثيرًا، ولتمنح اهتمامها الأنثوي الأخير لصديقها ورفيقها في اللعب.

ألقيتُ بنفسي في العربة التي ستأخذني بعيدًا، وانغمستُ في أكثر الأفكار كآبةً. أنا الذي كنتُ دائمًا محاطًا بالصُّحبة الطيِّبة، أنا الذي كنتُ أمنحهم وأتلقَّى منهم البهجة في آنٍ واحد، أصبحتُ الآن وحيدًا. في الجامعة التي أنا ذاهب إليها لا بُدَّ أن أُكَوِّن صداقاتي الخاصَّة، وأن أحمي نفسي بنفسي. حياتي حتى تلك المرحلة كانت منزليَّة منعزِلة، وجعلني هذا أشعر بالنفور مما يُناقِض هذا. أحببتُ أخويَّ إرنست وويليام، وأحببتُ إليزابث وكليرڤال. هؤلاء كانوا وجوهًا قديمة مألوفة[1]، ولهذا وجدتُ نفسي غير صالحٍ على الإطلاق لصُحبة الغرباء. تلك كانت أفكاري أثناء رحلتي، لكنَّ آمالي وروحي المعنويَّة ارتفعت مع امتداد الطريق. كنت مُتلهِّفًا على اكتساب المعرفة، وكثيرًا ما فكَّرت في بيتي أنه من العسير أن أظلَّ خلال شبابي حبيس مكانٍ واحد، وكنتُ أتوق لمعرفة العالم، واتخاذ وضعي بين غيري من البشر؛ والآن تحقَّقت رغباتي، وكان من الحماقة بالتأكيد أن أشعر بالأسف لهذا.

الرحلة الطويلة المرهِقة إلى إنجولشتادت كانت تكفي لهذه الأفكار ويزيد، وأخيرًا تبدَّى لعينيَّ بُرج كنيسة المدينة الأبيض العالي، وهكذا ترجَّلتُ واصطحبني أحدهم إلى شقَّتي النائية لأقضي الليلة كما يروق لي، وفي الصباح التالي قدَّمتُ أوراقي للجامعة، وقمتُ بزيارة أساتذتي الأساسيين. قادتني المصادفة -أو هي قبضة الشر، ملاك الدمار الذي

---

(1) «وجوه قديمة مألوفة» هو عنوان قصيدة كتبها الشَّاعر الإنجليزي تشارلز لامب في عام 1798.

بسط سيطرةً لا حدَّ لها عليَّ منذ قادتني خطاي المتبرِّمة بعيدًا عن باب أبي- أولًا إلى البروفيسور كريمپه، پروفيسور الفلسفة الطبيعيَّة في الجامعة. كان رجلًا فظًّا، لكنه متبحِّر في أسرار علمه. ألقى عليَّ أسئلة كثيرة بخصوص تقدُّمي في مُختلَف فروع العِلم المتعلِّقة بالفلسفة الطبيعيَّة، فأجبته بلامبالاة، وبطريقة أقرب إلى الاحتقار ذكرت أسماء أساتذتي الذين درستُ أعمالهم.

حدَّق فيَّ البروفيسور قائلًا:

- «هل بذلت وقتك بالفعل في دراسة هذا الكلام الفارغ؟».

أجبتُ بالإيجاب، فاستطرد في حِدَّة:

- «كلُّ دقيقة، بل كلُّ لحظةٍ ضيَّعتها على هذه الكُتُب راحت بلا رجعة. لقد شغلت ذاكرتك بنظريَّاتٍ عقيمة وأسماءٍ بائدة. يا إلهي! هل كنت تعيش في صحراء لم تجد فيها أحدًا يملك ما يكفي من الكياسة ليقول لك إن تلك الخيالات التي تشرَّبتها في نهم عُمرها ألف عام والعفن يُغَلِّفها؟ لم أتوقَّع قَطُّ أن أجد في عصر النهضة هذا تابعًا لألبرتوس ماجنوس وپاراسلسوس. سيِّدي العزيز، لا بُدَّ أن تبدأ دراساتك كلها من جديد».

قالها، ثم كَتَبَ لي قائمة بكُتُب كثيرة خاصَّة بالفلسفة الطبيعيَّة أراد مني أن أقتنيها، وصَرَفَني بعد أن ذَكَر أنه في بداية الأسبوع التالي سيبدأ دورة مُحاضراتٍ عن الفلسفة الطبيعيَّة وعلاقاتها العامَّة، وأن زميله البروفيسور ڤالدمان سيُلقي محاضراتٍ عن الكيمياء في الأيام التي لا يُحاضِر فيها هو.

عُدتُ إلى منزلي غير شاعرٍ بالندم، فقد سبق لي أن قلت إنني عددتُ المؤلِّفين الذين شجبهم البروفيسور عديمي الفائدة، وحملَت

twitter @baghdad_library

عودتي تصميمًا على عدم رجوعي إليهم بأيِّ شكلٍ من الأشكال. كان البروفيسور كريمبه رجلًا سمينًا قصير القامة، خشن الصوت غليظ الملامح، ولهذا لم يَستَهوِني أن أُشارِكه اهتماماته. لعلي بطريقةٍ مترابطة -ورُبما فلسفيَّة خالصة- حكيتُ لك عن النتائج التي توصَّلت إليها فيما يتعلَّق بهذه الاهتمامات في صباي، فوقتها لم أكن قانعًا بالنتائج التي يَعِد أساتذة عِلم الطبيعة المعاصرين بالتوصُّل إليها. بخليطٍ من الأفكار لا يُمكنني وصفه سوى بحماسة شبابي، ورغبتي في وجود دليلٍ للعالم في هذه الأمور، عاودتُ اكتشاف المعارف بفكرٍ جديد مع مضي الوقت، واستبدلتُ اكتشافات السعاة الجُدُد بأحلام الخيميائيين القدامى، كما أنني كنتُ أجدُ في نفسي الآن نفورًا من الفلسفة الطبيعيَّة المعاصِرة، فقد كان الأمر تامَّ الاختلاف عندما كان سادة العِلم يبحثون عن القوَّة والخلود، وتلك الأهداف -على عدم قابليَّتها للتحقيق أصلاً- كانت عظيمة، لكن المشهد تغيَّر الآن. كان طموح طالبي العِلم يبدو كأنه يُحَجِّم نفسه إلى حَدِّ إلغاء هذه الأهداف التي كان اهتمامي العلمي مبنيًّا عليها أصلًا، وكان مطلوبًا مني أن أستبدل أحلامًا رائعة بلا حدود بحقائق قليلة القيمة.

تلك كانت أفكاري خلال اليومين أو الثلاثة الأولى في إنجولشتادت، والتي قضيتها بشكلٍ عام في التعرُّف على الأماكن والناس في مقر إقامتي الجديد. مع مستهَل الأسبوع التالي فكَّرتُ في المعلومات التي أعطانيها البروفيسور كريمبه بخصوص المحاضرات، ورغم أنني لم أتحمَّس لأن أذهب وأسمع المغرور القصير يُلقي بأحكامه مما يتخيَّله منبر الوعظ، إلا أنني تذكَّرتُ ما قاله عن البروفيسور ڤالدمان الذي لم أره قَطُّ، والذي لم يكن في المدينة طوال الأيام السابقة.

مدفوعًا بفضولي وبعدم رغبتي في الاستسلام للكسل دخلتُ قاعة

المحاضرات، وتبعني ڤالدمان بعد قليل. كان البروفيسور مُختلفًا تمامًا عن زميله: بدا في الخمسين من عمره، لكنِ ملامحه كانت تحمل طيبة واضحة بالشعيرات الشائبة القليلة التي تُغَطِّي فوديه مع اكتساء مؤخِّرة رأسه باللون الأسود، وقامته القصيرة المنتصبة، وصوته الذي كان أطيب صوتٍ سمعته. بدأ محاضرته بملخَّصٍ سريع لتاريخ الكيمياء والتطوُّرات العديدة التي توصَّل إليها رجالها، ناطقًا أسماء أبرزهم في تبجيل، ثم مرَّ بسرعة على الوضع الحالي لهذا العِلم، شارحًا الكثير من مصطلحاته الأساسيَّة، وبعد أن أجرى بعض التجارب الأوليَّة، ختم المحاضرة بكلمات مدح فيها الكيمياء المعاصِرة، وهي الكلمات التي لن أنساها أبدًا، حيث قال:

- «أساتذة هذا العِلم القدامى وعدوا بتحقيق المستحيل، ولم يتوصَّلوا إلى شيء، أما الأساتذة المعاصِرون فيَعِدون بأقلِّ القليل. إنهم يعرفون أن المعادن لا يُمكن تحويلها، وأن إكسير الحياة مُجرَّد خرافة. لكن هؤلاء الفلاسفة، الذين تبدو أيديهم كأنها خُلقَت لا لشيءٍ إلا التلطُّخ بالوحل، وتبدو أعينهم كأنها غير صالحة إلا للاستغراق في التحديق في عدسات الميكروسكوپات والبوتقات، قد صنعوا المعجزات. إنهم يَسبُرون أغوار الطبيعة، ويُرونا كيف تعمل في أماكنها العميقة. إنهم يرتقون إلى السماء. لقد اكتشفوا كيف يدور الدَّم في الجِسم، وعرفوا طبيعة الهواء الذي نتنفَّسه[1]. وقد اكتسبوا قوىً جديدة تكاد تكون بلا حدود، ويُمكنهم السيطرة على رعود السماء ومُحاكاة الزلازل، بل وحتى السخرية من العالم الخفي باستخدام ظلاله».

---

(1) اكتشف ويليام هارڤي الدورة الدمويَّة في عام 1628، وأجرى روبرت بويل بعده عددًا من التجارب على خواص الهواء، وهاجَم نظريَّات أرسطو وپاراسلسوس.

twitter @baghdad_library

كانت هذه كلمات البروفيسور، أو الأحرى أن أقول إنها كانت كلمات القَدَر التي قيلت كأنها فرمان بدماري. كان يقولها وأنا أشعر كأن روحي تُصارِع عدُوًّا خفيًّا، وواحدًا تلو الآخَر لُمسَت الأوتار التي شكَّلت كينونتي، وتصاعدت النغمات متتالية، وسرعان ما امتلأ ذهني بفكرةٍ واحدة، بمفهومٍ واحد، بهدفٍ واحد؛ وهتفت روح فرانكنشتاين ساعتها:

- «آخَرون غيري اكتشفوا الكثير، وأنا سأبلغُ ما لم يَبلُغه غيري من قبل. سأسلكُ الطريق الذي اتَّضحت ملامحه بالفعل، وأكون رائدًا لآفاقٍ جديدة. سأكتشفُ قوىً لم يعرفها أحد، وأكشفُ للعالم أعمق أسرار الخَلق غموضًا».

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة. كِياني الداخلي كان في حالةٍ من الثورة والاضطراب، وكنتُ أشعر بأن النظام الجديد سينهض ها هنا، لكني لم أملك القُدرة على تكوينه. تدريجيًّا زحف النوم على خلاياي بعد طلوع الفجر، وعندما استيقظتُ كانت أفكار الليلة السابقة كالحُلم، ولم يتبقَّ منها سوى تصميم على عدم العودة إلى دراساتي القديمة، وتكريس نفسي للعِلم الذي كنت مؤمنًا بأنني أملك فيه موهبة طبيعيَّة. في اليوم نفسه ذهبت لزيارة البروفيسور ڤالدمان، ووجدتُ أن تصرُّفاته في اللقاءات الخاصَّة ألطف وأكثر جاذبيَّة منها في اللقاءات العامَّة، فأثناء المحاضَرة كان متسمًا بنوعٍ خاص من الوقار والترفُّع، أما في منزله فقد استحال الوقار إلى دماثةٍ ولُطف. أعطيته تقريرًا عن دراساتي السابقة مثلما فعلتُ مع زميله، واستمع هو إلى روايتي بانتباه، ولاحت على شفتيه ابتسامة حين أتيتُ على ذكر كورنيليوس أجريپا وپاراسلسوس، لكن من دون الازدراء الذي أبداه البروفيسور كريمپه، وقال مُعلِّقًا:

- «فلاسفة اليوم يدينون للحماسة التي لم تَكِلَّ لدى هؤلاء الرجال بمعظم أساسيَّات معارفهم. لقد تركوا لنا -وهذا أسهل- مهمَّة إطلاق أسماءٍ جديدة على الأشياء وترتيب الحقائق على أساس تصنيفاتٍ مترابطة، تلك الحقائق التي كانوا في الواقع من الأسباب الأساسيَّة في إيضاحها. جهود رجال العِلم، مهما كانت موجَّهَة في الاتجاه الخطأ، نادرًا ما تفشل في النهاية في أن تَصُبَّ في صالِح البشريَّة».

أصغيتُ إلى رأيه الذي قاله دون تعالٍ أو تكلُّف، ثم أضفتُ أن محاضَرته قد أزالت تحفُّظي على الكيميائيِّين المعاصرين، وعبَّرتُ عن رأيي بكلماتٍ موزونة وبالتواضع والاحترام الواجبين من شابٍّ تجاه أستاذه، لكن من دون التخلِّي عن الحماسة التي شعرتُ بها نحو جهودي المرتقبَة.

الحقيقة أن قِلَّة خبرتي بالحياة كانت لتُكَلِّلني بالخجل لولا استطاعتي الحفاظ على أسلوبي.

طلبت نصيحته فيما يتعلق بالكُتُب التي يجدر بي الحصول عليها، فقال:

- «يُسعِدني أنني وجدتُ تلميذًا مثلك، ولو كان استغلالك لقُدُراتك يساوي القُدُرات ذاتها، فليس لديَّ شكٌّ في نجاحك. الكيمياء هي هذا الفرع من الفلسفة الطبيعيَّة الذي بلغ فيه العلماء أعظم التطوُّرات، ولا يزال أمامهم المزيد، ولهذا السبب اخترتها مجالًا لدراستي، لكني لم أهجر فروع العلم الأخرى[1] مع ذلك، فالرجل منا لن يُصبِح إلا أتفه الكيميائيِّين طرًّا لو ما صبَّ اهتمامه على هذا العِلم وحده. إذا كانت رغبتك أن تُصبِح رجل عِلمٍ حقيقيًّا وليس مجرَّد مُجرِّبٍ

(1) كان العِلم في تلك الفترة مصطلحًا أكثر شمولًا يشير إلى التعلُّم والمعرفة.

twitter @baghdad_library

عادي، فنصيحتي لك أن تُتابِع جميع فروع الفلسفة الطبيعيَّة، بما فيها الرياضيَّات».

اصطحبني بعدها إلى مختبره، وشرح لي فائدة واستخدام الآلات المختلفة، وأرشدني إلى ما يجب أن أحصل عليه منها، واعدًا إياي بأن يسمح لي باستخدام أدواته الخاصَّة عندما يتقدَّم مستواي بما يكفي لئلا أتلفها، ومنحَني أيضًا قائمة الكُتُب التي طلبتها، وبعدها استأذنته بالانصراف.

وهكذا انتهى يوم لا يُنسَى بالنسبة لي، فقد تحدَّد فيه مصيري ومُستَقبَلي.

الفصل الرابع

منذ ذلك اليوم أصبحَت الفلسفة الطبيعيَّة -وبالتحديد الكيمياء، بأشمل معاني الكلمة- اهتمامي الأوحد تقريبًا. قرأتُ في شغفٍ تلك الأعمال الملأى بالنبوغ والحصافة التي كتبها الباحثون المعاصرون، وحضرتُ المحاضرات، وسعيتُ إلى صُحبة رجال العِلم في الجامعة، بل ووجدتُ لدى البروفيسور كريمپه نفسه الكثير من المنطق السليم والمعلومات الحقيقيَّة، لكن صحب هذا بالطبع غِلظة مؤكَّدة في الأسلوب والملامح، وإن لم يُقَلِّل هذا من أهميَّة الذي قاله. أما البروفيسور ڤالدمان فقد وجدتُ فيه صديقًا حقيقيًّا، فلم أرَ في دماثته تأثُّرًا بآرائه العلميَّة، وتعليماته كان يمنحها لي بكلِّ صراحةٍ وكرم لا تمسهما الحذلقة. بألف وسيلةٍ أرشدني إلى طريق المعرفة، وجَعل إدراك أكثر التساؤلات المُبهَمَة واضحًا بسيطًا عليَّ. تطبيقي العِلمي كان متخبِّطًا متقلِّبًا في البداية، لكنه اكتسب القوَّة مع الممارَسة المستمرَّة، وسريعًا شملتني حماسة شديدة جعلت النجوم كثيرًا ما تتوارى في ضوء النهار وأنا لا أزال مُنهمِكًا في معملي.

من السَّهل بالطبع أن تَستَنتِج أن تقدُّمي كان سريعًا بمعدَّل العمل هذا، وكانت حماستي مصدر دهشةٍ للطلبة وإعجاب للأساتذة.

twitter @baghdad_library

كان البروفيسور كريمپه كثيرًا ما يسألني -بابتسامةٍ خبيثة- عن أخبار كورنيليوس أجريپا، بينما كان البروفيسور ڤالدمان يُعَبِّر عن فرحته بي بمنتهى الحرارة. عامان مرَّا على هذه الوتيرة، وخلالهما لم أزُر چنيڤ مرَّة واحدة، إذ كنتُ منشغِلًا بقلبي وعقلي بالسعي وراء اكتشافاتٍ كنتُ آمل التوصُّل إليها. لا أحد يُمكنه تخيُّل إغراء العِلم سوى هذا الذي استغرق فيه حتى النُّخاع، ففي دراساتٍ أخرى لن يُمكنك تجاوُز ما توصَّل إليه الآخَرون قبلك، ولا يوجد المزيد مما يُمكن معرِفته، لكن في البحث العِلمي هنالك مساحة دائمة للاكتشاف والتساؤل. العقل ذو القابليَّة العاديَّة الذي لا يَكِل في دراسة شيءٍ ما لا بُدَّ وأنه بالغه في النهاية وسيحقِّق فيه تقدُّمًا كبيرًا؛ وأنا، الذي سعيتُ دائمًا وأبدًا إلى بلوغ شيءٍ واحدٍ طوال الوقت، كان تقدُّمي سريعًا ومذهلًا، حتى إنني مع نهاية العامين كنتُ قد توصَّلتُ إلى بعض الاكتشافات الخاصَّة بتطوير بعض الأدوات الكيميائيَّة، الأمر الذي جعلني محلَّ تقديرٍ واحترام في الجامعة. عندما بلغتُ تلك النقطة، وبِتُّ مُلِمًّا تمامًا بنظريَّات الفلسفة الطبيعيَّة وتطبيقاتها باعتمادي على دروس الأساتذة في إنجولشتادت، ولم تَعُد إقامتي هناك تُساعِد على أيِّ تقدُّم جديد، فكَّرتُ في العودة إلى أصدقائي ومدينتي الأم؛ وكان هذا عندما وقع حادث أطال فترة بقائي هناك.

من الظواهر التي جذبَت انتباهي بشكلٍ غير معتاد بنية الجِسم البَشَري، بالإضافة إلى أيِّ حيوانٍ آخَر يتمتَّع بالحياة، ولذلك كثيرًا ما سألتُ نفسي إن كان عنصر الحياة يُمكنه الاستمرار. كان سؤالًا جريئًا، ودائمًا ما كان يُعَدُّ من الغيبيَّات، لكن خطر لي أن هناك أشياءَ كثيرة على وشك أن نُحَقِّقها، ولن يتم ذلك إذا سمحنا للجُبن أو اللامبالاة بكبح جماحنا. أدرتُ هذه التفاصيل في عقلي، وأزمعتُ منذ ذلك الحين

فصاعدًا أن أركِّز أكثر جهودي على فروع الفلسفة الطبيعيَّة المرتبطة أكثر بعِلم وظائف الأعضاء؛ ولو لم أكن مدفوعًا بحماسة تكاد تكون فوق طبيعية، لكان خوضي في هذه الدراسة مُضْجِرًا أيَّما ضجر، وربما لا يُطاق، فكي ندرس أسباب الحياة علينا أولًا أن نبحث طبيعة الموت. أصبحت مُلِمًّا بعِلم التشريح، لكن ذلك لم يكن كافيًا، فلا بُدَّ أن أراقِب أيضًا تحلُّل وزوال الجِسم البَشَري. خلال فترة تعليمي اتَّخذ أبي كلَّ التدابير اللازمة كي لا يتأثَّر عقلي بأيِّ مصدر رُعبٍ خارِق للطبيعة، ولا أذكرُ أنني ارتجفتُ لحكي حكاية خرافيَّة أو من ظهور شبح. لم يكن للظُّلمة تأثير على خيالي، وباحات الكنائس كانت في نظري مجرَّد أوعية توضع فيها الأجساد التي ذهبت منها الحياة، تلك الأجساد التي كانت تتربَّع على عرش الجمال والقوَّة، ثم صارت طعامًا للديدان. والآن أصبح واجبًا عليَّ دراسة أسباب ومراحل هذا الاضمحلال، وصرتُ مُجبَرًا على قضاء الأيام والليالي في السراديب والمقابر، وبهذا أصبح اهتمامي منصبًّا على أشنع شيءٍ يُمكن أن يتخيَّله إنسان. رأيتُ كيف يبلى الجِسم البَشَري ويتحلَّل، ورأيتُ كيف يحتلُّ شحوب الموت مكان تورُّد الحياة، ورأيتُ كيف تجعل الدودة متاهات العين والمخ مستقَرًّا لها. توقَّفتُ لأدرس وأحلِّل جميع التفاصيل والأسباب المبيَّنة في تحوُّل الحياة إلى موت والموت إلى حياة، حتى انبثق شعاع من الضوء من قلب الظلام ليُسَلَّط عليَّ؛ ضوء رائع لامع وإنما بسيط، حتى إنني أصِبت بالدُّوار وأنا أتخيَّل إمكانيَّة ما تراءى لي، مندهشًا من أن من بين كلِّ رجال العِلم الذين كرَّسوا بحوثهم كلها للهدف نفسه كنتُ أنا الوحيد الذي حُفِظَت له مكانة اكتشاف سِرٍّ مذهل كهذا. تذكَّر أنني لستُ أصف رؤيا رجلٍ مجنون، وما سأقوله الآن حقيقي كما شروق الشمس في السماء. لعلَّ معجزة ما كانت السبب، لكن مراحل

twitter @baghdad_library

الاكتشاف كانت واضحة، وبعد أيام وليالٍ من العمل والجهد الشاق نجحتُ أخيرًا في اكتشاف سبب النشوء والحياة. لا، بل أكثر من هذا.. لقد نجحتُ في بَعْث الحركة في الأجسام الميِّتة.

سرعان ما أفسحَت الدهشة التي شعرتُ بها مع الاكتشاف مكانًا للفرحة والنشوة، فوصولي إلى ذُروة أمانيَّ هكذا، بَعد الوقت الطويل الذي قضيته في عملٍ كله مشقَّة، كان أكبر مكافأةٍ يُمكنني تلقِّيها على جهودي. لكن الاكتشاف كان عظيمًا وغامرًا إلى درجة أنه أنساني المراحل الطويلة التي قادتني إليه، ولم أعد أفكِّر إلا في النتيجة. الشيء الذي درسه وتمنَّاه أحكم الحكماء منذ بدء الخليقة أصبح الآن ملك يميني، ولا يعني ذلك أنني توصَّلتُ إليه بمفعول السِّحر، فنوعيَّة المعلومات التي امتلكتها كانت تكفي لتحقيق هدفي بمجرَّد أن أحسنتُ استغلالها في تحقيقه بدلًا من تبديدها في أهدافٍ أخرى تم تحقيقها بالفعل. كنت وقتها كالأعرابي[1] الذي دُفِن بين الموتى ثم وجد طريقًا للحياة، لا تعينه سوى شعلة ضوءٍ واحدةٍ غير مؤثِّرة إلى هذا الحد.

إنني أرى في اللهفة والحيرة والأمل الظاهر في عينيك يا صديقي أنك تتوقَّع مني أن أُطلِعك على السِّر الذي توصَّلتُ إليه، لكن ذلك لن يكون. أصغِ في صبرٍ حتى نهاية حكايتي، وسترى عندها بوضوح سبب تحفُّظي على هذا الجزء، فسوف لن أقودك أبدًا بحماستك وتهوُّرك -اللذين كنتُ مصابًا بهما من قبلك- إلى دمارك ومعاناتك. تعلَّم مني.. إن لم يكن بنصائحي، فبكوني عِبرة. تعلَّم كيف أن تحصيل المعرفة شيء خطير، وكيف أن الشخص الذي يَعُدُّ بلدته الصغيرة العالم كله

---

(1) يشير هنا إلى رحلة السندباد الرابعة، التي حكتها شهرزاد في الليلة الثانية والثمانين من «ألف ليلة وليلة».

أسعد بكثير من هذا الذي يطمح لأن يصبح أعظم مما تسمح الطبيعة.

عندما وجدتُ قوَّة مدهشة كهذه بين يديَّ تردَّدت لوقتٍ طويلٍ مفكِّرًا في الطريقة التي سأستغلُّها بها، فعلى الرغم من أنني أصبحت أملك القُدرة على تحريك جسدٍ ميِّت، كان ما زال أمامي عمل آخَر مشقَّته لا توصَف يتعلَّق بإعداد الجسد الذي سأحرِّكه، بكلِّ ما يحمله هذا من تعقيدات الأنسجة والعضلات والأوردة. شككتُ في البداية في قابليَّتي لصُنع كائنٍ مثلي أو كائنٍ أبسط تكوينًا، لكن خيالي كان مستثارًا بنجاحي الأولَ ليجعلني أشك في قُدرتي على منح الحياة لكائنٍ كامل كالإنسان. المواد والأدوات التي كانت في متناوَلي وقتها لم تَبدُ كافية لمهمَّةٍ صعبةٍ كهذه، لكن الشَّك لم يُراوِدني في نجاحي في النهاية. هيَّأتُ نفسي لعددٍ وافرٍ من الإخفاقات، فقد تفشل محاولاتي باستمرار، وقد تُصبح النتيجة النهائيَّة غير كاملة، لكنني عندما فكَّرتُ في التطوُّرات التي تَحدُث كلَّ يوم في العِلم وتقنياته، شجَّعني الأمل في أن تُصبِح مساعيَّ الحاليَّة أساسًا للنجاحِ المُستقبَلي على الأقل، فلم أتخيَّل أن تفشل خُطَّتي في آخِر الأمر بعد كلِّ خطواتها الصعبة والمعقَّدة. بهذه المشاعر بدأتُ تجميع جسدٍ بشري، ومع الدِّقَّة التي توخَّيتها في تجميع أجزائه، ما جعل العمليَّة تستغرق وقتًا طويلًا، قرَّرت -على عكس نيَّتي الأولى- أن يكون الكائن عملاقًا، بحيث يكون طوله ثمانية أقدام، ويتناسَب عرضه مع هذا الطول؛ وبعد أن أجريتُ حساباتي وقضيتُ عِدَّة أشهُرٍ في تجميع وترتيب الأجزاء اللازمة، بدأتُ عملي أخيرًا.

لا أحد يُمكنه تصوُّر المشاعر التي دفعَتني إلى الأمام كالإعصار في غمرة الحماسة للنجاح. الحياة والموت بديا لي كرباطٍ لا بُدَّ من أن أكسره أولًا، ثم أصُبَّ وابلًا من النور في عالمنا المُظلِم. سوف يُمجِّدني جِنس جديد باعتباري صانعه ومُنشئه، وكائنات رائعة سعيدة

twitter @baghdad_library

جديدة كثيرة ستدين لي بفضل وجودها، ولا أبَ في الدُّنيا يُمكنه أن يحظى بامتنان أبنائه بقدر ما سأستحق أنا امتنان هؤلاء. في خضم هذه الأفكار، خطر لي أنه، بما أنني أستطيع منح الحركة إلى جسدٍ ميت، فإنني قد أقدر مع مرور الوقت على تجديد الحياة حيث جاء الموت ليقود الجسد إلى الزوال، وهو الشيء الذي أعرف الآن أنه مستحيل.

ساندَتني وثبَّتتني هذه الأفكار أثناء عملي الذي لم تقِل حماستي له. شحبت بشرتي من كثرة العمل، ونَحُل جسدي من فرط الجهد، وأحيانًا عندما كان النجاح يوشك على أن يكون أكيدًا كنت أخفق، لكني كنت أتمسَّك بالأمل الذي قد يأتي به الصباح التالي أو الساعة المقبِلة. سِرٌّ واحد توصَّلت إليه وحدي كان الأمل الذي وهبتُ إليه نفسي، وكان القمر يُطِلُّ عليَّ في مُنتَصَف الليل بينما أواصل بلا راحةٍ السعي وراء الطبيعة، في أماكنها الخفيَّة. من يُمكنه تخيُّل رُعب عملي السِّرِّي وأنا أخوض في عتمة القبور، وأنا أعذِّب الحيوانات الحيَّة لأبعث الحركة في الجُثَّة الهامدة؟ إن أطرافي لترتجف الآن، وعيناي لتدمعان عندما أتذكَّر، لكن حافزًا لا يقاوَم جعلني أواصل ما أفعله كالمسعور، وبدا أنني فقدتُ كلَّ إحساس بأيِّ شيءٍ سوى ذلك الهدف. كانت بالتأكيد مجرَّد غشية مؤقَّتة عُدتُ بعدها إلى عاداتي القديمة بمجرَّد أن زالت. كنتُ أجمعُ العظام من المقابر، وأدنِّسُ بأصابعي الآثمة حُرمة الجسد البَشَري. في غُرفةٍ منعزلة -أو زنزانةٍ بالأحرى- عند قِمَّة المنزل المعزولة عن بقيَّته برواقٍ وسلالم، كان المعمل الذي مارستُ فيه تجاربي القذرة، حيث كانت عيناي تكادان تخرجان من محجريهما من فرط انهماكي في تفاصيل عملي. وفَّرت المشرحة والسلخانة الكثير من المواد المطلوبة. ولئن كانت طبيعتي البشريَّة كثيرًا ما تشعر بالامتعاض مما أفعله، إلا أن حماستي المتواصلة جعلتني أتم المهمَّة.

هكذا مرَّت شهور الصيف وأنا مندمِج -قلبًا وعقلًا- في عملي. كان فصلًا جميلًا، وفيه أخرجَت الحقول أكثر المحاصيل وفرة، وأنتجَت الكروم أرقى أنواع النبيذ، لكني لم أستمتع بأيٍّ من سِحر الطبيعة، وكما أهملَت مشاعري المَشاهد المحيطة، أهملتُ أنا أيضًا أصدقائي الذين يبعدون عني بمئات الأميال، والذين لم أرهم منذ وقتٍ طويلٍ للغاية. كنتُ أعرفُ أن صمتي يُقلِقهم، وكنتُ أذكر جيدًا كلمات أبي الذي قال:

- «أعرفُ أنك وأنت مشغول بدراستك ستفكِّر فينا، وأننا سنسمع منك باستمرار. يجب أن تعذرني إذا اعتبرت أيَّ انقطاعٍ في مراسلاتك دليلًا على أنك تُهمِل واجباتك الأخرى أيضًا».

لهذا كنتُ أعرف بالضبط مشاعر أبي في تلك الفترة، لكني لم أستطِع إبعاد أفكاري عن مهمَّتي الكريهة، والتي سيطرَت كلَّ السيطرة على عقلي، وكنتُ أتمنى أن أتخلَّص من كلِّ ما له علاقة بمشاعري الحميمة حتى أحقِّق هدفي الذي ابتلع عالمي كله.

ثم خطر لي أن أبي يَظلِمني إذا كان يعزو انقطاعي عن المراسَلة إلى الإهمال، لكني مقتنعٌ الآن بأنه كان على حقٍّ عندما اعتبر أنني غير معفيٍّ من اللوم بالكامل. الإنسان الذي يسعى إلى الكمال يجب أن يُحافِظ على عقلٍ هادئ صافٍ دائمًا، وألا يسمح للعواطف أو الرغبات العابرة بتشتيت عقله، ولا أحسب تحصيل العِلم استثناءً لهذه القاعدة. إذا كان الهدف الذي تُكَرِّس نفسك له ينزع إلى إضعاف مشاعرك وتدمير تذوُّقك للمُتَع الصغيرة التي لا يُمكن تعويضها، فهو هدف غير إنساني ولا يُناسِب العقل البشري، ولو كانت هذه القاعدة متَّبعة دائمًا، ولم يسمح أحد لأيِّ هدفٍ بالتعارُض مع هدوء حياته المألوفة، لما كانت اليونان لتقع ضحيَّة للاستعمار، ولم يكن قيصر ليَستَعبِد أهل بلده، وكان اكتشاف أمريكا ليتأخَّر، ولم تكن إمبراطوريات المكسيك وبيرو لتنهار.

twitter @baghdad_library

لكني نسيت أنني أحاول إقحام تفسيرات أخلاقيَّة على أكثر أجزاء قِصَّتي إثارة، والنظرات في عينيك تُذَكِّرني بعودتي إلى الحكي.

لم يوبِّخني أبي في خطاباته، وأشار فقط إلى صمتي بالتساؤل عن دراساتي بفضولٍ أكثر من المعتاد. مرَّ الشتاء والربيع والصيف وأنا أعمل، لكني لم أراقِب الأزهار تتفتَّح والأشجار تورق؛ تلك المشاهد التي كانت تثير بهجتي أيَّما إثارة من قبل. ذبلت أوراق هذا العام مع اقتراب عملي من نهايته، وكان كلُّ يوم يَمُرُّ يُريني مدى النجاح الذي بلغته، لكن القلق كان يعترِض سبيل الحَماسة، وبدوتُ كرجلٍ محكوم عليه بالسُّخرة الدائمة في المناجم -أو أيِّ عملٍ منفِّرٍ مشابِه- أكثر مما بدوتُ كفنَّانٍ مشغول بتحفته الفنِّيَّة. كنتُ أعاني كلَّ ليلةٍ من حمَّى بطيئة، وأصبحتُ عصبيًّا إلى درجةٍ مُزعِجة، وكان مجرَّد سقوط ورقة شجر يجعلني أجفل، وصرتُ أتجنَّب بقيَّة البشر كأني مدانٌ في جريمة. أحيانًا كان يُرعِبني الحطام البشري الذي صرته، والشيء الوحيد الذي كان يُقوِّيني هو هدفي. ستنتهي جهودي قريبًا، وسأتجنَّب أيَّ مرضٍ يصيبني عن طريق بعض التمارين الرياضيَّة والمرح، وقد وعدتُ نفسي بهما بمجرَّد أن يكتمل المخلوق.

الفصل الخامس

في ليلةٍ كئيبة من نوفمبر تطلَّعتُ إلى نتيجة عملي، وبلهفةٍ كادت تبلغ حَدَّ الألم جمعتُ أدواتي حولي لأبث الحياة في الشيء الميِّت المستلقي عند قدميَّ. كانت الساعة قد بلغت الواحدة صباحًا، وقطرات المطر تَضرِب زجاج النوافذ في صوتٍ مثير للتوجُّس، وضوء شمعتي يكاد ينطفئ، عندما رأيتُ الكائن على الضوء الخابي يفتح عينيه الصفراوين الفاترتين ويشهق في عُمقٍ وتتحرَّك أطرافه في تشنُّج.

كيف يُمكنني وصف مشاعري وأنا أشهدُ هذه الكارثة؟ بل كيف يُمكنني وصف المسخ الذي سعيتُ إلى تكوينه بجهدٍ وألم بلا حدود؟

أطرافه كانت متناسقة، وكنتُ قد اخترت ملامحه جميلة.. جميلة؟ ربَّاه! عضلاته وشرايينه كانت بارزة تحت بشرته الصفراء، شعره كان أسود ناعمًا صقيلًا، وأسنانه كانت في بياض اللؤلؤ. لكن هذه الزخرفة المنمَّقة تعارَضت إلى حدٍّ مروِّع مع عينيه الدامعتين، اللتين بدا لونهما أبيض كالحًا كلون المحجرين اللذين احتوياهما، ومع وجهه الشاحب وشفتيه الرفيعتين.

أحداث الحياة المختلفة ليست متقلِّبة كمشاعر الإنسان. لقد عملتُ طوال ما يقرب من العامين لهدفٍ واحد هو بعث الحياة في جسدٍ ميِّت،

twitter @baghdad_library

ومن أجل هذا الهدف حرمتُ نفسي من الراحة والصِّحَّة، وتمنَّيتُ بلوغه بحرارةٍ تتجاوَز كلَّ الحدود، لكني، الآن وقد انتهيتُ، وجدتُ جمال الحُلم يتلاشى، وشعرتُ برعبٍ واشمئزازٍ فوق الوصف يملآن قلبي.

لم أحتمِل منظر الكائن الذي صنعته، فهُرِعتُ خارج الغُرفة، وقضيتُ وقتًا طويلًا أذرع غُرفة نومي جيئةً وذهابًا، غير قادرٍ على دفع عقلي إلى النوم، وفي النهاية تغلَّب الإرهاق على النشاط الذي كنتُ أشعر به من قبل، فألقيتُ بنفسي على الفِراش بملابسي مُحاوِلًا البحث عن دقائق قليلة من النسيان، لكن بلا جدوى. غِبتُ في النوم، لكنه كان نومًا مصحوبًا بأشنع الأحلام طرًّا. رأيتُ إليزابث في كامل صِحَّتها تمشي في شوارع إنجولشتادت. هرعتُ إليها لأعانقها في سعادةٍ مندهشة، لكن بمجرَّد أن طبعتُ القُبلة الأولى على شفتيها، وجدتهما مصبوغتين بزُرقة الموت، وبدا لي أن ملامحها تتغيَّر؛ وإذا بي أحمل بين ذراعيَّ جثمان أمي المحاط بالكفن، وأرى ديدان القبر تزحف بين طيَّاته.

أفقتُ من الكابوس في رُعبٍ والعرق البارد يَغمُر جبهتي، أسناني تصطكُّ وكلُّ طرفٍ من أطرافي مُصاب بتشنُّجات. كان هذا عندما، على ضوء القمر الباهت المتسرِّب من بين مصراعي النافذة، رأيتُ المسخ، الوحش البائس الذي صنعته. رأيته رافعًا الستار المسدول على جانب الفِراش، وعيناه -إن جاز أن نُطلِق عليهما ذلك الاسم- مسلَّطتان عليَّ. انفتح فكَّاه، ودمدم بأصواتٍ غير مفهومة، بينما تجعَّدت وجنتاه إثر ابتسامةٍ عريضة. لعله قال شيئًا، لكني لم أسمع. كان يمد يدًا واحدة، ليمسك بي على الأرجح، لكني لم أنتظر، ووثبتُ من مكاني، وهُرِعتُ إلى الطابق السفلي. لُذتُ بفناء المنزل، وظللتُ هناك بقيَّة الليل متحرِّكًا في أرجاء المكان في ثورةٍ ومصغيًا في حذر، يثير كلُّ صوتٍ ذُعري، خشية أن يكون صوت الجُثَّة الشيطانيَّة التي منحتها الحياة وهي تقترب.

رباه! ليس هناك فانٍ يُمكنه احتمال هيئته المخيفة. بل إن المومياء التي تعود إلى الحياة ليست تثير الرُّعب كذلك المسخ. لقد رأيته وهو لم ينتهِ بعد، وكان قبيحًا وقتها لا شكَّ في هذا، لكن عندما أصبحت تلك العضلات والمفاصل قادرة على الحركة، صار هو شيئًا لا يُمكن أن يتصوَّره دانتي[1] نفسه.

أمضيتُ الليل في عذاب، وأحيانًا كان قلبي يخفق بعنفٍ إلى درجة أنني كنتُ أشعر بنبضاته في كلِّ شريان، وفي أحيانٍ أخرى كنتُ أنهار على الأرض من فرط الوَهن. اختلط بهذا الرُّعب شعوري بمرارة خيبة الأمل. الأحلام التي كانت زادي ومتعتي طوال سنين صارت الآن جحيمًا، وانقلاب الموقف رأسًا على عقب كان خاطفًا، والهزيمة كاملة!

أخيرًا جاء النهار كئيبًا مبتلًّا، ولاحت لعينيَّ المُتعَبتين كنيسة إنجولشتادت وبُرجها الأبيض وساعتها التي أشارت إلى السادسة صباحًا. فتح البوَّاب بوَّابات الساحة التي اتَّخذتها ملاذًا تلك الليلة، واندفعتُ إلى الشوارع عابرًا إياها بخطواتٍ واسعة، كأني أخشى ظهور المسخ مع كلِّ انعطافةٍ أتَّخذها. لم أجرؤ على العودة إلى الشَّقَّة التي كنت أسكنها، ولم أشعر إلا برغبةٍ عارمة في الابتعاد، رغم أني كنتُ غارقًا في مياه المطر التي ظلَّت تنهمر مدرارًا من السماء المُدْلَهِمَّة المضطَّربة.

واصلتُ السير لوقتٍ طويل على هذه الوتيرة، مُحاوِلًا بالتدريب البدني أن أخفِّف من الحِمل الذي أثقل عاتقي. جُبتُ الشوارع من دون

---

(1) في الدرجات السُّفلى من الجحيم، يجعل دانتي من الهيئات البشعة للخُطاة صورة لدرجة العذاب التي تنالها أرواحهم، كل حسب حجم خطاياه.

twitter @baghdad_library

أدنى فكرةٍ عن وجهتي أو مكاني أو طبيعة ما أفعل وقلبي يَخفِق في قوَّةٍ من فرط الخوف، وأسرعتُ بخطىً غير منتظمةٍ دون أن أجرؤ على النظر خلفي.

مثلي كمثل مَن يمشي وحيدًا
في طريق الخوف والفزع
أمضي دون أن أدير رأسي
لأن مسخًا يُطارِدني في الشوارع[1]

وصلتُ في النهاية إلى الخان الذي تتوقَّف عنده مُختلَف العربات المسافِرة. لا أدري لِمَ توقَّفتُ هناك، لكني ظللتُ لعِدَّة دقائق مُسَلِّطًا ناظريَّ على مركبةٍ تقترب مني من نهاية الشارع الأخرى. مع اقترابها لاحظتُ أنها مركبة سويسريَّة، ولقد توقَّفَت حيث كنتُ بالضبط، ورأيتُ مع انفتاح بابها هنري كليرڤال الذي، بمجرَّد أن رآني، وثب منها هاتفًا:

– «عزيزي فرانكنشتاين! كم تُسعِدني رؤيتك! يا لها من مصادفة أن تكون هنا في لحظة وصولي!».

لا شيء يُمكنه مضاهاة سعادتي إثر رؤيتي وجه كليرڤال. أعادت رؤيته إلى عقلي أبي وإليزابث، وكلَّ الأشياء العزيزة عليَّ في الوطن. أمسكتُ بيده، وللحظاتٍ نسيتُ كارثتي وخوفي. وفجأة، وللمرَّة الأولى منذ شهورٍ طويلةٍ كثيرة، شعرتُ بفرحةٍ حقيقيَّة.

رحَّبتُ بصديقي بحرارة، وسِرنا معًا صوب كُلِّيَّتي، وتحدَّث كليرڤال لبعض الوقت عن أصدقائنا المشتركين، وعن حظِّه السعيد بمجيئه أخيرًا إلى إنجولشتادت، والذي عبَّر عنه قائلًا:

– «لكَ أن تتخيَل كم كان إقناع أبي عسيرًا بأن المعرفة المطلوبة لا

---

(1) من قصيدة «البحَّار العجوز».

تدور في فلك فَنِّ كتابة الحسابات الرفيع، وأعتقدُ أنني تركته والشكوك تُساوِره حتى اللحظة الأخيرة، فقد كانت إجابته الوحيدة على توسُّلاتي المستمرَّة كما إجابة ناظر المدرسة الهولندي في «كاهن ويكفيلد»[1]: إنني أربحُ عشرة آلاف فلورينة سنويًّا دون أن أجيد اليونانيَّة، وآكلُ بشراهة من دونها أيضًا. لكن محبَّته لي في النهاية تغلَّبت على كراهيته للتعليم، وسمح لي بأن أقوم برحلة استكشاف في أرض المعرفة».

- «رؤيتك تُسعِدني للغاية، لكن حدِّثني عن أبي وأخويَّ وإليزابث».

- «كلهم بخير وسعداء، لكنهم يشعرون بالقلق من نُدرة رسائلك. كنت أنوي أن أحدِّثك عن أخبارهم بالمناسبة، لكن..».

توقَّف وصمت للحظات، ثم استطرد وهو يُحَدِّق في وجهي:

- «عزيزي فرانكنشتاين، لم ألحظ من قبل كم تبدو مريضًا. يا لشحوبك ونحولك! تبدو كأنك ساهر منذ ليالٍ كثيرة».

- «هذا صحيح. كنتُ منشغلًا بأمرٍ واحدٍ طوال الفترة الماضية، حتى إنني لم أسمح لنفسي براحةٍ كافيةٍ كما ترى، لكني آمل، آمل حقًّا، أن مشاغلي كلها قد انتهت الآن، وأنني صِرتُ حُرًّا أخيرًا».

ارتجفتُ بقوَّة، ولم أستطِع التفكير في -أو التلميح إلى- أحداث الليلة الماضية. سرتُ بخطواتٍ واسعة، ووصلنا إلى الكُلِّيَّة. ثم إن خاطرًا قد راودني، وعلى إِثره سرَت رعدة في جسدي.

هل ما زال الكائن الذي تركته في شقَّتي هناك؟

هل ما زال حيًّا يتحرَّك؟

فكرة رؤيتي للوحش كانت مخيفة، لكن الأكثر إثارةً للرُّعب أن يراه هنري. هكذا قلتُ له أن انتظر بضع دقائقٍ في الأسفل، وانطلقتُ صاعدًا

---

(1) رواية من القرن الثامن عشر بقلم أوليفر جولدسميث.

twitter @baghdad_library

إلى الشَّقَّة. كانت يدي تَقبِض على رتاج الباب بالفعل عندما توقَّفتُ وعُدتُ أرتجف من جديد. دفعتُ الباب بعُنفٍ مثلما يفعل الأطفال عندما يتوقَّعون أن شبحًا يَنتَظِرهم على الجانب الآخَر، لكن شيئًا لم يظهر. خطوتُ إلى الداخل بتوجُّس، لكن الشَّقَّة كانت فارغة، وكذلك خلت غُرفة النوم من ضيفها البشع. لم أصدقِّ أن حظي حسنٌ إلى هذا الحد، لكن عندما تأكَّدتُ من أن عَدُوِّي قد فرَّ بالفعل صفَّقت بيديَّ جذلًا، وهُرِعت إلى كليرڤال في الأسفل.

صعدنا إلى غُرفتي، وبعد قليل جاء الخادم حاملًا الفطور. لكني لم أستطِع احتواء مشاعري، ولم يكن السرور هو الذي تملَّكني، بل كنت أشعر بحساسية شديدة تَخِزُ لحمي، وبقلبي ينبض بعنف. لم أستطِع البقاء ساكنًا في مكانٍ واحد لدقيقةٍ كاملة، بل كنتُ أتواثب فوق المقاعد مصفِّقًا وضاحكًا بأعلى صوتي. في البداية عزا كليرڤال نشاطي غير المعتاد إلى السرور بمجيئه، لكنه مع مراقَبته لي بإمعانٍ أكثر رأى في عينيَّ هياجًا لم يستطِع فهمه، وأثارت ضحكاتي الصاخبة العابثة فيه الخوف والدهشة، فهتف بي:

- «ڤيكتور، ماذا هناك بالله عليك؟ لا تضحك هكذا! كم تبدو مريضًا! ما السبب؟».

- «لا تسألني!»، صرخت به وأنا أغطي عينيَّ بيديَّ وأنا أتخيَّل أن الشبح المخيف قد انسلَّ إلى الغُرفة.

سوف يعرف! سوف يعرف! أنقِذني يا رب! أنقِذني!

تخيَّلتُ أن الوحش يمسك بي، فقاومته بعنف، قبل أن أتهاوى مصابًا بنوبة.

مسكينٌ كليرڤال! لا يُمكنني أن أتخيَّل مشاعره مع اللقاء الذي انتظره

طويلًا، فإذا به يتحوَّل إلى حادث مأساوي. لكني لم أشهد حزنه، فقد غِبتُ عن الوعي، ولم أعُد إلى الحياة إلا بعد مُضي وقتٍ طويل للغاية.

كانت هذه بداية حمَّى عصبيَّة اعتصرَتني لشهورٍ طويلة، وطوال هذا الوقت كان هنري مُمرِّضي الوحيد. فيما بعد عرفتُ أنه وضع في اعتباره سِنَّ أبي المتقدِّمة وعدم مناسَبة صِحَّته لرحلةٍ طويلةٍ كهذه، والتوتُّر الدائم الذي سوف يصيب إليزابث من جرَّاء مرضي، فأخفى عنهما تفاصيل حالتي. كان يعرف أنه لا يوجد من هو خير منه ليرعاني، ولأنه كان واثقًا بأنني سأتعافى عاجلًا أم آجلًا، فقد قرَّر ألا يصيب أهلي بالألم، وأن يكتفي برعايتي.

لكنني كنتُ في غاية المرض في الحقيقة، ولا شيء إلا عناية صديقي الدائمة أعاد إليَّ الحياة. كان مشهَد الوحش الذي منحته الحياة لا يُفارِقني لحظة، وكنتُ أهذي بكلماتٍ عنه باستمرار. لا شكَّ أن كلماتي قد أدهشت هنري، وفي البداية ظنها ضلالات خيالي المضطَّرب، لكن إلحاحي في العودة إلى الموضوع نفسه أقنعه بأن عِلَّتي تعود بالتأكيد إلى حادثةٍ رهيبة وغير تقليديَّة.

بدأتُ أتحسَّن بمعدَّلٍ بطيء وأثارت انتكاساتٍ متواصِلة ذُعر صديقي وحزنه. أذكرُ أن المرَّة الأولى التي لاحظتُ فيها شيئًا ظاهرًا وشعرتُ بالسرور كانت عندما رأيتُ أن وريقات الشجر الساقطة قد اختفت، وأن البراعم الصغيرة بدأت تَنبُت من الأشجار التي تُظَلِّل نافذتي. كان ربيعًا رائعًا، وأسهم في نقاهتي. شعرتُ أيضًا بالبهجة والعاطفة تَختَلِج في صدري وتوارت كآبتي، بحيث عُدتُ بعد فترةٍ قصيرةٍ إلى مرحي الذي كان معهودًا قبل أن يُهاجِمني شغفي المميت.

هتفتُ في امتنان:

– «آه يا كليرڤال العزيز! كم أنت طيِّب معي! لقد قضيت الشتاء

twitter @baghdad_library

كله في رعايتي بدلًا من الدراسة كما وعدت نفسك، فكيف أَرُدُّ لك الجميل؟ إنني نادمٌ أشد الندم على العناء الذي كبَّدتك إياه، لكني أعرف أنك ستُسامِحني».

- «سترد لي الجميل كاملًا إذا لم تُقلِق نفسك بهذا. فقط تعافَ في أقرب وقتٍ ممكن. والآن بما أن روحك المعنويَّة مرتفعة، فيُمكنني التحدُّث إليك في أمرٍ واحد إذا سمحت».

ارتجفتُ.. أمر واحد! ماذا عساه يكون؟ هل يلمَّح إلى ما لم أستطِع حتى التفكير فيه؟

قال كليرڤال الذي لاحظ امتقاعي:

- «هدِّئ نفسك، فلن أتحدَّث عن شيءٍ يُثيرك، لكن أباك وابنة عمك سيَسعدان بتلقِّي خطابٍ منك بخطِّ يدك. إنهما لا يدريان كم كنت مريضًا، وصمتك يُثير فيهما القلق».

- «أهذا كلُّ شيءٍ يا عزيزي هنري؟ كيف ظننت أن خاطري الأول لن يُحَلِّق إلى الأعزاء الذين يُحِبُّونني وأُحِبُّهم؟».

- «طالما هذا شعورك يا صديقي، فلعلك ستسعد بقراءة خطابٍ قابعٍ هنا منذ عِدَّة أيام. أعتقدُ أنه من ابنة عمك».

الفصل السادس

ناوَلني كليرڤال الخطاب، وكان من إليزابث بالفعل:

«ابن عمي الأعز،

أعرفُ أنك كنت مريضًا، مريضًا للغاية، وحتى رسائل هنري العزيز المستمرَّة لم تفلح في طمأنتي. وأنك ممنوع من الكتابة، من الإمساك بقلم، لكن كلمة واحدة منك يا ڤيكتور ضروريَّة لتهدئة أعصابنا المضطربة. لوقتٍ طويل اعتقدتُ أن ساعي البريد سيأتي بتلك الكلمة، واعتقادي هذا منع عمي من خوض الرحلة إلى إنجولشتادت، ومنعته أنا من أن يَخرُج في هذه الرحلة بكلِّ ما تحمله من مَشَقَّة وربما خطر، لكني كثيرًا ما أسفتُ على عدم مقدرتي على خوضها بنفسي! كنتُ قد صوَّرتُ لنفسي أن مهمَّة العناية بكَ في فراش المرض قد وقعت على عاتق ممرِّضةٍ عجوزٍ أجيرةٍ لا يُمكنها تخمين مطالبك أو تلبيتها بقَدر اهتمام وتعاطُف ابنة عمك المسكينة، لكن ذلك انتهى الآن، فكليرڤال يكتب لنا قائلًا إنك تتحسَّن، وأتمنَّى في لهفةٍ أن تؤكِّد هذه المعلومة قريبًا بخطِّ يدك.

عُد إلى صِحَّتك وعُد إلينا. ستجد بيتًا سعيدًا مثيرًا للبهجة، وأصدقاءً يُحِبُّونك من كلِّ قلوبهم. صِحَّة والدك قويَّة، ولا يطلب إلا أن يراك

twitter @baghdad_library

ليطمَئِن إلى أنك بخير، وعندها لن يستطيع أيُّ هَمٍّ أن يرتسم على ملامحه الهادئة. كم ستسعد بمعرفتك بالتقدُّم الذي يُحرِزه إرنست! إنه الآن في السادسة عشرة من عمره، مُفعَم بالحيوية والنشاط، ويتوق إلى أن يصبح سويسريًّا أصيلًا ويلتحق بالخدمة العسكريَّة، لكننا لا نستطيع الابتعاد عنه حتى يعود شقيقه الأكبر على الأقل. عمي غير مقتنع بفكرة أن يمتهن مهنة عسكريَّة في بلدٍ أجنبي، لكن إرنست لم يتمتَّع قَطُّ بحُبِّك للعلم، وينظر إلى دراسته على أنها واجب ثقيل، ويقضي وقته في الهواء الطَّلق، يتسلَّق التلال ويخوِّض في البحيرة. أخشى أن يتكاسل، والحل أن نرضخ له ونسمح له بدخول المجال الذي اختاره.

باستثناء نمو أطفالنا الأعزاء، لم تَحدُث تغيُّرات كثيرة منذ تركتنا. البحيرة الزرقاء والجبال المغطَّاة بالثلوج لا تتغيَّر أبدًا، وأظُنُّ أن بيتنا الهادئ وقلوبنا القانعة تتبع هذا القانون الثابت. اهتماماتي البسيطة تَستَغرِق وقتي وتُسلِّيني، وجهودي تُكافَأ برؤيتي للا شيءٍ سوى الوجوه الباسمة حولي. منذ تركتنا لم يتغيَّر سوى شيء واحد في منزلنا. هل تَذكُر المناسبة التي دخلت فيها چستين موريتز عائلتنا؟ غالبًا لا تَذكُر، لذا سأقُصُّ عليك قِصَّتها في عباراتٍ مختصرة: كانت والدتها، السيِّدة موريتز، امرأة لديها أربعة أطفال، وكانت چستين الثالثة بينهم. كانت الفتاة هي المفضَّلة دائمًا لدى أبيها، لكن الغريب جدًّا أن أمها لم تكن تطيقها، وبعد وفاة السيِّد موريتز كانت تُعامِلها أسوأ معاملةٍ ممكنة. لاحظَت عمتي هذا، وعندما بلغَت چستين الثانية عشرة من عمرها أقنعَت عمتي أمها بأن تسمح للفتاة بالمجيء للمعيشة في بيتنا. لقد عملت مؤسَّسات بلادنا الجمهوريَّة على إنتاج عاداتٍ وسلوكيَّاتٍ بسيطة تتفوَّق كثيرًا على الدُّول ذات النُّظُم الملكيَّة التي تحيط بنا، ولهذا لا يوجد تمييز كبير بين طبقات المواطنين المختلفة، والطبقات الأدنى

-لكونها ليست فقيرة أو مكروهة- تتمتَّع بأخلاقٍ حميدة. كلمة «خادِم» في چنيڤ لا تعني الشيء نفسه في فرنسا أو إنجلترا. هكذا استقبلنا چستين بيننا، وتعلَّمت هي واجبات الخَدَم، وهو الشيء الذي لا يَشترِط في بلدنا السعيد أن يكون الخادم جاهلًا أو أن يُضحِّي بكرامته كإنسان.

لعلك تَذكُر أن چستين كانت دائمًا مفضَّلة لديك، وأذكرُ أنك ذات مرَّةٍ قلت إنك لو كنت تعاني من هَمٍّ ما، فنظرة واحدة منها تُبَدِّده، للسَّبب نفسه الذي يذكُره أريوستو عن جمال أنچيليكا[1]، فالفتاة بدت دائمًا نقيَّة القلب. كانت عمتي مرتبطة بها كثيرًا، ولهذا قرَّرت أن تمنحها تعليمًا أكبر من الذي انتوته في البداية، وهذه المساعدة جاءت بنتيجةٍ ممتازة، فچستين كانت أكثر مخلوقة مُقِرَّة بالجميل في العالم كله، ولا أعني أنها عبَّرت عن هذا بالكلمات، فلم أسمعها تبدي امتنانها عبر شفتيها قَطُّ، لكن عينيها كانتا تُظهِران دومًا حُبًّا لعمتي يكاد يبلغ حد الوله. ورغم أنها تمتَّعت بصفاتٍ مرحة ومتهوِّرة أحيانًا، إلا أنها كانت تهتم كلَّ الاهتمام بكلِّ إشارةٍ من عمتي. كانت تنظر إليها على أنها نموذج لكل السُّمُو في العالم، وحاولَت طوال الوقت تقليد حركاتها وسكناتها، حتى إنها تُذَكِّرني كثيرًا بها الآن.

مات أخواها وأختها واحدًا تلو الآخَر، وصارت أمها -باستثناء ابنتها التي لا تُحِبُّها- وحيدة بلا أبناء. تعذَّبت المرأة بضميرها حاسبةً أن موت أبنائها المفضَّلين جاء كعقابٍ من السماء على التفريق في معاملتها بينهم وبين چستين. كانت امرأة كاثوليكيَّة، وأعتقد أن قِسَّ الاعتراف قد عزَّز هذه الفكرة في عقلها. هكذا، بعد شهورٍ قليلة من رحيلك إلى إنجولشتادت، دُعيت چستين إلى بيتها لرعاية أمها النادمة.

---

(1) بطلة ملحمة «أورلاندو فوريوشو» الرومانسيَّة للشاعر الإيطالي أريوستو.

twitter @baghdad_library

يا للفتاة المسكينة! كم بكت وهي تُغادِر منزلنا. لقد تبدَّلت كثيرًا منذ وفاة عمتي، ومنحها الحزن لُطفًا آسرًا بعد أن كانت شهيرة بمرحها. لكن عودتها إلى منزل أمها لم تُساعِد على إعادتها إلى مرحها السابق، فالمرأة المسكينة كانت متردِّدة في ندمها. أحيانًا كانت تتوسَّل لچستين أن تُسامِحها على التفرقة في معاملتها لها، لكنها في أغلب الوقت كانت تتَّهمها بالتسبُّب في موت أخويها وأختها. هذا السلوك المتذَبذِب جعل صِحَّة السيِّدة موريتز تتدهور سريعًا، الأمر الذي خفَّف من حِدَّة طباعها في البداية، لكنها رحلت عن دُنيانا وترقد الآن في سلام على كلِّ حال. لقد ماتت مع بداية الطقس البارد في الشتاء الماضي وعادت چستين إلينا، وأؤكِّد لك أنني أحبها كثيرًا. إنها ذكيَّة ورقيقة جدًّا وبارعة الحُسن، وكما ذكرتُ لك، فتصرُّفاتها وملامحها تُذَكِّرني بعمتي.

يجب أن أذكرُ لك أيضًا بعض الكلمات القليلة عن عزيزنا ويليام الصغير. ليتك تراه! إنه طويل للغاية مقارنةً بسِنِّه الصغيرة، وليتك ترى عينيه الزرقاوين الضاحكتين دائمًا، وأهدابه السوداء وشعره المجعَّد. عندما يبتسم تظهر غمَّازتان صغيرتان في كلِّ وجنةٍ من وجنتيه اللتين تنضحان بالصِّحَّة. لقد وجد لنفسه زوجة أو اثنتين بالفعل، لكن لويزا بايرون الجميلة ذات الخمسة أعوام هي المفضَّلة لديه.

والآن يا عزيزي ڤيكتور، أعتقد أنك تريد أن تعرف القليل عن أنباء أهل چنيڤ الطيِّبين. الآنسة مانسفيلد الحسناء تلقَّت بالفعل زيارات التهنئة على قُرب زواجها من إنجليزي شاب هو المحترم چون ملبورن، وأختها القبيحة مانون تزوَّجت من السيِّد دوڤيلارد المصرفي الثري في الخريف الماضي. أما زميلك المفضَّل في المدرسة لويس مانوار فقد عانى الكثير من الحظ العاثر منذ رحيل كليرڤال من چنيڤ، لكنه استعاد روحه المعنويَّة المرتفعة بالفعل، ويُقال إنه على وشك أن يتزوَّج من

امرأةٍ فرنسيَّةٍ جميلة هي السيِّدة تاڤرنييه. إنها أرملة تكبر مانوار في السِّنِ كثيرًا، لكن الجميع يُحِبُّونها ويحترمونها.

إنني أشعر بالتحسُّن بعد كتابتي لهذه الرسالة يا ابن العم الحبيب، لكن ها هو قلقي ولهفتي عليك يعودان إليَّ وأنا أختمها. اكتب لنا يا عزيزي ڤيكتور، فسطر واحد، بل كلمة واحدة منك، ستجعل البَرَكة تحل علينا. عشرة آلاف شُكرٍ لهنري على طيبته ورِقَّته ورسائله الكثيرة. إننا ممتنُّون له حقًّا. إلى اللِّقاء يا ابن عمي الحبيب. اعتنِ بنفسك، وأناشِدك مرَّة أخرى أن تكتب لنا!

إليزابث لاڤنزا، چنيڤ،

الثامن عشر من مارس، القرن الثامن عشر».

– «إليزابث الغالية!»، هتفتُ بها بعد أن قرأتُ الخطاب. «سأكتب إليهم في الحال وأريحهم من القلق».

وكتبتُ لهم، لكن مجهود الكتابة أرهقَني بشدة، إلا أن فترة نقاهتي كانت قد بدأت، وكانت حالتي الصِّحِّيَّة تتقدَّم بانتظام، وخلال أسبوعين تمكَّنتُ من مغادَرة حجرتي.

من أولى المهام التي قُمتُ بها بعد أن تعافيتُ أنني قدَّمت كليرڤال لأساتذتي المختلفين في الجامعة، وخلال هذا تحمَّلتُ مشقَّة بالغة لا تُناسِب حالتي النفسيَّة على الإطلاق. منذ الليلة المشؤومة التي انتهى فيها عملي وبدأ فيها عذابي وجدتُ في نفسي كراهية عنيفة لكلِّ ما يتعلَّق بالفلسفة الطبيعيَّة، حتى اسمها، وعندما كنتُ أعود إلى حالتي الطبيعيَّة كان مشهد أيِّ أداةٍ كيميائيَّة يعيد إليَّ ألمي وعصبيَّتي. رأى هنري هذا، وأبعد جميع أدواتي عن بصري، بل وقام أيضًا بتغيير شقَّتي، لأنه لاحَظ نفوري من الغُرفة التي كانت معملي من قبل. لكن عناية كليرڤال لم

twitter @baghdad_library

تكن ذات نفع عندما ذهبتُ لزيارة الأساتذة. عذَّبتني كلمات البروفيسور ڤالدمان عندما أخذ يُثني على التقدُّم السريع الذي أحرزته في العلوم، لكنه سرعان ما أدرك أن الموضوع يُزعِجني، من دون أن يخمِّن السبب الحقيقي بالطبع، فعزى مشاعري إلى التواضُع، وانتقل إلى الحديث عن العِلم نفسه بدلًا من تقدُّمي فيه، ناشِدًا أن يجذبني إلى الحديث عنه كما أرى. وماذا كان يُمكنني أن أفعل؟ كان يَقصِد أن يُسَلِّيني، لكنه عذَّبني. شعرتُ حينها كأنه يضع أمام ناظريَّ واحدةً تلو أخرى من الوسائل التي سوف تُستَخدَم فيما بعد في موتي القاسي البطيء. كلماته كانت تخترِقني كالرماح، لكني لم أستطِع البوْح بالألم الذي شعرته، لكن كليرڤال، الذي كانت عيناه دائمًا ترصدان مشاعر الآخَرين، غيَّر الموضوع متحجِّجًا بجهله التام به، واتَّخذ الحديث عندئذٍ مجرىً أكثر عموميَّة. شكرتُ صديقي في قلبي، لكني لم أنطق. رأيتُ بوضوح أنه كان مندهشًا، لكنه لم يحاول استخراج السِّر مني؛ ورغم أنني أحببته بمزيجٍ من الوُدِّ والاحترام بلا حدود، فلم أستطع قَطُّ إقناع نفسي بأن أُفصِح له عن الشيء المسيطر على تفكيري، فقد كنتُ أخشى من أن إعلام شخص آخَر به سوف يزيد الأمور تعقيدًا.

البروفيسور كريمپه لم يكن مُتفهِّمًا من ناحيته، وأصابَتني حالة الحساسيَّة المفرطة التي انتابتني في هذا الوقت، بالإضافة إلى عبارات المديح الخشنة الفظَّة التي ألقاها على مسامعي، بألمٍ أكثر مما فعلت كلمات البروفيسور ڤالدمان الرقيقة الهادئة.

صاح كريمپه:

– «يا له من فتى! أؤكِّد لك يا سيِّد كليرڤال أنه سبقنا جميعًا. يُمكنك أن تحدِّق فيَّ كما تشاء، لكن الحق أقول، نعم. الشاب الذي كان منذ سنواتٍ قليلة يؤمن بأجريپا كما يؤمن بالإنجيل وضع نفسه الآن على

رأس الجامعة، ولو لم نُزِحْه عن الطريق قريبًا فلن يجد أحدنا وظيفة، نعم، نعم!».

وأضاف وهو يتطلَّع إلى الضِّيق البادي على وجهي:

- «السيِّد فرانكنشتاين متواضع، وهي صفة حميدة في الشباب. يجب أن يكون الشباب غير مُطلَقي الثِّقَة بأنفسهم كما تعلم يا سيِّد كليرڤال. أنا نفسي كنت هكذا وأنا شاب، لكنها فترة سرعان ما تمر».

ثم بدأ البروفيسور كريمپه وصلة مديحٍ لنفسه، ما حوَّل مسار الحديث بعيدًا عن الأمر الذي يُضايِقني والحمد لله.

لم يستسِغ كليرڤال قَطُّ تعلُّقي بعلوم الطبيعة، وكانت اهتماماته الأدبيَّة مُختلِفة تمامًا عما يشغلني. لقد جاء إلى الجامعة بهدف أن يصبح أستاذًا لا يُشَقُّ له غبار في اللغات الشرقيَّة، وبهذا يفتح مجالًا لتنفيذ خُطَّة الحياة التي أعدَّها لنفسه. وعندما قرَّر أن يُكَرِّس نفسه لمهنة تعود عليه بالشُّهرة، تطلَّع إلى الشرق كمكانٍ ملائم لمشروعه. كانت اللغات الفارسيَّة والعربيَّة والسنسكريتيَّة تشغل اهتمامه، وكان من السَّهل تحفيزي على الاهتمام بالدراسات ذاتها. كنت عدُوًّا دائمًا للكسلِ والتراخي، وبما أنني كنتُ أبحث عن وسيلة تنأى بي عن أفكاري المتعلِّقة بدراستي السابقة، فقد شعرتُ براحةٍ جَمَّة في أن أُزامِل صديقي في دراسته، وفي أعمال المستشرقين لم أجد المعرفة فحسب، بل وجدتُ مواساةً عظيمة. لم أتعَّمق بالطبع في الدراسة النقديَّة للهجات المختلفة لهذه اللغات، لأني لم أكن أبحث إلا عن تسليةٍ مؤقتة، فكنتُ أقرأ لمجرَّد أن أفهم معاني الكلمات، وكان هذا يكفيني. ساعدَت الأعمال التي قرأتها على رفع روحي المعنويَّة إلى درجةٍ لم أتوقَّعها من القراءة لمؤلِّفي البلاد الأخرى. عندما تقرأ أعمالهم تبدو الحياة كأنها تتلخَّص في الشمس الدافئة وحدائق الأزهار، وفي ابتسامات وعبوس

twitter @baghdad_library

خصم شريف، وفي الانفعال الذي يستغرق فيه قلبك؛ وكم يختلف هذا عن أشعار اليونان وروما البطوليَّة!

مَرَّ الصيف على هذا المنوال، وتقرَّرت عودتي إلى چنيڤ مع نهاية الخريف، لكن عودتي هذه تأجلت لعِدَّة أسباب، وجاء الشتاء بثلوجه، ما جعل الطُّرُق عسيرة الاجتياز، وهكذا تأجَّلت عودتي مرَّة أخرى إلى الربيع التالي. كدَّرني هذا التأجيل كثيرًا، لأني كنت توَّاقًا إلى رؤية بلدتي الأم وأصدقائي الأحبَّاء، وكنتُ أؤجِّل العودة من قبل لا لشيءٍ إلا عدم رغبتي في ترك كليرڤال في مكانٍ غريب قبل أن يتأقلم معه ويعتاد على سُكانه. لكننا قضينا الشتاء في مرحٍ على كلِّ حال، وعلى الرغم من أن الربيع جاء متأخِّرًا على غير العادة، إلا أن الجمال الذي جاء به عوَّضنا عن التأخير. كان شهر مايو قد بدأ بالفعل عندما توقَّعتُ وصول الخطاب الذي يُحَدَّد ميعاد رحيلي في أيِّ يوم، وكان هذا عندما اقترح هنري أن نقوم بجولةٍ على الأقدام في ضواحي إنجولشتادت كي أودِّع البلد الذي سكنته طويلًا بنفسي. رحَّبتُ باقتراحه، إذ كنتُ دائمًا مغرمًا بالتريُّض، وكان كليرڤال رفيقي المفضَّل في التجوال عندما كنَّا في الوطن.

أسبوعان مضيا في التجوُّل، واستردتُ صِحَّتي وروحي المعنويَّة بالكامل، بل واكتسبتُ قوَّة إضافيَّة من الهواء النقي الذي كنتُ أستنشقه والأشياء التي شاهدناها في رحلتنا وثرثرتي الطويلة مع صديقي. لقد عزلَتني الدراسة من قبل عن إخوتي في البشريَّة، وجعلَتني كائنًا غير اجتماعي، لكن كليرڤال نجح في استدعاء المشاعر الحلوة من قلبي، وعلَّمني من جديد كيف أحب وجوه الطبيعة ووجوه الأطفال الضاحكة. يا لك من صديق رائع! كم أحببتني وسعيت إلى رفع معنوياتي إلى مستواك! مهمَّة أنانيَّة قيَّدَتني وضيَّقَت عليَّ الخناق، حتى جئت أنت

بوُدِّك ودماثتك لتَرُدَّني إلى صوابي، وبسببك عُدتُ المخلوق السعيد الذي كان يُحِبُّ الجميع ويُحِبُّه الجميع منذ سنواتٍ قليلة، لا أحمل همًّا أو أسىً. عندما أكون سعيدًا تستطيع الطبيعة أن تَبِثَّ فيَّ أكثر المشاعر بهجة، وتملأني السماء الصافية والحقول الخضراء القشيبة بالنشوة. كان الفصل الحالي رائعًا بالفعل، وأزهار الربيع تترعرَع بين الأشجار، بينما بدأت براعم زهور الصيف تخرج بالفعل، وإطلاقًا لم تُزعِجني أفكار العام الماضي التي طالما حاولتُ نفضها عن عقلي الذي تشبَّثَت به من قبل في إصرار.

سعد هنري بمرحي، وأشرك نفسه بإخلاصٍ في مشاعري، بل وأجهد نفسه كي يُسَلِّيني وهو يُعَبِّر عن المشاعر التي ملأت روحه. كان يُدهِشني بخياله الخصب الذي ملأ كلامه، وكثيرًا ما كان يُقَلِّد الأدباء الفُرس والعَرَب ويَختَرِع حكاياتٍ خياليَّة مليئة بالمشاعر، وفي أوقاتٍ أخرى كان يترنَّم بقصائدي المفضَّلة، أو يجتذبني إلى نقاشاتٍ يُحاوِرني فيها ببراعة.

عدنا إلى الكُلِّيَّة ذات ظهيرة يوم أحد، ورأينا الفلَّاحين يَرقُصون، وكلُّ من مررنا به كان سعيدًا مرحًا، فانغمستُ معهم في مرحٍ صاخب، وأطلقتُ لمشاعري العنان.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

وجدتُ إِثر عودتي إلى السَّكَن الخطاب التالي من أبي:

«ابني العزيز ڤيكتور،

لا بُدَّ أنك انتظرت بصبرٍ نافد وصول خطاب يُحَدِّد موعد عودتك إلينا، وكنتُ أنتوي في البدايَة أن أكتب سطورًا قليلة أذكرُ فيها الموعد الذي أنتظر وصولك فيه، لكن تلك رِقَّة قاسية لم أقدر عليها، فكيف كانت صدمتك لتُصبِح يا بني وأنت تتوقَّع أن تأتي لتجد منزلًا مليئًا بالحبور، وإذا بك تجده على العكس مكانًا للأسى والدموع؟ وكيف يا ڤيكتور يُمكنني أن أحكي لك مصيبتنا؟ لا يُعقَل أن الغياب جعلك لا تبالي بأفراحنا وأتراحنا، فكيف لي أن أبتليَ ابني الغائب بألم لا يوصَف؟ أريدُ أن أهيِّئك للخبر الرهيب، لكني أعرفُ أن ذلك مستحيل، وأعرفُ أن عينك تجري الآن على السطور بحثًا عن الكلمات التي تحمل النبأ المروِّع.

أخوك ويليام مات! ذلك الطِّفل الرقيق الذي كانت ابتسامته تُدفِّئ قلبي، ذلك الطِّفل الوديع المرح! لقد قُتِل يا ڤيكتور!

لن أحاول مواساتك، بل سأقُصُّ عليك ما حدث فحسب.

يوم الخميس الماضي -السابع من مايو- خرجتُ مع ابنة أخي

وأخويك في نزهةٍ في منتزه پلينپيليه. كانت أمسية دافئة صافية، وطالت نزهتنا أكثر من المعتاد. كان الغسق قد حلَّ بالفعل عندما قرَّرنا العودة، لكننا لم نجد ويليام وإرنست اللذين كانا قد انطلقا يلعبان، فجلسنا على أحد المقاعد ننتظر عودتهما. في النهاية عاد إرنست وحيدًا، وتساءل إن كنا رأينا شقيقه. قال إنه كان يلعب معه، وإن ويليام ركض بعيدًا ليختبئ منه، فبحث عنه كثيرًا دون أن يجده وانتظره طويلًا لكنه لم يَعُد. أصابنا هذا بالقلق، وظللنا نبحث عنه حتى حلول الليل، ثم قالت إليزابث إنه من المحتمَل أنه عاد إلى المنزل، لكنه لم يكن هناك كذلك. عُدنا إلى المنتزه من جديد ومعنا المشاعل، فلم أكن أستطيع الراحة وأنا أعرف أن ولدي الصغير مفقود ومُعرَّض لجميع أخطار الليل، وإليزابث أيضًا كانت تعاني أيَّما معاناة. في الخامسة صباحًا عثرتُ على صغيري الحبيب، الذي كان مِلء السمع والبصر منذ ساعاتٍ قليلة، ممدَّدًا على العشب شاحب البشرة هامد الحركة، وآثار أصابع القاتل بادية على عُنُقه.

نقلناه إلى المنزل، وباحت أمارات الألم على وجهي بالسِّر لإليزابث التي صمَّمت على رؤية الجُثَّة. حاولتُ منعها في البداية، لكنها أصرَّت، وعندما دخلت الغُرفة التي سجَّيناه فيها ورأت الآثار على عُنُقه، شبَّكت يديها وصرخت:

– «يا رب العالمين! لقد قتلته!».

خَرَّت إليزابث فاقدة الوعي، وبصعوبةٍ بالغة استطعنا إنعاشها من جديد، وعندما أفاقت انخرطت في البكاء والعويل. أخبرَتني أنه في الليلة نفسها ألحَّ عليها ويليام حتى تسمح له بارتداء قلادةٍ ثمينةٍ تحوي صورة لأمك كانت تملكها. كانت القلادة قد اختفت، ولا شكَّ أنها كانت الدافع الذي أغرى القاتل بارتكاب جريمته. لسنا نرى له أثرًا في

twitter @baghdad_library

الوقت الراهن، رغم أن مساعينا لاكتشافه متواصِلة، لكنها لن تعيد إلينا ويليام الحبيب على كلٍّ حال.

يجب أن تعود يا ڤيكتور، فأنت وحدك تستطيع مواساة إليزابث. إنها تبكي بلا انقطاع، وتتَّهم نفسها بأنها السبب في موت الصغير، وكلماتها تخترق قلبي. كلنا تعساء ها هنا، لكن أليس هذا دافعًا إضافيًّا لك كي تكون بيننا لتُواسينا وتُخَفِّف عنا؟ إنني أحمد الله الآن على أن أمك الحبيبة لم تَعِش لتشهد موت ابنها الأصغر بهذه الطريقة البشعة.

عُد إلينا يا ڤيكتور دون أن تحمل مشاعر الحقد والانتقام من القاتل، بل تعالَ بمشاعر السلام والمودَّة التي ستُشفي جراحنا بدلًا من أن تُقَرِّحها. ادخل بيت الحزن يا ولدي، لكن بالحب لهؤلاء الذين يُحِبُّونك، وليس بالكراهية لأعدائك.

أبوك المحب الحزين،

ألفونس فرانكنشتاين

چنيڤ، الثاني عشر من مايو، القرن الثامن عشر».

اندهش كليرڤال، الذي كان يُراقِبني أثناء قراءتي للخطاب، من احتلال الغم لملامحي بعد المرح الذي انتابني إثر وصول أنباءٍ جديدة من أحبَّائي. ألقيتُ بالخطاب على المائدة، وغطَّيتُ وجهي بكفيَّ.

صاح هنري إذ رآني أبكي في حرارة:

- «فرانكنشتاين، هل كُتِبَ عليك أن تكون تعيسًا على الدوام؟ ماذا حدث يا صديقي؟».

أشرتُ إليه بأن يقرأ الخطاب، بينما أخذتُ أذرع الغُرفة في ثورة، واغرورقت عينا كليرڤال بالدموع وهو يقرأ ما جاء في الرسالة، وقال:

- «لا أدري كيف أعزِّيك يا صديقي، فمصيبتك عظيمة. ماذا ستفعل؟».

- «سأعودُ إلى چنيڤ في الحال. تعالَ معي يا هنري لإعداد الخيول».

حاول هنري مواساتي أثناء سيرنا، وقال مُعبِّرًا عن تعاطفه الشديد:

- «مسكين ويليام! إنه نائم الآن في أحضان أمه الملاك. خسارة أن نراه مليئًا بالحيويَّة والمرح في سنيْ عُمره الصغيرة، ويُكتَب علينا الآن البكاء على رحيله السابق لأوانه. لا يُمكنني أن أتخيَّل أن يموت هكذا، أن يشعر بقبضة القاتل تعتصر عنقه. وأيُّ قاتل هذا الذي يُمكنه اغتصاب البراءة المشرقة؟ يا للصغير المسكين! عزاؤنا الوحيد أن أحباءه يبكونه، لكنه يرقد في سلام. لقد انتهى ألمه، ومعاناته ذهبت إلى الأبد، والثَّرَى يُغطِّي جسده الصغير، ولن يشعر بألم بعد الآن. إننا لا يجب أن نأسف عليه هو الآن، بل نأسف على البؤساءِ الذين ظلوا أحياءً من بعده».

هكذا تكلَّم كليرڤال ونحن نقطع الشوارع. كلماته فرضَت نفسها على عقلي، وتذكَّرتها فيما بعد في وِحدتي. بمجرَّد أن وصلت الخيول، أسرعتُ إلى المركبة، وألقيتُ التحيَّة على صديقي.

كانت رحلتي كئيبة. تمنَّيتُ في البداية أن أصل بسرعة، إذ كنتُ في حاجةٍ بالغة إلى مواساة أهلي، لكن مع دُنُوِّي من بلدتي وجدتُ نفسي أخفِّف سرعتي، فلم أستطِع احتمال كَمّ المشاعر التي انتابتني. مررتُ بأماكنٍ مألوفة لي منذ الطفولة، لكنني لم أكن قد رأيتها منذ سنواتٍ ست. تُرى كم اختلف كلُّ شيءٍ أثناء تلك الفترة الطويلة؟ تغيير مفاجئ واحد طرأ، لكن لا بُدَّ من ألف ظَرْفٍ صغيرٍ آخَر أحدث تغييراتٍ طفيفة أخرى، تغييراتٍ حدثت بهدوءٍ لا يلحظه أحَد، لكنها ليست أقل أهميَّة. اعتراني الخوف، ولم أقوَ على التقدُّم، خائفًا آلاف الشرور التي لا تحمل اسمًا وجعلتني أرتجف، على الرغم من أنني لم أستطِع وصفها أو تحديد مصدرها.

twitter @baghdad_library

ظللتُ ليومين في لوزان في هذه الحالة النفسيَّة المؤلمة. تأمَّلتُ البحيرة ومياهها الهادئة ككلِّ شيءٍ حولي، والجبال المغطَّاة بالجليد -قصور الطبيعة[1]- كانت كما هي. بشكلٍ ما جعلَتني هذه المَشاهد الجميلة أهدأ، وواصلتُ رحلتي إلى چنيڤ. كان الطريق يمر بشاطئ البحيرة، وأخذ يضيق مع اقترابي من المدينة. شاهدتُ بوضوحٍ جوانب جبل چورا السوداء، وقمَّة جبل مون بلان البرَّاقة.

بكيتُ كطِفلٍ وصرختُ:

- «أيتها الجبال! أيتها البحيرة! كيف تُرَحِّبين بي أنا الشريد؟ القمم واضحة، والسماء والمياه زرقاء صافية. أسلامٌ هذا أم سخريةٌ من تعاستي؟».

أخشى يا صديقي أن أصيبك بالملل بتكراري لكلِّ هذه التفاصيل التمهيديَّة، لكنها آتية من أيام كانت تحمل لي سعادة نسبيَّة، ولا أملك إلا أن أفكِّر فيها بشيءٍ من السرور. بلادي! بلادي الحبيبة! من غير ابنٍ لكِ يُمكنه أن يحكي عن البهجة التي شعرتُ بها مع رؤيتي مرَّة أخرى لجداولكِ وجبالكِ، وفوق كلِّ شيءٍ بحيرتكِ؟

لكن الحزن والخوف تغلبا عليَّ من جديد مع اقترابي من بيتي، وكان الليل قد بسط سلطانه بالفعل، ولم أعد أستطيع رؤية الجبال، ما زاد من شعوري بالوحشة. بدت الصورة حولي كمشهدٍ واسع مُظلِم للشَّر، وتنبَّأتُ حينها بأن مصيري أن أصير الأتعس بين البشر، ولَلأسفَ كانت نبوءتي صحيحة. لكني، رغم كلِّ الألم الذي تخيَّلته وتخوَّفت منه، لم أدرك غيضًا من فيض ما واجهته لاحقًا.

---

(1) من قصيدة للورد بايرون كُتِبَت في الصيف نفسه الذي بدأت فيه ماري شِلي كتابة الرواية.

كان الظلام تامًّا عندما وصلتُ إلى ضواحي چنيڤ، وكانت بوَّابات المدينة مغلَقة بالفعل، فأصبح عليَّ قضاء الليل في قرية سشرون التي تبعد نِصف فرسخٍ عن المدينة. كانت السماء صافية، وكنتُ غير قادرٍ على الراحة، فقرَّرتُ زيارة البُقعة التي قُتِل فيها ويليام المسكين. وبما أنني لم أستطِع عبور البلدة، كانت السبيل الوحيدة هي اجتياز البحيرة بقارب إلى پلينپيليه. خلال الرحلة القصيرة رأيتُ البرق يتلاعب على قمَّة مون بلان بأشكالٍ جميلة. بدا أن العاصفة تقترب بسرعة، وعندما ترجَّلتُ من القارب ارتقيتُ تلًّا منخفضًا لأراقب تقدُّمها. اقتربَت العاصفة بسرعةٍ بالفعل، واحتشدَت السُّحُب في السماء، وسرعان ما شعرتُ بالمطر يتساقط ببطءٍ في قطراتٍ كبيرة، لكن عنفه ازداد سريعًا.

تحرَّكتُ من مكاني وواصلتُ المسير، رغم أن العاصفة والظلام زادا مع مُضيّ كلِّ دقيقة، وكان الرعد يَهدر فوق رأسي بضَجَّةٍ مُرعِبة، وتردَّد صداه في جبال ساليڤ وچورا وساڤوا. أغشت ومضات مُبهِرة من البرق عينيَّ، وأضاءت البحيرة جاعلةً إياها صفحة واسعة من النيران، ثم للحظةٍ ساد الظلام الدامس حتى استعدت قُدرتي على الرؤية. ظهرت العاصفة -كما هي العادة في سويسرا- دُفعةً واحدةً في بقاعٍ مختلفة من السماء، وكان أعنف جزء منها يعلو شمال المدينة بالضبط، وبالتحديد فوق الجزء من البحيرة الذي يقع بين البروز الجبلي في بيلرڤا وقرية كوبت. عاصفة أخرى أضاءت چورا بومضاتٍ ضعيفة، بينما كشفت عاصفة ثالثة عن جبل مول الواقع عِند شرق البحيرة.

تحرَّكتُ بخطواتٍ سريعة وأنا أشاهدُ العاصفة الجميلة المخيفة في آنٍ واحد، وقد رفعت هذه الحرب النبيلة الدائرة في السماء روحي المعنويَّة، فشبكتُ يديَّ وصرختُ بأعلى صوتي:

twitter @baghdad_library

- «ويليام أيها الملاك الجميل، هذه جنازتك وقُدَّاسك!».

ومع خروج هذه الكلمات مني رأيتُ بين حُجُب الظلام شبحًا يتسلَّل وراء كتلة أشجار على مقربةٍ مني. تسمَّرتُ في مكاني أحدِّق فيه بتركيز. لم يكن هناك مجال للخطأ، وفي هذه اللحظة أضاء البرق المكان وكشف لي هيئة الشبح بكلِّ وضوح: قامته العملاقة وملامحه المشوَّهة التي لا تَمُت لملامح البَشَر بصِلة.

كان المسخ، الشيطان الذي جئتُ به إلى الحياة.

ماذا يفعل هناك؟

هل يُعقَل أن يكون (وارتجفتُ للفكرة) قاتل أخي؟

بمجرَّد أن جالت الفكرة بخاطري، أصبحتُ مقتنعًا تمامًا بصِحَّتها. اصطكَّت أسناني، واضطررتُ للارتكان إلى شجرةٍ كي لا أسقط أرضًا، بينما مرَّ بي الشبح بسرعة واختفى في الظلام. لا شيءَ إنسانيًّا كان بإمكانه تدمير طِفل بريء. إنه هو القاتل لا شك. مجرَّد حضور الفكرة كان دليلًا على الحقيقة، وفكَّرتُ في مطارَدة الشيطان، لكن ذلك لم يكن ليأتي بجدوى، فقد كشف وميض آخَر لي عنه وهو متعلِّق بصخور مرتفَع ساليف القريب، ذلك التَّل الذي يَحُدُّ پلينپيليه من الجنوب، وسرعان ما بلغ المسخ القِمَّة واختفى عن نظري.

بقيتُ في مكاني بلا حراك. توقَّف الرعد، لكن المطر استمرَّ، وتوارت الموجودات في ظُلمةٍ حالكة. استعدتُ في عقلي الأحداث التي كنتُ أبغي حتى الآن نسيانها، سلسلة التقدُّم الكاملة نحو صُنع الكائن، وظهور ما صنعته يداي إلى جانب فراشي، ثم رحيله.

عامان مرَّا حتى الآن منذ الليلة التي جاء فيها إلى الحياة، فهل كانت هذه جريمته الأولى؟ يا للحسرة! لقد أطلقتُ على العالم مسخًا شيطانيًّا

يجد لذَّته في الدمار والقتل، فكيف من الممكن أن يكون غيره قاتِل أخي؟

لا أحد يُمكنه تخيُّل الآلام التي عانيتُ منها خلال ما تبقَّى من الليل الذي قضيته في الهواء الطَّلق والبرد والبلل. لكني لم أشعر بقسوة الطقس، فخيالي كان مستغرِقًا في مشاهد الشَّر والآثام. فكَّرتُ في الكائن الذي جئتُ به بين بني البَشَر ووهبته القوَّة والمقدرة على إثارة الرُّعب والهلع، تمامًا كما فعل الآن. إنه مصَّاص دماء جئتُ به من غياهب القبور، وها هو الآن يدمِّر كل ما هو عزيز عليَّ.

طلع الفجر، واتَّجهتُ إلى المدينة. كانت البوَّابات مفتوحة، فأسرعتُ إلى منزل أبي، وكانت الفكرة التي تجول بعقلي هي أن أكشف ما أعرفه عن القاتل وأبدأ بحثًا فوريًّا، لكنني توقَّفتُ عندما فكرتُ في القِصَّة التي يجب أن أحكيها. كِيان جمعت أجزاءه بنفسي ومنحته الحياة، ثم لاقاني عند مُنتَصَف الليل بين جروف جبلٍ وعر! تذكَّرتُ أيضًا الحمَّى التي أصِبت بها في الفترة نفسها، والتي ستضُفي طبعًا المزيد من الشكوك على الحكاية التي لا تُصَدَّق أصلًا. كنتُ أعرف جيدًا أنه لو أخبرَني شخص آخَر بحكايةٍ مماثلة لكنتُ حسبته يهذي، بالإضافة إلى أن طبيعة الحيوان الغريبة ستجعله يتملَّص من مطارِديه، وهذا لو أقنعتُ أيَّ أحدٍ بمطارَدته في المقام الأول. ثم ما الفائدة من المطارَدة؟ من يُمكنه القبض على كائنٍ يستطيع ارتقاء صخور جبل ساليف بجلالة قدرها؟ جعلتني هذه الأفكار أقرِّر التزام الصَّمت.

كانت الساعة الخامسة صباحًا تقريبًا عندما دخلتُ بيت أبي. قلتُ للخدم ألا يُزعِجوا العائلة، ودخلتُ المكتبة منتظرًا الوقت المعتاد الذي يستيقظون فيه.

ستة أعوام انقضت في حُلم يقود إليه طريق بلا عودة، ووقفتُ في المكان نفسه الذي عانقتُ فيه أبي قبل رحيلي إلى إنجولشتادت. أبي

twitter @baghdad_library

الحبيب المبجَّل الذي تبقَّى لي! تطلَّعتُ إلى صورة أمي المعلَّقة فوق رفِّ المدفأة. كانت قِطعة تاريخيَّة رُسِمَت بناءً على رغبة أبي، وتظهر فيها كارولين بيوفورت في لحظة يأسها التي ركعت فيها إلى جوار تابوت والدها الميِّت. ملابسها كانت ريفيَّة بسيطة، وملامحها شاحبة، لكنها كانت محاطة بأثيرٍ من الكرامة والجمال لم يدع مجالًا للشعور بالشفقة عليها. تحت الصورة كانت هناك صورة أخرى صغيرة لويليام، وسالت الدموع من عينيَّ وأنا أرمقها.

هكذا وجدني إرنست عندما دلف إلى الغُرفة. كان قد سمعني أثناء وصولي، وأسرع ليرحِّب بي قائلًا:

- «مرحبًا يا شقيقي العزيز. آه! ليتك عُدت منذ ثلاثة أشهُر فقط. كنت لتجدنا في أوْج سعادتنا. لكنك عدت الآن ونحن في نكبةٍ لا يُخَفِّف منها شيء. آمل أن تُنعِش بحضورك والدنا الغارق في أحزانه، وأن تُقنِع إليزابث المسكينة بالتخلِّي عن اتهاماتها العقيمة لنفسها. مسكين ويليام! كان حبيبنا ومدعاة فخرنا!».

سالت الدموع بحرارة من عينَيْ أخي، وشعرتُ بحزنٍ عميق يَكتَنِفني. كنتُ قد تخيَّلتُ الحالة التي سأجد بيتي عليها، لكن الواقع حمل لي كلَّ قسوته بما لا يُقاس. حاولتُ تهدئة إرنست وسألته عن أبي، وعن هذه التي كنت أسمِّيها ابنة عمي، فأجاب:

- «هي بالذات تحتاج إلى كلِّ مواساةٍ ممكنة. إنها تتَّهم نفسها بالتسبُّب في موت أخينا، وجعلها هذا بائسة كلَّ البؤس، لكن بما أننا اكتشفنا القاتل..».

- «اكتشفتم القاتل؟! ربَّاه! كيف هذا؟ ومن هذا الذي طارده؟ هذا مستحيل! وكيف لأحدٍ أن يُسابِق الريح أو يَسِدَّ نهرًا بقشَّة؟ أنا أيضًا رأيته. لقد كان طليقًا ليلة أمس».

أجاب أخي في حيرة:

- «لا أدري ما تعنيه، لكن اكتشافنا لم يُخَفِّف من حزننا على كلِّ حال. لا أحد كان يُصَدِّق في البداية، وحتى إليزابث لم تقتنع إلى الآن على الرغم من جميع الأدلَّة. بالطبع، ومن ذا الذي كان ليتخيَّل أن چستين موريتز، الفتاة الطيِّبة المغرَمة بعائلتنا، يُمكنها أن تصبح قادرة فجأةً على ارتكاب جريمة بتلك البشاعة؟».

- «چستين موريتز؟ يا للمسكينة! أهي المتَّهَمة؟ لكنه اتهام ظالم، والجميع مقتنعون بهذا بالطبع، أليس كذلك؟».

- «لم يُصَدِّق أحد في البداية، لكن تفاصيل كثيرة انكشفت وأجبرَتنا على الاقتناع بصِحَّة الاتهام، كما أن سلوكها هي كان مضطَّربًا، وأخشى أن الدليل الذي يُصاحِب هذا لا يدع مجالًا للشَّك. سوف تُحاكَم اليوم، وستعرف حينها كلَّ شيء».

ثم حكا لي أنه في الصباح الذي تَمَّ فيه اكتشاف جُثَّة ويليام المسكين شعرت چستين بالمرض ولازمت فراشها لعدَّة أيام، وخلال هذه الفترة فتَّشت واحدة من الخادمات الثوب الذي كانت ترتديه چستين ليلة الجريمة، واكتشفت في جيبها صورة أمي التي حسبوا أنها سبب ارتكاب الجريمة. أرت الخادمة الصورة في الحال لخادم آخَر، وهُرِعَ هذا الخادم، دون أن يقول كلمة واحدة لهم، إلى أحد القضاة، فتمَّ القبض على چستين بعد سماع شهادة الخادمة، وأكَّدت الفتاة المسكينة الشكوك بسلوكها المضطَّرب للغاية. كانت حكاية غريبة، لكنها لم تُزعزِع إيماني ببراءة الفتاة، وقلتُ في حسم:

- «كلكم مخطئون. إنني أعرف القاتل، وچستين المسكينة بريئة».

دلف أبي إلى الغُرفة في تلك اللحظة. رأيتُ الحزن العميق حافرًا

twitter @baghdad_library

نفسه في ملامحه، لكنه حاول أن يُرَحِّب بي بسرور، وبعد أن تبادلنا التحيَّات الحزينة كنا لنفتح أيَّ موضوعٍ آخَر مختلفًا عن كارثتنا، لولا أن إرنست صاح:

- «بحقِّ السماء يا أبي! ڤيكتور يقول إنه يعرف من يكون قاتل ويليام المسكين!».

أجاب أبي:

- «نحن أيضًا نعرف من فعلها للأسف، لكني كنت أُفَضِّل أن أبقى جاهلًا إلى الأبد على أن أعرف أن إنسانة أحببناها وقدَّرناها قادرة على ارتكاب فعلة شنعاء كهذه».

- «إنك مخطئ يا أبي. چستين بريئة».

- «إن كانت كذلك، فحاشا لله أن تُدان. سوف تُحاكَم اليوم، وأتمنَّى من كلِّ قلبي أن تَثبُت براءتها».

هدأت على إثر هذا الحديث. كنت مقتنعًا تمامًا بأن چستين، مثلها مثل البشر جميعًا، بريئة من جريمة قتل أخي، ولهذا لم أخشَ أن أيَّ دليلٍ ظرفي قد يكفي لإدانتها. لم تكن حكايتي بالحكاية الصالحة لأنْ أحكيها على الملأ، وكان العامَّة لينظرون إليها على أنها هلاوس عقلٍ مجنون من فرط ما فيها من رُعب، فهل كان أحد غيري، أنا صانع المخلوق، ليُصَدِّق حقيقة وجود الدليل الحي على نتيجة الجنون والجهل الأعمى التي أطلقتها على العالم؟

انضمَّت إلينا إليزابث بعد قليل. كم غيَّرها الزمن منذ رأيتها آخِر مرَّة! لقد أكسبها نضجًا عذبًا يفوق جمال سنوات طفولتها. كانت لا تزال تتمتَّع بالملامح الصادقة ذاتها والحيويَّة نفسها، لكن أضيفت إلى هذا لمحة من الرِّقَّة والذكاء.

رحَّبت بي في حرارة قائلةً:

- «عودتك تملأني بالأمل يا ابن عمي العزيز، وأتمنى أن تجد وسيلة لتبرئة چستين المسكينة. يا للخسارة! مَن منا يأمن على نفسه إذا أدينت هي بجريمة قتل؟ إنني واثقةٌ ببراءتها كما أثق ببراءتي أنا. مصيبتنا كبيرة ومضاعَفة، فنحن لم نفقد طِفلنا الحبيب فحسب، بل أيضًا على وشك أن نفقد تلك الفتاة المسكينة التي أحبُّها من كلِّ قلبي، والتي ستنال مصيرًا أسوأ. لن أعرف طعمًا للسعادة بعد اليوم إذا أُدينت. لكن ذلك لن يحدث، أعرفُ هذا وأثقُ به، وعندها سأعودُ سعيدة من جديد، حتى بعد موت ويليام».

قلت مؤكِّدًا:

- «إنها بريئة يا إليزابث، وستتَّضح براءتها. لا تخافي شيئًا واطمئني».

- «كم أنت عطوف! الآخَرون كلهم واثقون بإدانتها، وذلك يُعَذِّبني لأني أعرف أنه مستحيل، ورؤيتي للجميع وهُم مقتنعون بالقصاص منها جعلتني أفقد كلَّ أمل».

ثم انفجرت باكية، فقال أبي:

«جفِّفي دموعك يا ابنة أخي. إذا كانت بريئة كما تؤمنين، فاعتمدي على عدالة قوانيننا، وعلى الإجراءات التي سأتَّخذها لمنع أيِّ تحيُّزٍ ضدها».

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن

أمضينا بضع ساعاتٍ حزينة حتى حان موعد بدء المحاكمة في الحادية عشرة، ورافقتُ أبي وبقيَّة العائلة إلى قاعة المحكمة، بما أن وجودهم كان ضروريًّا باعتبارهم شهودًا. طوال أحداث هذه العدالة الساخرة كنتُ أصطلي بنيران عذابٍ مستعِرَة، إذ كان سيتحدَّد إن كانت نتيجة فضولي وأعمالي الآثمة ستتسبَّب بالفعل في موت اثنين من إخوتي في الإنسانيَّة؛ أحدهما طِفل مفعَم بالبراءة والمرح، والأخرى موتها أبشع بكثير، مع وَصْمها بارتكاب جريمةٍ مُفجِعةٍ سوف تُكَلِّل ذكراها بالعار إلى الأبد. إنها چستين، الفتاة التي امتلكَت من السِّمات ما كان كفيلًا بأن يجعلها سعيدة طيلة عمرها، والآن أصبح مصيرها قبرًا حقيرًا، وأنا السبب! راودَتني لألف مرَّةٍ فكرة أن أعترف على نفسي بارتكاب الجريمة المنسوبة إلى چستين، لكني كنتُ غائبًا وقت وقوعها، وإعلان كهذا لن يَعُدُّه أحد إلا هذيان شخصٍ مختل، ولن يُبَرِّئ ساحة هذه التي تعاني بسببي.

بدت چستين هادئة. كانت ترتدي ملابس الحِداد، وبدت ملامحها الفاتنة مَشوبة بالقلق الذي فرضه الموقف، لكنها بدت كذلك واثقة ببراءتها ولم ترتجف رغم النظرات الناريَّة التي تَرمُقها، واللَّعنات التي

انصبَّت على أُمِّ رأسها. الرِّقَّة التي كان جمالها ليثيرها في الصدور في ظروفٍ أخرى طُمِسَت في أذهان المُشاهِدين مع تخيُّلهم للجريمة التي يُفترَض أنها ارتكبتها. كانت هادئة، لكن هدوءها كان باديًا في ارتباكها، وبما أن ارتباكها هذا عمل من قبل كدليلٍ على إدانتها، فقد قرَّرت أن تُبدي الشجاعة. عندما دخلَت القاعة، دارت بعينيها بلهفة في وجوه الموجودين بحثًا عن مكان جلوسنا، وبدا أن دمعة تُعَكِّر صفاء عينيها عندما رأتنا، لكنها استعادت رباطة جأشها سريعًا، وفي عينيها لاحت نظرة وديعة أزاحت كلَّ شَكٍّ في براءتها.

بدأت المحاكمة، وتم استدعاء عددٍ من الشهود بعد أن ألقى محامي الادِّعاء بمرافَعته، وتجمَّعَت حقائق كثيرة غريبة ضدها، حقائق يُمكنها إقناع أيِّ شخصٍ لا يملك دليل براءتها كما ملكته أنا. كانت چستين خارج المنزل طَوال الليلة التي ارتُكِبَت فيها الجريمة، ونحو الصباح شاهدَتها بائعة في السوق بالقُرب من البُقعة التي عُثِرَ فيها على جُثَّة الطِّفل القتيل فيما بعد. سألتها المرأة عما تفعله هناك، لكنها نظرت إليها نظرة غريبة وأجابت إجابة مُبهَمة. عادت إلى المنزل في الثامنة تقريبًا، وعندما سألها أحد الخدمِ عن المكان الذي قضت فيه الليل، أجابت بأنها كانت تبحث عن الطِّفل، وسألت في لهفةٍ عن أيَّ أخبارٍ جديدة تَخُصُّه، ولما رأت الجُثَّة أصيبت بنوبة هستيريا عنيفة، ولازمَت الفراش لعِدَّة أيام. ثم تم عرض الصورة التي وجدَتها الخادمة في جيبها، وعندما أكدَّت إليزابث بصوتٍ متردِّد أنها نفس الصورة التي وضعَتها حول عُنُق الطِّفل قبل ساعةٍ من غيابه، ضجَّت المحكمة بأصوات الذهول والاشمئزاز.

تم استدعاء چستين لتُدلي بدفاعها؛ ومع تواصُل المحاكمة تبدَّلت ملامحها، واحتلَّت الدهشة والرعب والبؤس مُحيَّاها الجميل. أحيانًا

twitter @baghdad_library

كانت تُصارِع دموعها، لكن عندما حان وقت مرافعَتها استجمعت قواها، وتكلّمت بصوتٍ واضحٍ مسموع، على الرغم من الرجفة التي شابته، وقالت:

- «يعلم الله أني بريئة، لكني لا أتظاهَر بأن تأكيدي على هذا يكفي لتبرئتي. إنني أعهدُ ببراءتي إلى تفسيرٍ بسيطٍ واضح للحقائق التي وردَت ضدي، وآملُ أن الشخصيَّة التي تمتَّعتُ بها دائمًا لن تجعل القاضي يسيء تأويل أيِّ ظرفٍ قد يبدو مثيرًا للشَّك».

ثم روت أنها، بإذنٍ من إليزابث، أمضت مساء الليلة التي وقعت فيها الجريمة عند خالةٍ لها في قرية شينو التي تبعد فرسخًا واحدًا عن چنيڤ، ومع عودتها في التاسعة تقريبًا قابلَت رجلًا سألها إن كانت قد رأت الطِّفل المفقود. أزعجها هذا بشِدَّة، وقضت ساعاتٍ طويلة في البحث عن ويليام، حتى أُغلِقت بوَّابات المدينة، وأُجبِرَت الفتاة على قضاء الليل في مخزن حبوبٍ تابع لأحد الأكواخ، غير قادرةٍ على إخبار سُكَّان الكوخ الذين يعرفونها جيدًا. قضت معظم الليل هناك في ترقُّب، ومع اقتراب النهار غفت لدقائق قليلة، قبل أن تُزعِجها خطوات أقدام، فاستيقظَت من نومها. جاء الفجر، وتركت ملجأها محاولةً العثور على أخي من جديد. قالت إنها إذا كانت قد اقتربت من المكان الذي قُتِلَ فيه، فلا بُدَّ أن هذا كان من دون علمها، وأضافت أن ارتباكها عند حديثها مع بائعة السوق كان طبيعيًّا، لكونها قضت ليلة طويلة بلا نوم، ولكون مصير ويليام المسكين كان لم يزل مجهولًا.

أما بخصوص الصورة فلم تُعطِ تفسيرًا. فقط قالت:

- «أعرفُ كم تُرَجِّح هذه التفصيلة الوحيدة إدانتي، لكني لا أملك القُدرة على تفسيرها، وعندما أبدي جهلي التام بكيفيَّة حدوثها، فلا أملك إلا التفكير في بعض الاحتمالات التي جاءت بها إلى جيبي. لكن هذا أيضًا يصيبني بالحيرة، فلستُ أعتقد أن لي أعداء على وجه

الأرض، وبالطبع لا أعرف أحدًا يملك من إرادة الشَّر ما يجعله يريد تدميري بهذه الوحشيَّة. هل وضع القاتل الصورة في جيبي؟ لا أذكر أن فرصة أتيحت لأحدهم كي يفعل ذلك. وإذا كان هذا هو ما حدث بالفعل، فلماذا يسرق القلادة ثم يتخلَّى عنها بهذه السرعة؟ إنني أعهد بنفسي إلى عدالة القضاء، لكني لا أرى مجالًا للأمل. إنني أطلبُ الإذن باستدعاء بعض الشهود ليدلوا بكلمتهم في شخصي، وإذا لم تكفِ شهادتهم لنفي ذنبي المزعوم، فيُمكنكم إدانتي عندها».

استدعى القاضي عددًا كبيرًا من الشهود الذين عرفوها لسنواتٍ طويلة وقالوا عنها خيرًا، لكن خوفهم وكراهيتهم للجريمة التي افترضوا أنها ارتكبتها أصاباهم بالجُبن وعدم الرغبة في الشهادة لصالحها، وعندما رأت إليزابث أن الفرصة الأخيرة -سلوك چستين الذي لا تشوبه شائبة- على وشك خذلان المتَّهَمة، أصيبت بثورةٍ عنيفة، لكنها طلبت الإذن من القاضي بالتحدُّث، وقالت:

- «أنا ابنة عم الطِّفل القتيل، أو أخته بالأحرى، لأني عشتُ مع والديه وتربَّيتُ على يديهما قبل مولده بوقتٍ طويل. قد يَعُدُّ البعض إذن شهادتي مجروحة، لكني عندما أرى إنسانة مثلي على وشك الموت بسبب جُبن أصدقائها المزعومين، فإنني أريد التحدُّث لأقول ما لديَّ عن شخصيَّتها. إنني أعرفُ المتَّهمة جيدًا، فقد عشتُ معها في المنزل نفسه، مرَّة لخمس سنوات، ومرَّة أخرى لسنتين تقريبًا، وخلال تلك الفترة الطويلة بدت لي أكثر الناس لُطفًا وكرمًا وحنانًا. لقد اعتنت بعمَّتي السيِّدة فرانكنشتاين في مرضها الأخير خير عناية، وبعدها اعتنت بأمها هي خلال فترة مرضها الموجعة، وبطريقةٍ أثارت الإعجاب في كلِّ من يعرفونها، ثم عادت للمعيشة في منزل عمي، حيث تُحِبُّها عائلتي كلها. كانت مرتبطة للغاية بالطِّفل القتيل، وكانت له بمثابة الأم الرؤوم؛ ومن جانبي أنا لا أتردَّد في أن أقول إن على الرغم من كلِّ الأدلَّة الموجودة

twitter @baghdad_library

ضدها، فإنني أثق ببراءتها كلَّ الثقة. هي ليس لديها دافع لارتكاب فعلةٍ كهذه، كما يشير الدليل التافه الذي قاد إلى اتهامها، ولو كانت راغبة في القلادة لكانت طلبتها مني، ولكنتُ أعطيتها إياها بكلِّ السرور النابع من حُبِّي وتقديري البالغَين لها».

ارتفعَت همهمات الاستحسان بعد أن ختمت إليزابث مرافَعتها البسيطة القويَّة، لكن الاستحسان كان بسبب لفتتها الكريمة، وليس في صالح چستين المسكينة التي عاد العامَّة يستمطرون عليها نقمتهم، ويتَّهمونها بأبشع صفات الجحود. هي نفسها كانت تبكي وإليزابث تتكلَّم، لكنها لم تنبس ببنت شفة. ألمي وحزني أنا خلال المحاكمة كانا في أوجهما. كنتُ مؤمنًا ببراءتها ولم أشك فيها لحظة. هل من الممكن أن المسخ الذي قتل أخي، والذي كنتُ واثقًا بأنه هو الذي فعلها، قد قاد بأفعاله الشيطانيَّة هذه الفتاة المسكينة إلى الموت؟ لم أستطِع احتمال الرُّعب الذي أصابني به موقفي، وعندما رأيتُ أن أصوات العامَّة وملامح القاضي قد أصدَرَت حُكم الإعدام على ضحيَّتي التعيسة بالفعل، هُرِعتُ مغادِرًا المحكمة في يأس. عذاب المتَّهَمة لم يُعادِل عذابي.. هي براءتها كانت تُقوِّيها، أما أنا فأنياب الندم كانت تُمَزِّق صدري، ولم أستطِع التملُّص منها لحظة.

أمضيتُ ليلة ليلاء، وفي الصباح ذهبتُ إلى المحكمة بشفتين خشنتين وحَلْقٍ جاف. لم أجرؤ على طرح السؤال المميت، لكني كنت معروفًا هناك، وخمَّن أحد الضبَّاط سبب زيارتي، فتطوَّع بإخباري بنتيجة الحُكم. لقد فُرِزَت أوراق الاقتراع، وكانت كلها سوداء، وأُدينت چستين.

لستُ أقوى على وصف ما شعرتُ به لحظتها. لقد اختبرتُ قبلها مشاعر الرُّعب، وكنتُ دائمًا أحاول وصفها بما يتأتَّى لي من الكلمات، لكن الكلمات لا يُمكنها التعبير عن اليأس الذي يُمَزِّق نياط القلب الذي شعرتُ به.

أضاف الضابط الذي قابلته أن چستين اعترفت بجريمتها بالفعل، وقال:

- «لم يكن الاعتراف ضروريًّا في قضيَّةٍ متماسكة الأركان كهذه، لكني سعيد به، وبالتأكيد لا أحد من قضاتنا يحب إدانة مُجرم بِناءً على مُجرَّد دليلٍ ظرفي».

كانت معلومة غريبة وغير متوقَّعة..

ما الذي يعنيه هذا؟

هل خدعتني عيناي؟

هل كنتُ مجنونًا بالفعل كما كان العالم ليراني إذا أعلنتُ عن حقيقة شكوكي؟

أسرعتُ عائدًا إلى المنزل، حيث سألتني إليزابث عن النتيجة في لهفة، فأجبتها:

- «الحُكم جاء كما توقَّعت يا ابنة عمي. القضاة يُفَضِّلون أن يعاني عشرة من الأبرياء على أن يفلت مذنب واحد. الغريب أنها اعترفت!».

كانت ضربة عنيفة لإليزابث التي كانت تثق بكل جوارحها ببراءة چستين.

قالت في حسرة:

- «أيُّ هولٍ هذا؟ كيف يُمكنني أن أؤمن بطيبة البَشَر بعد اليوم؟ چستين التي أحببتها كأختي، كيف لها أن ترسم ابتسامات البراءة الزائفة فقط لتخوننا؟ عيناها الصافيتان بدتا غير قادرتين على نفاقٍ أو خداع، ومع ذلك ارتكبت جريمة قتل!».

بعد فترة قصيرة بلغَنا أن المسكينة طلبت رؤية ابنة عمي، وأبدى أبي اعتراضه على ذهاب إليزابث، لكنه ترك القرار لها، فقالت:

twitter @baghdad_library

- «سوف أذهب على الرغم من أنها مذنبة، وأريدك أن تأتي معي يا ڤيكتور، فلا يُمكنني الذهاب وحدي».

كانت فكرة هذه الزيارة عذابًا مقيمًا، لكني لم أستطِع الرفض بالطبع.

دخلنا غُرفة السجن الكئيبة، ووجدنا چستين جالسة على كرسي من القش في الركن البعيد، يداها مكبَّلتان، ورأسها مرتكن على ركبتيها. هبَّت ناهضة مع دخولنا، وعندما تُرِكَت وحدها معنا ألقت بنفسها على قدمي إليزابث، وانفجرت باكية في مرارة، فبكت ابنة عمي بدورها، وقالت:

- «چستين، لماذا تحرميننني من عزائي الأخير؟ لقد وثقت ببراءتك، وألمي السابق لا يعادل ذرَّة مما أشعر به الآن».

أجابت الفتاة بصوتٍ خنقته الدموع:

- «وهل تُصَدِّقين أنني قادرة على ارتكاب شرٍّ كهذا؟ هل تؤيِّدين أعدائي في تدميري وإدانتي كقاتلة؟».

قالت إليزابث:

- «انهضي يا مسكينة. لماذا تركعين وأنتِ بريئة؟ إنني لستُ من أعدائك، وآمنتُ بأن لا ذنب لكِ رغم كلِّ الأدلَّة، حتى سمعتُ أنكِ أقررتِ بذنبكِ بنفسكِ. تقولين إن الاتهام زائف، لكن تأكَّدي من أن لا شيء يُمكنه هَزَّ ثقتي بكِ لحظة إلا اعترافكِ أنتِ».

- «لقد اعترفتُ بالفعل، لكنه اعتراف كاذب. اعترفتُ لأنال الخلاص، لكن الكذب يُثقِل صدري الآن أكثر من جميع خطاياي الأخرى. ليسامحني الله العلي القدير. منذ إدانتي وقِسّ الاعتراف يُحاصِرني؛ يُهدِّدني بالحرمان الكنسي ونيران الجحيم في لحظاتي الأخيرة إذا واصلتُ الإصرار على الإثم. سيِّدتي، إنني وحيدة، والكلُّ

ينظر إليَّ كأنني مسخ يستحق الحرق في جهنم. ماذا كان بيدي؟ لقد كذبتُ في ساعة يأس، والآن فقط أشعرُ بالبؤس الحقيقي».

توقَّفَت لتنهمر دموعها على وجنتيها في حرارة، ثم أردفت:

- «انتابني الرُّعب يا سيِّدتي عندما فكَّرتُ في أنكِ قد تُصدِّقين أن چستين، التي باركتها وكرَّمتها عمتكِ، والتي أحببتها أنتِ طوال الوقت، قادرة على ارتكاب جريمة لا يقدر على ارتكابها سوى الشيطان نفسه. آه يا ويليام العزيز! سأراك قريبًا في الجنَّة، وسنصبح عندها سعيدين. هذا الخاطر وحده يُواسيني في طريقي إلى الموت بهذه المَهانة».

- «چستين! سامحيني على شكي فيك للحظةٍ واحدة. لماذا اعترفتِ بالله عليكِ؟ لكن لا تخافي. سوف أثبت براءتكِ. سأذيب قلوب أعدائكِ الحجريَّة بدموعي وتضرُّعاتي. لن تموتي. أنتِ يا رفيقتي وصديقتي وأختي تموتين على المشنقة؟ مُحال! لن يُمكنني احتمال ذلك أبدًا!».

هزَّت چستين رأسها في قنوط قائلة:

- «لست أخشى الموت، وألم هذه الفكرة قد انتهى. إن الله يُخفي ضعفي ويمنحني الشجاعة لتحمُّل الأسوأ. سوف أترك عالَمًا حزينًا قاسيًا، وإذا تذكَّرتيني وفكَّرتِ فيَّ كإنسانةٍ ماتت مدانةً بلا جريرة، فسأستسلم للمصير الذي ينتظرني. تعلَّمي مني يا سيِّدتي أن تخضعي في صبرٍ لإرادة السماء وتُسلِّمي أمركِ لها».

كنتُ قد تراجعتُ خلال هذه المحادثة إلى رُكن الغُرفة حيث أستطيع احتواء الألم الذي شعرتُ به. اليأس! من يجرؤ على التحدُّث عنه؟ الضحيَّة المسكينة التي ستعبر غدًا الحد المخيف الفاصل بين الحياة والموت لم تكن تشعر بالعذاب الذي شعرتُ به أنا. ضغطتُ على أسناني حتى صرَّت، وخرجت مني أنَّة آتية من أعمق أعماق روْحي. أجفلت چستين، وعندما رأت أنه أنا، اقتربت مني وقالت:

twitter @baghdad_library

- «سيِّدي، كرم شديد منك أن تأتي لزيارتي. آمل أنك أيضًا لا تظنني مذنبة».

لم أستطع النُّطق، فأجابت إليزابث نيابةً عني:

- «لا يا چستين. إنه مقتنع ببراءتكِ أكثر مني، ولم يُصَدِّق أنكِ ارتكبتِ الجريمة حتى عندما سمع أنكِ اعترفتِ».

- «أشكره من كلِّ قلبي. في هذه اللحظات الأخيرة أشعر بامتنانٍ شديدٍ لهؤلاء الذين يُفكِّرون فيَّ بعَدْل. كم هي جميلة رحمة الآخَرين ببائسةٍ مثلي! إنها تُزيح عني أكثر من نِصف ألمي، وأشعرُ أنني أستطيع الموت في سلام الآن وقد اعترفتما ببراءتي يا سيِّدتي أنتِ وابن عمكِ العزيز».

هكذا حاولَت المسكينة إراحة نفسها والآخرين. هي نالت الخلاص الذي تمنَّته بالفعل، أما أنا، القاتل الحقيقي، فشعرتُ بدودة اليأس تتسلَّل داخل صدري لتحرمني من آخِر أملٍ في المواساة. إليزابث كذلك بكت في لوعة، لكن دموعها أيضًا كانت دموع البراءة التي تبدو كسحابةٍ تحجب وجه القمر قليلًا، لكنها لا تُفقِده بريقه. أنا فقط شعرتُ بيأسٍ لا يُضاهَى يخترق قلبي، وفي أعماقي اشتعل لهيب لا ينطفئ. بقيناً لساعاتٍ طويلة مع چستين، ولم تستطِع إليزابث تركها إلا بشقِّ الأنفُس، وصرخت باكية ساعة الوداع:

- «ليتني أموت معكِ! لا يُمكنني الحياة في هذا العالم البائس!».

تظاهرَت چستين بالمرح وهي تحاول كبت دموعها، وعانقَت إليزابث وهي تقول بصوتٍ مكتوم:

- «وداعًا يا سيِّدتي الجميلة، يا إليزابث العزيزة، يا صديقتي الوحيدة. فلتباركِ السماء وتحفظكِ وتمنع عنكِ الأحزان. عيشي واسعَدي وأسعِدي الآخَرين».

وماتت چستين في الصباح التالي.

لم تستطع بلاغة إليزابث المذيبة للقلوب زحزحة القضاة عن قرارهم بإدانة المسكينة، ولم يلقوا بالًا لمطالبي الساخطة. عندما أجابتني كلماتهم الباردة الخالية من المشاعر مات اعترافي المزمع على شفتيَّ. كانوا ليعتبروننني مجنونًا إذا اعترفتُ، ولم يكونوا ليتراجعوا في حُكمهم على ضحيَّتيِ المسكينة التي ماتت على المشنقة كالقتلة. في خضم عذاب قلبي فكَّرتُ في حزن إليزابث الصامت العميق.. هذا أيضًا كان من صُنعي! وأسى أبي وتعاسة البيت دائم الابتسام.. كلٌّ هذا كان مما اقترفَت يدي الملعونة!

إنكم تبكون أيها التعساء، لكن هذا ليس منتهى دموعكم. سوف يُسمَع نحيبكم الجنائزي مرَّة أخرى، وسيتردَّد صوت بكائكم.

فرانكنشتاين، ابنكم وقريبكم وصديقكم المحبوب الذي كان ليَبذُل آخِر قطرةٍ من دمه من أجلكم، الذي لم يعرف السعادة إلا عندما كان يراها في عيونكم، الذي كان ليملأ الهواء فرحةً ويقضي عمره في خدمتكم، يدعوكم للبكاء، لذرْف الدموع بلا نهاية.

فليسعد القدر العنيد إذا كانت سعادتكم لا أمل فيها، وإذا كانت راحة القبر لن تأتي قبل عذاب طويل!

هكذا تكلَّمت روحي التنبُّوئيَّة[1] وأنا أشاهِد في ندم وخوفٍ ويأسٍ أحبائي يَصُبُّون أحزانهم على قبري ويليام وچستين، أول ضحيتين لأعمالي الدَّنِسة.

---

(1) الروح التنبُّوئيَّة: من المشهد الخامس من الفصل الأول في مسرحية «هاملت»، عندما يُخبِر شبح أبي هاملت ابنه بمقتله على يد كلاديوس ويُكلِّفه بالانتقام له.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

لا شيءَ يؤلم عقل الإنسان بعد تصاعُد المشاعر مع التلاحُق السريع للأحداث سوى السكون الذي يَعقُب هذا، ويحرم الروح من الأمل والخوف في آنٍ واحد. ماتت چستين واستراحت، وظللتُ أنا حيًّا. تدفَّق الدَّم في عروقي حُرًّا، لكن قلبي عانى من وطأة اليأس والندم التي لا تنزاح. غاب النوم عن عينيَّ، وأخذتُ أهيم كروحٍ شريرة، ولم يَغِب عن وجداني قَطُّ أنني ارتكبتُ من الأفعال ما يفوق الوصف، وأقنعتُ نفسي بأن المزيد لم يزل في الطريق. لكن قلبي كان مغمورًا بمشاعر الطِّيبة وحُبِّ الفضيلة، وبدأتُ حياتي بنِيَّاتٍ خيِّرةٍ وظمأٍ للحظة التي أستغلُّ طبيعتي فيها وأجعلُ نفسي مفيدًا للناس. والآن ضاع كلُّ هذا، وبدلًا من صفاء البال الذي يجعلني أنظر إلى الماضي في رضا وأجدِّد آمالي، حُوصِرتُ بندمٍ وشعورٍ بالإثم ألقيا بي في جحيمٍ لا تصف عذابه لُغة.

كانت هذه الحالة العقليَّة تَفتَرِس صِحَّتي افتراسًا، صِحَّتي التي ربما لم تتعافَ بالكامل من الصَّدمة الأولى بَعد. تجنَّبتُ وجوه البَشَر، وأيُّ صوتٍ مُعَبِّرٍ عن الفرحة والرِّضا كان يُعَذِّبني، والعُزلة أصبحت عزائي الوحيد.. العُزلة العميقة الكئيبة الشبيهة بالموت.

لاحَظ أبي بحزنٍ التبدُّل الحادث في تصرُّفاتي وعاداتي، وحاوَل بنقاشاتٍ نابعةٍ من ضميره المستريح وحياته الخالية من الندم أن يَحُثَّني على الثَّبات وأن يوقظ في داخلي الشجاعة لتبديد السحابة السوداء التي قبعت على أيامي، وقال لي ذات مرَّة:

- «هل تظن يا ڤيكتور أنني لا أعاني أيضًا؟ إنني لا أتخيل إنسانًا أحبَّ ابنه مثلما أحببتُ أخاك».

واغرورقت عيناه بالدموع وهو يضيف:

- «لكن أليس واجبنا نحو الباقين على قيد الحياة أن نمتنع عن مضاعَفة حزنهم بالإفراط في حزننا؟ إنه واجب تدين به لنفسك أيضًا، لأن الحزن المبالَغ فيه يمنع التقدُّم والاستمتاع بالحياة، أو حتى أداء الواجبات اليوميَّة التي لا يُصبِح الإنسان من دونها جزءًا من المجتمع».

هذه النصيحة، رغم جودتها، كانت غير قابلة للتطبيق عليَّ. كان يجب أن أكون أول من يواسي أحبائي لو لم تمتزج مرارة الندم والخوف بمشاعري الأخرى. لم أستطِع إجابة أبي سوى بنظرة يأس ومحاوَلةٍ لإخفاء نفسي عن ناظريه.

في تلك الفترة عُدنا إلى منزلنا في بيلرڤا، وقابلتُ هذا التغيير بموافقتي التامَّة، فإغلاق البوَّابات في موعدٍ ثابتٍ في تمام العاشرة مساءً واستحالة البقاء على شاطئ البحيرة بعد تلك الساعة جعل إقامتنا داخل أسوار جنيف مُضجِرة لي للغاية، لكني أصبحتُ الآن حُرًّا، وكثيرًا ما كنتُ بعد خلود بقيَّة العائلة إلى النوم أستقل القارب وأخوض في البحيرة لساعاتٍ طويلة. أحيانًا كنتُ أفرد الأشرعة وأتركُ الرياح تُحَرِّكني، وفي أحيانٍ أخرى مع تجديفي إلى مُنتَصَف البحيرة كنتُ أدع القارب يتحرَّك كما لو أن له إرادة خاصَّة وأغوصُ في أفكاري الكئيبة. كثيرًا ما كانت تُراوِدني الرغبة، عندما كان الهدوء يسود كلَّ شيءٍ

twitter @baghdad_library

حولي، وأكونُ أنا الشيء الوحيد الذي يتحرَّك تحت المشهد السَّماوي الجميل، ولربما يطير خُفَّاشٌ أو تَنِقٌّ ضفدعةٌ بصوتٍ خشن متقطع لا يُسمَع إلا مع اقترابي من الشاطئ. أقول إن كثيرًا ما كانت تُراوِدني الرغبة في القفز إلى مياه البحيرة الصامتة فأغرق فيها ببلواي إلى الأبد، لكني كنتُ أتراجع عندما أفكِّر في إليزابث الباسلة التي أحببتها من كلِّ قلبي وارتبط وجودها بوجودي، وفي أبي وشقيقي الآخَر إرنست. هل أجسُرُ على تركهم في خِسَّةٍ وبلا حمايةٍ من شَرِّ الشيطان الذي أطلقته بين البَشَر؟

في لحظاتٍ كهذه كنتُ أبكي بمرارة، وأتمنَّى لو يعود السلام إلى نفسي، فقط كي أمنحهم السعادة والسلوان، لكن ذلك كان عزيز المنال، والندم قتل كلَّ أمل. لقد أوجدتُ شرًّا لا يُمحى، ولهذا عشتُ في خوفٍ دائم من عودة الوحش الذي صنعته لارتكاب جريمةٍ أخرى.

شعورٌ مُبهَم كان يُراوِدني بأن كلَّ شيءٍ لم ينتهِ بعد، وأنه سوف يَرتكِب جريمة شنعاء أخرى ستجعل -من فرط فداحتها- ما حدث في الماضي مجرَّد دعابةٍ سخيفة. هكذا كانت هناك مساحة دائمة للخوف طالما أن من أُحِبُّهم موجودون. مقتي لهذا المسخ كان لا يوصف، وعندما كنتُ أفكِّر في جرائمه وشروره كانت أسناني تَصِرُّ وعيناي تشتعلان غضبًا، وكنتُ أتمنَّى أكثر من أيِّ شيءٍ آخَر أن أسلبه الحياة التي منحته إياها بطيشي. عندما كنتُ أفكِّر في جرائمه وشروره كانت كراهيتي وانتقامي يخترقان كلَّ حدود التعقُّل. كنتُ لأبلغ أعلى قِمَم جبال الآنديز إذا استطعتُ، فقط كي أطوِّح به إلى قاعها. تمنَّيتُ لو أراه مرَّة أخرى لأُنزِل به أعتى أنواع العذاب، وأنتقم لموت ويليام وچستين.

بيتنا أصبح بيت الحزن، وتأثَّرَت صِحَّة أبي كثيرًا بالأحداث الأخيرة. إليزابث كانت دائمة الحزن والاكتئاب، ولم تَعُد تستمتع باهتماماتها

التقليديَّة، وكلُّ مرح بدا لها انتهاكًا لحُرمة الموتى، فاتخذَت من البكاء الدائم ضريبة عادلةً تدفعها عن دمار البراءة. لم تَعُد تلك المخلوقة السعيدة التي كانت في صبانا تجول معي على ضفاف البحيرة وتتحدَّث بحماسة عن مشاريعنا المُستَقبَليَّة. زارتها أولى الأحزان التي تأتينا لتَفطِمنا على حقيقة العالم، لكن تأثيرها أطفأ ابتسامتها الجميلة.

قالت لي ذات يوم:

– «عندما أفكِّرُ في موت چستين موريتز الرهيب، لا أرى العالم كما بدا لي من قبل. قديمًا كنتُ أنظر إلى حكايات الظُّلم والقَهر التي قرأتها في الكُتُب أو سمعتها من الآخَرين على أنها حكايات من أزمانٍ سحيقة عن شرورٍ خياليَّة، أو على الأقل كانت بعيدة ومقترِنة بالمنطق أكثر من الخيال، لكن الحزن جاء إلى قلب بيتنا الآن، والبشر يبدون لي وحوشًا يتعطَّش كلٌّ منهم لدماء الآخَر. لكني أعرف أن كلامي يخلو من العدل. الجميع اقتنعوا بأن تلك الفتاة المسكينة مذنبة، ولو كانت قد ارتكبَت الجريمة التي عانت بسببها بالفعل، فلا بُدَّ أنها كانت ألعن البشر كافَّةً. أن تَقتُل طِفل راعيها وصديقها من أجل جوهرة، الطِّفل الذي رعته منذ مولده وأحبته كما لو كان ابنها هي! لستُ أوافق على موت أيِّ إنسان، لكني بالتأكيد لا أعتقد أن شخصًا كهذا يصلح للمعيشة بين الناس. لكنها كانت بريئة. أعرفُ هذا وأشعرُ به في خلاياي، وأنت تُشارِكني الرأي، وذلك يُعَضِّد شعوري. يا للأسف يا ڤيكتور! عندما يبدو الزيف كالحقيقة، فمَن يُمكنه أن يطمئن إلى سعادته؟ أشعرُ كأنني أسير على شفا هاويةٍ يحاول الآلاف دفعي إلى الوثوب فيها. ويليام وچستين قُتِلا وقاتلهما يهرب، يمشي على الأرض حُرًّا، وربما يحترمه من حوله. لكن حتى لو كان مصيري أن أموت على المشنقة مدانةً بالجريمة نفسها، فلا يُمكنني تبادُل الأماكن مع حقيرٍ كهذا».

twitter @baghdad_library

استمعتُ إليها في ألم ما بعده ألم، فأنا -بالتأثير وليس الاقتراف- كنتُ القاتل الحقيقي. وقرأت إليزابث الألم في ملامحي، فأمسكت بيدي وقالت:

- «يجب أن تهدأ يا صديقي العزيز. الله وحده يعلم كم أثَّرت فيَّ تلك الأحداث، لكن حالتك أسوأ من حالتي بكثير. ثمَّة تعبير من اليأس، وأحيانًا من رغبة الانتقام، يشوب ملامحك ويجعلني أرتجف. عزيزي ڤيكتور، فلتتخلَّص من هذه المشاعر السوداء، وتذكَّر الأصدقاء الذين يحيطون بك ويبنون آمالهم عليك. هل فقدنا القدرة على إسعادك؟ طالما نحب بعضنا بعضًا ونُداوِم على الإخلاص، طالما نحن هنا في بلادنا الجميلة المسالمة، فسوف نَحصُد ثمار السعادة، فما الذي يُمكنه إزعاجنا؟».

كيف لم تنجح كلمات الإنسانة التي هي أثمن عندي من كلِّ كنوز الدنيا في طرد الشيطان الكامن في قلبي؟

وجدتُ نفسي وهي تتكلَّم أقترب منها في توجُّس، كأنني أخشى أن يظهر المدمِّر في هذه اللحظة بالذات ويسلبني إياها. هكذا لم تنجح رِقَّة الصداقة ولا جمال الأرض أو السماء في محو الكرب من روحي، ومفردات الحب ذاتها كانت بلا تأثير. كنتُ محاطًا بسحابةٍ لا يُمكن لأيِّ عاطفةٍ تبديدها، والغزال الجريح الذي يجر أطرافه المتخاذلة إلى ركنٍ قَصِيّ يَرمُق فيه السهم الذي اخترق جسده ثم يموت كان نسخة مصغَّرة مني.

أحيانًا كنتُ أستطيع التأقلُم مع اليأس الذي يغمرني، لكن في أحيانٍ أخرى كانت مشاعري الدافقة تدفعني، بالتمرين البدني وتغيير الأماكن، إلى البحث عن راحةٍ مما أنا فيه. في نوبةٍ انفعاليَّةٍ كهذه تركتُ منزلي، وقادتني خطاي إلى وديان جبال الألپ القريبة، حيث بحثتُ

في روعة وخلود مناظرها عن نسيان أحزاني البشريَّة الفانية. اتجهتُ صوب وادي شاموني الذي زُرته كثيرًا في صباي. ستة أعوام مرَّت منذ الزيارة الأخيرة صِرتُ فيها حطامًا بشريًّا، لكن لا شيء تبدَّل في تلك المشاهد الجليلة.

قضيتُ الجزء الأول من رحلتي على صهوة حصان، ثم استأجرتُ بغلًا، بما أن البغال واثقة الخطى أكثر وأقل عُرضة للأذى في هذه الطُّرُق الوعرة. كان الجو معتدلًا في مُنتَصَف أغسطس، أي بعد مرور شهرين تقريبًا على إعدام چستين، ذلك الحادث الذي تتابعت من بعده كوارثي. شعرتُ بالحِمل الذي يُثقِل روحي يخف بشكلٍ ملحوظ مع تعمُّقي في وادي نهر آرڤ الصغير. الجبال الشاهقة والجروف التي أحاطت بي من كلِّ جانب، مع صوت مياه النهر الهادرة بين الصخور وتدفُّق مياه الشلالات، كانت تُشَكِّل صورة تتجلَّى فيها القُدرة الإلهيَّة كأعظم ما يكون، وعندها كففتُ عن الخوف والرغبة في الركوع لأيِّ مخلوقٍ أدنى من القدير الذي خلق هذه الأشياء ونظَّمها ها هنا في أرقى صورةٍ لها. مع المزيد من الصعود وجدتُ الوادي يتَّسم بشخصيَّةٍ أقوى وأروع، ورأيتُ أطلال القلاع معلَّقة على حواف الجبال المزدانة بغابات الصنوبر، ونهر آرڤ الهادر، والأكواخ المتناثرة هنا وهناك بين الأشجار تُشكِّل منظرًا ذا جمالٍ لا يُضاهَى. كلُّ هذا كلَّلته جبال الألپ المهيبة بالسُّمُو مع ارتفاع قِمَمِها الثلجيَّة على شكل أهراماتٍ وقبابٍ فوق كلِّ شيء، كأنها تنتمي إلى أرضٍ أخرى، ويَستَعمِرها بَشَرٌ آخَرون.

عبرتُ جسر پليسييه حيث ينفتح الوادي الذي كوَّنه النهر أمامي، وبدأتُ أرتقي الجبل الذي يُظَلِّله، وسرعان ما دخلتُ وادي شاموني الجميل الذي لا يُعادِل رغم ذلك وادي سرڤو الذي عبرته للتو جمالًا. كانت الجبال الثلجيَّة الشاهقة تحيط به مباشرةً، لكني لم أرَ فيه المزيد

twitter @baghdad_library

من القلاع المتهدِّمة أو الحقول الخصبة، وكانت الأنهار الجليديَّة القويَّة قريبة من الطريق، وسمعتُ الرعد المميِّز للانهيار الجليدي، ورأيتُ الدخَّان الذي يشير إلى مكانه. ثم مون بلان.. مون بلان الرائع المهيب الذي ارتقى بنفسه فوق القمم المحيطة، وأطلَّت قِمَّته الهائلة على الوادي.

اعتراني شعور بالبهجة افتقدته منذ زمنٍ طويل خلال هذه الرحلة، وكانت انعطافات الطريق والأشياء الجديدة التي رأيتها وتعرَّفتُ عليها تُذَكِّرني بالأيام الخوالي، واقترنَت بها حيوية الصِّبا الخالية من الهموم. الرياح كانت تهمس بلغاتٍ ساحرة، والطبيعة الأم رجتني ألا أبكي بعد اليوم.

على أن التأثير المُهدِّئ عاد يضعف من جديد، ووجدتُ نفسي مرَّة أخرى مقيَّدًا بالحزن والأفكار السوداء. همزتُ البغل ليمضي قُدُمًا، مكافِحًا لنسيان العالم ومخاوفي، وأكثر من أيِّ شيءٍ آخَر نسيان نفسي، ثم مع تجدُّد اليأس ترجَّلتُ وتمدَّدتُ على العشب والخوف جاثم على صدري.

وصلتُ أخيرًا إلى قرية شاموني، وتغلَّب الإنهاك على الجسد والعقل معًا. لبرهةٍ جلستُ إلى جوار النافذة أراقب البرق الشاحب الذي يتلاعب على قِمَّة مون بلان وأصغي إلى تدفُّق مياه آرف في مجراها الضَّاج بالقُرب مني، وكان لهذا الصوت مفعول تهويدةٍ لطِفلٍ قبل النوم.

وعندما وضعتُ رأسي على الوسادة زحف النوم إلى عينيَّ بسرعة، وشعرتُ به وهو يأتي، فشكرتُ الله على نِعمة النسيان.

الفصل العاشر

قضيتُ اليوم التالي متجوِّلًا في الوادي. وقفتُ عند منابع نهر آرفريون الذي يبدأ بكُتَل جليديَّة تمضي ببطءٍ من قِمَم التلال نحو الوادي لتُغلِقه. جوانب الجبالَ الحادَّة كانت أمامي، والحائط الجليديّ كان يعلوني، ورأيتُ بعض أشجار الصنوبر المكسورة متناثرًا هنا وهناك، والصمت المهيب الذي حفَّ الجلال الذي يرتع في طبيعة المكان لم يكسره سوى صوت المياه الهادرة، أو سقوط قطعة جليدٍ ضخمة، أو صوت الرعد الذي تُصدِره انهيارات وتصدُّعات الثلوج المتراكمة، فيتردَّد صداه بين الجبال. منحتني المناظر السامية المحيطة بي من كلِّ جانبٍ كلَّ ما استطعتُ تلقِّيه من سلوى، وعلَت بي فوق ضيق المشاعر؛ ورغم أنها لم تُزِح حزني عني بالكامل، إلا أنها نجحت في تهدئته وتلطيف وقعه بعض الشيء، وبشكلٍ ما أيضًا استطاعت إبعاد عقلي عن التفكير في الأمور التي سيطرت عليَّه خلال الشهور الأخيرة. كنتُ أستريح ليلًا، تحيط بي المَشاهد التي رأيتها خلال النهار، وتحتشد حولي كلها: قِمَم الجبال الثلجيَّة، والقباب اللامعة، وغابات الصنوبر، والوادي العاري، والنسر المحلِّق بين السُّحُب.. كلها احتشد حولي وتمنَّى لي السلام.

لكن أين فرَّت هذه الأشياء كلها عندما استيقظتُ في اليوم التالي؟ جميعها راح بعد النوم، وظَلَّلَت كآبة مُظلمة كلَّ أفكاري. الأمطار

twitter @baghdad_library

كانت تهطل مدرارًا، وتوارت قِمَم الجبال خلف ضبابٍ كثيف لم أستطِع معه رؤية وجوه هؤلاء الأصدقاء الأقوياء. لكني عزمت على اختراق حجب الضباب والذهاب إليهم في قلب ثكناتهم الغائمة. جيء بالبغل إلى باب الخان، وقرَّرتُ الصعود إلى قمة مونتانيفير. تذكَّرتُ وقع رؤيتي للنهر الجليدي الرائع دائم الحركة على عقلي عندما رأيته للمرَّة الأولى. وقتها ملأني المنظر بالنشوة، ومنح روحي أجنحةً حلَّقتُ بها بعيدًا عن العالم الكئيب إلى عالم من النور والجمال. أعترفُ بأن مَشاهد الطبيعة، البهي منها والقبيح، كانت دائمًا تُهدِّئ عقلي وتجعلني أنسى هموم الحياة. قرَّرتُ الذهاب دون دليل، فقد كان الطريق مألوفًا لي تمامًا، وحضور شخصٍ آخَر كان ليُفسِد هيبة وفخامة المشهد.

طريق الصعود شديد الانحدار، لكنه يحوي منعطفاتٍ مُتتالية تُمَكِّنك من التغلُّب على صعوبة التكوين العمودي لجانب الجبل. المكان مقفر تمامًا، وفي ألف بقعةٍ يُمكنك رؤية آثار انهيارات الجليد، حيث تتناثر الأشجار المكسورة على الأرض؛ بعضها مُدمَّر تمامًا، والبعض الآخَر معوَجٌّ مائلٌ على صخور الجبل الناتئة أو حتى على أشجارٍ أخرى. يتقاطع الطريق كلما ارتفعتُ أكثر مع وديانٍ جليديَّةٍ صغيرةٍ تتساقط عليها الصخور من أعلى باستمرار، وأحد هذه الوديان على وجه الخصوص يتميَّز بالخطر الشديد، إذ يكفي أن يتكلَّم أحدهم بصوتٍ مرتفع ليُحدِث خلخلة هوائيَّة كفيلة بجلب الدمار على رأسه. أشجار الصنوبر ليست طويلة أو خصبة، بل داكنة اللون وتضفي لونًا من الجهامة على المشهد. رمقتُ الوادي أسفلي، ورأيتُ حجب الضباب تتصاعد من الأنهار التي تَشُقُّ مجاريها خلاله وتعقد أناشيطَ سميكة حول الجبال المقابلة التي توارت قِمَمُها بين السُّحُب الكثيفة، بينما ينهمر المطر من السماء المُظلِمة ليزيد وقع كآبة المشهد عليَّ.

عجبًا! لماذا يتباهى الإنسان بأحاسيس تفوق التي لدى الجماد؟ إن هذا يجعل الجماد شيئًا لا غنى عنه؛ ولو كانت نزواتنا تقتصر على الجوع والعطش والجنس فحسب، فلربما نصبح أحرارًا نوعًا، لكن مع كلِّ نسمة ريح تُحَرِّكنا، إذا بنا نهرع للبحث عن كلمةٍ نَصِف بها مشاعرنا.

إذا نمنا، تُسَمِّم الأحلام النوم
وإذا صحونا، تُلَوِّث الأفكار اليوم
نشعر ونلاحظ ونفكِّر، نضحك أو نبكي
نعانق الأمل الوضَّاء، أو بهمومنا نلقي
الأمر سيان، فطريق رحيل مشاعرنا مفتوح
إن كنا نتفجَّر ضحكًا أو كنا ننوح
وطالما يتلو التغيير تغييرٌ من بعده
فيوم الإنسان ليس مثل غده![1]

كانت الظهيرة قد حلَّت عندما وصلتُ إلى القِمَّة. جلستُ لبعض الوقت على الصخرة التي تُطِلُّ على بحر الجليد الذي توارى وراء الضباب مع الجبال المحيطة، لكن تيَّارًا من الهواء سرعان ما بدَّد السحابة، وهبطتُ إلى السطح الجليدي. كان السطح غير مستقرٍّ على الإطلاق، ويتحرَّك كأمواج بحرٍ مضطَّرب، وتتناثر فيه صدوع عميقة. اتساع الحقل الثلجي يبلغ فرسخًا واحدًا تقريبًا، لكنني استغرقتُ ما يقرب من ساعتين في عبوره، أما الجبل المواجِه فهو عبارة عن صخرةٍ عموديَّة جرداء. كانت قمة مونتانيفير تُواجِهني الآن تمامًا في المكان الذي وقفتُ فيه على مسافة فرسخ، وفوقها ارتفع مون بلان في خيلاء. قبعتُ في تجويفٍ في الصخرة أرمقُ المشهد المذهل. كان البحر -أو

(1) من قصيدة «عواطِف مُتبادَلَة» لبرسي شِلي.

twitter @baghdad_library

النهر الجليدي الواسع بمعنى أدق- يدور بين الجبال المحيطة التي تُظَلِّل قِمَمُها الشاهقة مياهه وهي تتألَّق في ضوء الشمس الذي يعتلي السُّحُب البعيدة.

شعرتُ بقلبي الذي عانى ما عانى من الأحزان يختلج الآن بشيءٍ أقرب إلى المرح، ووجدتُ نفسي أهتف:

- «أيتها الأرواح الهائمة، إن كنتِ هائمة بالفعل ولا تستريحين في أَسِرَّتك الضَّيِّقة، فلا تحرميني من لمحة السعادة هذه، وإلا فخذيني رفيقًا لكِ بعيدًا عن مسرَّات الحياة!».

كان هذا عندما رأيتُ فجأة شبح رجلٍ يقترب مني من بعيد بسرعةٍ فوق بشريَّة. كان يتواثب فوق صدوع الجلَيد التي سِرت أنا بينها بمنتهى الحذر، وبدت لي قامته مع اقترابه تتجاوز قامة الإنسان العادي طولًا. ارتبكتُ، وغطَّت غشاوة عينيَّ مع شعورٍ بالدوار اكتنفني، لكني سرعان ما تماسكتُ وأنا أشعرُ بلسعة برد الجبال. وأدركتُ إذ اقترب أكثر أنه المسخ الذي صنعته.. ويا لمنظره الشنيع المقزِّز! ارتجفتُ في خوفٍ وغضب، وقرَّرتُ أن أنتظر حتى يدنو مني بما يكفي لأهاجمه وأنخرط معه في قتالٍ مميت. اقترب بالفعل، ورأيتُ ملامحه تنطق بمرارةٍ مقترنة بالازدراء والحِقد، بينما كان قُبح سحنته أقسى من أن تراه عينٌ بشريَّة. لكني لاحظتُ كلَّ ذلك بالكاد، فالسخط والكراهية منعاني من النطق في البداية، ولم أكد أتمالك نفسي حتى صرختُ غامرًا إياه بكلمات المقت والاحتقار:

- «كيف تجرؤ على الدنو مني أيها الشيطان؟ ألا تخاف قبضة الانتقام التي سأحطِّم بها رأسك؟ ارحل أيها الحشرة الحقيرة، أو ابقَ لأحيلك إلى غبار تذروه الرياح! عندها فقط سيستريح ضحاياك الذين قتلتهم بوحشيَّة في قبورهم بَعد فنائك!».

أجاب المسخ:

- «توقَّعتُ هذا الاستقبال. كلُّ البَشَر يكرهون القبح، فكيف لا يكرهونني أنا الذي أقبح وأكثر بؤسًا من أيِّ كائنٍ حَيّ؟ لكنك يا صانعي تمقتني وتزدريني، أنا مخلوقك الذي أنت مرتبطٌ به بروابط لا يفصمها إلا موت أحدنا. تريد قتلي، لكن كيف تجرؤ على أن تقرن هذا بالحياة؟ قُم بواجبك نحوي، وسأقوم أنا بواجبي نحوك ونحو بقيَّة البَشَر. إذا رضختَ لشروطي، سأتركك وأتركهم في سلام. أما إذا رفضت، فسوف أُتخم معدة الموت بدماء من تبقَّى من أحبَّائك!».

- «أيها الوغد الحقير! عذاب نيران الجحيم لا يكفي ثمنًا لجرائمك. أيها الشيطان! تلومني على صُنعك؟ هَلُمَّ إذن وسأطفئ الشرارة التي أشعلتها بحماقتي».

كان غضبي بلا حدود. انقضضتُ عليه مدفوعًا بالشعور الذي يجعل أيَّ كائنٍ يرغب في حرمان كائنٍ آخَر من حياته، لكنه تملَّص مني في بساطة، وقال:

- «اهدأ! أناشدك أن تسمعني قبل أن تَصُبَّ كراهيتك وغضبك على رأسي. ألم أعانِ كفايةً حتى تزيد من بؤسي؟ إن الحياة عزيزة عليَّ حتى لو كانت كومة من الأحزان، وسوف أدافع عنها؛ ولتتذكَّر أنك جعلتني أقوى منك: قامتي أطول من قامتك، وأطرافي أكثر ليونة. لكني لن أضع نفسي في مواجَهةٍ معك. إنني مخلوقك، وسأكون لطيفًا مُطيعًا لسيِّدي ومليكي الطبيعي إذا قُمت بدورك الذي تدين لي به. فرانكنشتاين، لا تكن عادلًا مع الكلِّ وتتجبَّر عليَّ أنا الذي تدين إليه بعدالتك، بل وبرحمتك وعطفك، أكثر من أيِّ مخلوقٍ آخَر. تذكَّر أنني صنيعتك، وحريٌّ بي أن أكون كآدمَ لك، لكني صِرتُ كإبليسَ الذي حرمته من السعادة دون جريرة. في كلِّ مكانٍ أرى النعيم والهناء، وأنا الوحيد

twitter @baghdad_library

المحروم منهما. كنتُ طيِّبًا وصالحًا، وجعلني البؤس وحشًا. امنحني السعادة وسأعود مستقيمًا من جديد».

- «اغرب عن وجهي! لن أسمعك، فلا توجد فرصة للتواصُل بيننا. إننا عَدُوَّان. ارحل أو لنجرِّب قوَّتنا في قتالٍ سينتهي بسقوط أحدنا لا محالة».

- «كيف أقنعك؟ ألن تفلح التوسُّلات في جعلك تنظر بعين العطف إلى مخلوقك الذي ينشد طيبتك وشفقتك؟ صدِّقني يا فرانكنشتاين، لقد كنتُ صالحًا، وروحي كانت تبرق بالحب والإنسانيَّة، لكنني الآن وحيد في يأسي ونقمتي. إذا كنت أنت يا صانعي تشمئزّ مني، فأيُّ أملٍ لديَّ في بقيَّة البشر الذين لا يدينون لي بشيء؟ إنهم يحتقروننني ويمقتونني، والجبال في الصحارى ونهور الجليد الكئيبة هي ملاذي. لقد هِمْتُ هُنا لأيام طويلة، والكهوف الجليديَّة التي لا تُخيفني هي ملجئي. إنني أحيِّي هذه السماوات الغائمة، لأنها أحن عليَّ من البشر. إذا عرفت جموع البشر بوجودي، لفعلت مثلما تبغي، وتسلَّحت من أجل تدميري، فأنَّى لي بشعورٍ غير الكراهية نحوهم؟ لن أتَّفق على شروطٍ مع أعدائي. إنني بائس، وسيشاركونني جميعًا بؤسي. لكنك تملك القدرة على تعويضي عن عذابي، وعلى حمايتهم من شرٍّ أنت وحدك تملك منعه، فلست وحدك مع عائلتك وأصدقائك الذين سيصطلون بنيرانه، بل آلاف غيركم. لا تجعل مشاعرك تتحجَّر ولا تترفَّع عن الكلام معي. استمع إلى حكايتي، وعندما أنتهي منها يُمكنك أن تهجرني أو ترثى لحالي؛ كما تشاء وكما سترى الجزاء الذي أستحقه. لكن اسمعني على الأقل، فالمذنبون مسموح لهم حسب قوانين الإنسان، ومهما ارتكبوا من فظائع، أن يدافعوا عن أنفسهم قبل إدانتهم. استمع إليَّ يا فرانكنشتاين. إنك تتَّهمني بالقتل، ومع ذلك أراك لا تتردَّد في الرغبة

في تدمير مخلوقك ذاته بضميرٍ مستريح. تحيا عدالة الإنسان! لستُ أطلب منك العفو عني، بل الإصغاء لي، وبعدها يُمكنك إذا أردت، وإذا استطعت، تدمير ما صنعته بيديك».

– «لماذا تستدعي إلى ذاكرتي أحداثًا أرتجف من استرجاعها؟ لماذا تُذَكِّرني بأنني الصانع المأفون؟ ملعونٌ اليوم الذي رأيت فيه النور للمرة الأولى أيها الشيطان! ملعونةٌ اليد التي جمعت أجزاءك! لقد جعلت تعاستي لا توصف بكلمات، ولم تترك لي القُدرة على التفكير إن كنت عادلًا معك أم لا. ارحل! أرحني من منظر سحنتك البشعة!».

– «ها أنا ذا أريحك يا صانعي»، قالها ووضع يديه أمام عينيَّ، فأجفلتُ ودفعتهما عني في عنف، بينما واصل هو:

– «ها أنا ذا أُبعِد عنك منظرًا تمقته، وما زلت لا تستطيع الاستماع لي ومنحي تعاطُفك. بحقِّ الفضائل التي تحلَّيت بها يومًا أطلبُ منك أن تسمعني. استمع إلى حكايتي. إنها طويلة وغريبة، وبرودة هذا المكان لا تُناسِب حالتك. تعالَ معي إلى الكوخ أعلى الجبل. الشمس ما زالت عالية في السماء، وقبل أن تنخفض لتُخفي نفسها وراء قِمَمِكم الجليدية وتضيء عالمًا آخَر ستكون الحكاية قد تَمَّت، ويُمكنك عندها أن تتَّخذ قرارك. مصيري يعتمد عليك أنت، فإما أن أعتزل عالم البشر وأحيا حياةً بلا أذى، أو أصير سوط عذاب إخوتك البشر ومصدر دمارهم».

قالها وبدأ يشق طريقه عبر الثلوج، فتبعته بقلبٍ مفعم بالتساؤلات دون أن أجيبه، لكني وازنت الحجج الكثيرة التيَ قدَّمها، وقرَّرتُ أن أستمع إلى قِصَّته على الأقل. كنتُ أشعر ببعض الفضول في الحقيقة، ونجح شيء من الشفقة شعرتُ به في جعلي أتَّخذ القرار. كنتُ حتى ذلك الحين أعتبره قاتل أخي، وكنت متلهِّفًا للحصول على إجابةٍ بالنفي أو الإثبات منه؛ وللمرَّة الأولى أيضًا شعرتُ بواجبات الصانع

twitter @baghdad_library

نحو صنيعته، وبأنني كنتُ ملزَمًا بإسعاده في البداية قبل أن أشكو من شروره. جعلَتني هذه الدوافع أرضخ لطلبه، وهكذا عبرنا الجليد وصعدنا الصخرة المقابلة.

كان الهواء باردًا، وبدأ المطر ينهمر من جديد، وأخيرًا دخلنا الكوخ؛ المسخُ بملامحِ مبتهِجة، وأنا بقلبٍ مُثقَل وروحٍ مكتئبة. لكنني قرَّرت الاستماعَ إليه عَلى كلِّ حال، وبهذا جلستُ إلى جوار النار التي أشعلها رفيقي الدَّميم، ثم بدأ يروي حكايته.

الفصل الحادي عشر

«بصعوبةٍ بالغة أتذكَّرُ اللحظة التي جِئتُ فيها إلى الوجود، وكلُّ أحداث هذه الفترة تبدو مشوَّشة مرتبكة. استولت عليَّ مجموعة متباينة من المشاعر، ورأيتُ وسمعتُ وشممتُ وشعرتُ في الآن ذاته، وبالطبع مَرَّ وقت طويل قبل أن أستطيع التمييز بين حواسِّي المختلفة. بشكلٍ ما أذكرُ ضوءًا قويًّا ضغط على أعصابي، حتى إنه أجبرني على إغلاقِ عينيَّ. ثم جاء الظلام وأربكني، لكن ذلك الشعور لم يَدُم طويلًا، إذ فتحتُ عينيَّ من جديد، وعاد الضوء ينصب عليَّ من جديد. سِرتُ، وأعتقدُ أنني نزلتُ، لكنني وجدتُ في النهاية تغييرًا عظيمًا في إدراكي للموجودات حولي. كانت الجُثَثُ الهامدة تحيط بي من قبل، لا تتأثَّر بلمستي أو نظرتي، لكني وجدتُ الآن أنني أستطيع الحركة في حرِّيَّة ومن دون عوائقٍ أتغلَّب عليها أو حتى أتجنَّبها. أصبح الضوء ثقيل الوطأة عليَّ أكثر فأكثر، وأصابتني الحرارة بالتعب وأنا أمشي، فالتمستُ مكانًا أجد فيه ظِلًّا. كانت هذه هي الغابة القريبة من إنجولشتادت، وهناك استلقيتُ بالقُرب من غديرٍ جارٍ لأستريح من إرهاقي، حتى شعرتُ بعذاب الجوع والظمأ. أيقظني هذا من حالة السكون التام التي كنتُ عليها، والتهمتُ بعض ثمار التوت التي وجدتها متدلية من الأشجار

twitter @baghdad_library

أو واقعة على الأرض. أطفأتُ عطشي من الغدير، ومع استلقائي من جديد غلبني النوم.

كانت الدنيا مظلمة عندما استيقظتُ، وشعرتُ أيضًا بالبرد وبشيءٍ من الخوف الغريزي مع اكتشافي لوحدتي التامَّة. قبل أن أغادر مسكنك، ومع شعوري بالبرد، كنتُ قد غطَّيتُ نفسي ببعض الثياب، لكنها لم تكن كافية لحمايتي من برودة الليل. كنتُ كائنًا مسكينًا بلا حيلة، لا يعرف أو يميِّز شيئًا، ومع إحساسي بالبرد يغزو جوانبي كلها، جلستُ وبكيتُ.

بعد قليل انساب ضوء هادئ من السماء ومنحني شعورًا بالسرور. رفعتُ ناظريَّ إلى أعلى، ورأيتُ قُرصًا أبيض مضيئًا يرتفع من بين الأشجار. تطلَّعتُ إليه في حيرة. كان يتحرَّك ببطءٍ شديد، لكنه كان ينير طريقي، ومن جديد عُدتُ أبحث عن ثمار التوت. كنتُ لا أزال أشعر بالبرد عندما عثرتُ تحت شجرةٍ على عباءةٍ كبيرة، فغطَّيتُ نفسي بها وجلستُ على الأرض. لم تحتل عقلي أفكار بعينها، وكلُّ شيءٍ كان مشوَّشًا. شعرتُ بالضوء والجوع والعطش والظُّلمة، وتناهت إلى مسامعي أصوات لا تُحصى، ومن كلِّ جهةٍ نفذت إلى أنفي روائح شتَّى، لكن الشيء الوحيد الذي استطعتُ تمييزه هو القمر الوضَّاء الذي ظللت أحدِّق فيه بسرور.

أيامٌ وليالٍ عديدة مرَّت، وبدأت وحشة الليل تقل عندما بدأت التمييز بين حواسِّي. بدأتُ أرى بوضوح الجدول الصافي الذي زوَّدني بالشراب، والأشجار التي ظلَّلتني بأوراقها، وشعرتُ بالفرح عندما اكتشفتُ أن الصوت الجميل الذي كثيرًا ما حيَّا أذنيَّ كان يجيء من حناجر حيواناتٍ مجنَّحةٍ صغيرةٍ كانت تقطع الضوء عن عينيَّ بين الحين والآخَر. بدأتُ أيضًا بإمعانٍ شديد ملاحَظة أشكال الأشياء المحيطة

بي، وإدراك حدود السَّقف المنير الذي يعلوني. حاولتُ أحيانًا تقليد أصوات الطيور الجميلة، لكني لم أستطِع، وأحيانًا تمنَّيتُ لو استطعت التعبير عن مشاعري بأسلوبي، لكن الأصوات الخشنة التي صدرت مني أخافتني ودفعتني إلى العودة لصمتي مجدَّدًا.

اختفى القمر من الليل، ثم إنه من جديد، وقد بدا أصغر حجمًا، عاد يظهر، بينما ظللتُ كما أنا في الغابة. أصبحَت مشاعري في ذلك الوقت واضحة، وكان عقلي يستقبل أفكارًا جديدة كلَّ يوم. اعتادت عيناي على الضوء وتمكَّنتا من إدراك الأشياء بأشكالها الحقيقيَّة، وبدأتُ أميِّز بين الحشرات والأعشاب، وتدريجيًّا بدأتُ أستطيع التمييز بين عُشبٍ وآخَر. عرفتُ أن العصفور لا يُخرِج إلا نغماتٍ خشنة، فيما كانت أصوات الشحرور والسُّمّان جميلة الوقع على الأذن.

عثرتُ ذات يومٍ والبرد القارص يؤلمني على نارٍ تركها بعض المتشرِّدين، وغمرنيَ إحساس بالراحة نابع من الدِّفء الذي وجدته فيها، ومن فرط سعادتي مددتُ يدي إلى الجمار المحترقة، لكني سحبتها في الحال مطلقًا صرخة ألم. خطر لي أنه من الغريب للغاية أن يكون لعنصرٍ واحدٍ تأثيرات متباينة! فحصتُ مكوِّنات النار، ولسعادتي وجدتُ منشأها الخشب، فجمعتُ بعض الفروع بسرعة، لكنها كانت مبتلَّة ولم تحترق. آلمني هذا، وجلستُ أراقب الحريق الصغير، لكن الخشب المبتل الذي وضعته إلى جوار النار جفَّ، وسرعان ما اشتعل بدوره. فكَّرتُ في هذا، وأخذتُ ألمس الفروع الكثيرة، وعندها اكتشفتُ السبب، وشغلتُ نفسي بجمع كمِّيَّةٍ ضخمةٍ من الأخشاب لأجفِّفها، فتُصبِح عندي ذخيرة من النار. عندما جاء الليل جالبًا معه النوم شعرتُ بخوفٍ شديد خشية أن تنطفئ ناري، فغطَّيتها في حذرٍ

twitter @baghdad_library

بالخشب الجاف وأوراق الشجر، ووضعتُ على هذا فروعًا مبتلَّة، ثم فردتُ عباءتي وغِبتُ في نوم عميق.

استيقظتُ في الصباح التالي، وأول شيءٍ فعلته هو تفقُّد النار. كشفتها، وهَبَّ تيار هواءٍ قوي جعلها تتأجَّج. لاحظتُ هذا أيضًا، وصنعتُ مروحة من الفروع نجحَت في تجديد اللهب في الجمار عندما يوشك على الانطفاء. عندما جاء الليل مجدَّدًا لاحظتُ بسرورٍ أن النار كانت تشع ضوءً مع الحرارة، وأن اكتشافي لهذا العنصر كان مفيدًا لي في طعامي، لأنني وجدت أن بعض فضلات اللحم التي تركها المسافرون قد شُوِيَت، وكان طعمها ألذَّ من التوت الذي جمعته من الأشجار. هكذا حاولتُ شَيَّ طعامي كله بالطريقة ذاتها بوضعه على الجمرات، لكني وجدتُ أن هذا قد أفسد التوت، فيما منح حبَّات الجوز والجذور طعمًا شهيًّا.

لكن الطعام صار قليلًا، وأصبحتُ كثيرًا ما أمضي اليوم كاملًا في البحث عن ثمارٍ قليلة تُلَطِّف من قرصة الجوع. قرَّرتُ ترك المكان الذي سكنته حتى الآن والبحث عن مكانٍ آخَر يُمكنني فيه العثور على احتياجاتي القليلة بشيءٍ من اليُسر. في هذه الهِجرة حزنتُ كثيرًا على فقدان النار التي حصلتُ عليها بالصدفة البحتة دون أن أدري كيف أعيد إشعالها. قضيتُ ساعاتٍ طويلة في تفكيرٍ عميق لحلٍّ لهذه المشكلة، لكنني في النهاية تخلَّيتُ عن كلِّ نِيَّةٍ لإعادة إشعال النار، ومن ثم لففتُ نفسي بالعباءة ومضيتُ نحو الشمس الغاربة. قضيتُ ثلاثة أيام متجوِّلًا، وفي النهاية اكتشفتُ الرِّيف المفتوح. كان الثلج قد تساقط بغزارةٍ خلال الليلة السابقة، وتدثَّرَت الحقول كلها بثوبٍ ناصعٍ واحد. كان منظرًا يثير الأسى، وشعرتُ بقدميَّ تعانيان من برودة العنصر الذي غطَّى الأرض.

كانت الساعة السابعة صباحًا تقريبًا، وكنتُ أتوق للعثور على طعامٍ

ومأوى. في النهاية شاهدتُ كوخًا صغيرًا يقع على أرضٍ مرتفعة، وخمَّنتُ أنه مبنيّ ليناسب أحد الرُّعاة. كان مشهدًا جديدًا عليَّ، وأخذتُ أفحص البناء بفضولٍ بالغ. دخلتُ إذ وجدتُ الباب مفتوحًا، ووجدتُ رجلًا هَرِمًا هناك يجلس بالقُرب من النار التي يعد عليها طعام إفطاره. التفت إذ سمعني أدخل، وما إن رآني حتى أطلق صرخة مريعة، وأسرع خارجًا من الكوخ وجاريًا في الحقول بسرعةٍ تفوق بنيته الضئيلة بمراحل. أدهشني مظهره المختلف عن أيِّ شيءٍ رأيته من قبل، كما فاجأني فراره، لكني كنتُ مفتونًا بمظهر الكوخ، فالثلج والمطر لا يُمكنهما الدخول إلى هنا والأرض جافَّة، فكان المكان لي وقتها بمثابة ملجأٍ ممتاز كما بدا الجحيم للشياطين بعد عذابهم الطويل في بحيرة النيران[1]. التهمتُ بقايا إفطار الراعي بشراهة، والذي كان يتكوَّن من الخبز والجبن والحليب والنبيذ، لكني لم أستسِغ طعم الأخير. غلبني الإرهاق بعدها، فتمدَّدتُ بين أكوام القَشِّ وغِبتُ في النوم.

استيقظتُ في الظهيرة، وأغراني ضوء الشمس الذي تألَّق على الأرض البيضاء بأن أواصل ارتحالي. وضعتُ بقايا طعام الفلَّاح في حقيبةٍ جلديَّة وجدتها هناك، وواصلتُ السير عبر الحقول لساعاتٍ عدَّة، حتى وصلتُ إلى قريةٍ ما مع مغيب الشمس، ولكم بدا المنظر رائعًا! السقائف والأكواخ والمنازل الكبيرة جذبت انتباهي وأثارت إعجابي الشديد، وسال لعابي مع رؤيتي للخضروات في الحدائق والجبن والحليب اللذين رأيتهما في نوافذ بعض الأكواخ. دخلتُ واحدًا من أفضل هذه الأكواخ، لكنني لم أكد أخطو خطوة واحدة بالداخل حتى صرخ الأطفال في رُعب، وفقدت إحدى النساء وعيها. انقلبت القرية

---

(1) من «الفردوس المفقود» لجون ميلتون.

twitter @baghdad_library

كلها. بعض السكان لاذ بالفرار، وبعضهم هاجمني، حتى أصابتني الأحجار الملقاة، وغيرها من الأسلحة المقذوفة، بالألم، ففررتُ إلى الرِّيف المفتوح، ولُذتُ في خوفٍ بزريبةٍ واطئةٍ عاريةٍ تمامًا من الأثاث، ومظهرها شنيع مقارنةً بالأماكن التي رأيتها في القرية. الزريبة على كلِّ حالٍ كانت تابعة لكوخ حَسَن المظهر والبناء، لكني لم أجرؤ على دخوله بعد تجربتي القاسية في القرية. كان المكان الذي اندسستُ فيه مبنيًّا من الخشب، لكنه كان شديد الانخفاض، بحيث استطعتُ الجلوس فيه معتدِلًا بصعوبة، ولم تكن الأرضيَّة مكوَّنة من الأخشاب، لكنها كانت جافَّة؛ ورغم أن الرياح كانت تدخل من شقوقٍ بلا حصر، إلا أنني وجدته مأوىً مناسبًا من المطر والرياح.

هكذا استقررتُ هناك، واستلقيتُ في مكاني شاعرًا بالرِّضا لعثوري على مأوى -حتى لو كان حقيرًا- يحميني من برودة الجو، والأهَمّ، يحميني من همجيَّة الإنسان. بمجرَّد أن جاء النهار، زحفتُ خارجًا لألقي نظرةً على الكوخ المجاور وأعرف إن كان يُمكنني البقاء في المسكن الذي وجدته. كان ملاصقًا لمؤخِّرة الكوخ، ومحاطًا من جوانبه المكشوفة بحظيرة خنازير وبِركة من الماء النظيف. جزء واحد كان مفتوحًا، ومنه استطعت الزحف إلى الداخل، لكنني غطَّيت كلَّ شِقٍّ يُمكن رؤيتي عبره بالحجارة والأخشاب، لكن بطريقة تُمكِّنني من إزاحتها للخروج، فكلُّ الضوء الذي نعمتُ به كان يأتيني عبر الشقوق المنتشرة في الحظيرة، وكان ذلك يكفيني على كلِّ حال.

استرحتُ بعد أن رتَّبتُ مكان إقامتي وكسوتُ أرضيَّته بالقَشِّ النظيف. رأيتُ شبح رجلٍ يقترب من بعيد، وتذكَّرتُ بوضوح المعامَلة التي تلقيتها على يد بني البَشَر في الليلة السابقة، وكان هذا كافيًا كي لا أأتمنهم على نفسي. كنتُ أولًا قد زوَّدتُ نفسي بحصيلة اليوم من

الطعام برغيفٍ مسروقٍ من الخبز الخشن، وكوبٍ يُمكنني الشُّرب منه بطريقةٍ أنسب من استخدامي ليدي للحصول على الماء من بِركة الماء المارَّة إلى جوار مهجعي. الأرضيَّة كانت مرتفعة المستوى قليلًا، لهذا كانت جافَّة دائمًا، وجعلها قُربها من مدخنة الكوخ دافئة تمامًا.

قرَّرتُ المكوث في هذه الزريبة حتى يحدث شيء يجعلني أعدل عن قراري. كان المكان جنَّة مقارنةً بالغابة المفتوحة بفروعها التي تتساقط منها مياه المطر وأرضها شديدة الرطوبة. التهمتُ إفطاري في سرور، وكنتُ على وشك إزاحة لوح خشبي لأزوِّد نفسي ببعض الماء، عندما سمعتُ صوت خطوات. نظَرتُ عبر شِق، فرأيتُ مخلوقة صغيرة تحمل دلوًا على رأسها وتمر أمام زريبتي. كانت فتاة صغيرة رقيقة السلوك، على العكس من سكان الأكواخ وخدم المَزارع الذين رأيتهم بعدها. لكن ملابسها كانت فقيرة للغاية، ولم تتعدَّ تنورة زرقاء خشنة وسترة من الكتَّان. شَعرها الناعم كان مضفَّرًا لكن من دون زينة، وجمعت ملامحها بين الصبر والحزن. غابت عن بصري، لكنها عادت بعد رُبع الساعة تقريبًا حاملةً الدلو الذي امتلأ جزئيًّا الآن بالحليب. أثناء سيرها، وثقل الدلو بادٍ على ملامحها، التقى بها شاب تحمل ملامحه قنوطًا أعمق. سمعته يُصدِر بعض الأصوات عابسة النغمات، ثم رأيته يُنزِل الدلو عن رأسها ويحمله بنفسه إلى الكوخ، وتبعته هي واختفيا هناك. بعد قليل رأيتُ الشاب مرَّة أخرى يعبر الحقل الواقع خلف الكوخ وهو يحمل بعض الأدوات، ورأيتُ الفتاة أيضًا مشغولة، أحيانًا داخل المنزل، وأحيانًا في الفِناء.

مع فحصي لمكان إقامتي وجدتُ أن إحدى نوافذ الكوخ كانت جزءًا منه في وقتٍ سابق، لكن فراغها قد سُدَّ بالخشب، وبين لوحين من الألواح وجدتُ شِقًّا صغيرًا للغاية يُمكن للبصر النفاذ منه إلى

twitter @baghdad_library

الداخل. رأيتُ عبر هذا الشِّق بوضوح غُرفة صغيرة مطليَّة ونظيفة، لكن الأثاث فيها قليل للغاية. في أحد الأركان بالقُرب من جذوة نارٍ صغيرة جلس رجل هَرِم يتكئ برأسه على يديه في حزنٍ جلي. كانت الفتاة الصغيرة مشغولة بترتيب الكوخ، لكنها بعد قليل فتحت دُرجًا وأخذت منه شيئًا ما بحجم يديها، وجلست إلى جوار الشَّيخ الذي أخذ منها الشيء، وبدأ يُطلِق منه أصواتًا أعذب من صوت العندليب. كان منظرًا جميلًا، حتى بالنسبة لبائس مثلي لم يسبق له أن رأى شيئًا جميلًا قَطُّ. ثار في قلبي توقير لساكن الكوخ الشَّيخ بشَعره الفِضِّي وملامحه الطيِّبة، بينما تحرَّكت مشاعري بسلوك الفتاة الرقيق. عزف الرجل نغمة حزينة جميلة سالت لها الدموع من عيني رفيقته الصغيرة، الشيء الذي لم يُلاحِظه الشَّيخ حتى انتحبت الفتاة بصوتٍ مسموع. عندها أصدر الشَّيخ بعض الأصوات، ورأيتُ المخلوقة الجميلة تنحني على قدميه، لكنه رفعها وابتسم بطيبة وودٍّ من طرازٍ خاص للغاية. حملت ابتسامته مزيجًا من الألم والسرور لم أختبره من قبل قَطُّ، سواءً من الجوع أو البرد أو الدفء أو الطعام، وتراجعتُ عن النافذة غير قادرٍ على احتمال هذه المشاعر.

بعد قليل عاد الشاب حاملًا على كتفيه حفنة من الأخشاب. قابلته الفتاة عند الباب، وساعدته على التخفُّف من حمله، ثم أخذت بعض الأخشاب ووضعتها في النار. بعدها اتجهت مع الشاب إلى أحد أركان الكوخ، حيث أراها رغيف خبزٍ كبيرًا وقطعة من الجبن. بدت مسرورة، وعادت إلى الحديقة لتُحضِر بعض الجذور والنباتات وضعَتها في بعض الماء، ثم وضعَت الماء على النار. عادت الفتاة بعدها إلى عملها، بينما خرج الشاب إلى الحديقة، وانشغل في الحَفر ونزع الجذور. وبعد ساعةٍ على هذا المنوال انضمَّت إليه الفتاة، وبعد فترة دخلا الكوخ معًا.

كان الرجل مستغرِقًا في تفكيرٍ عميق في هذه الأثناء، لكن أساريره تهلَّلت مع دخول رفيقيه إلى الكوخ، وجلس الثلاثة معًا يأكلون، ولم تستغرِق الوجبة وقتًا طويلًا. عادت الفتاة تشغل نفسها بترتيب الكوخ، بينما خرج الشَّيخ ليتجوَّل أمامه في الشمس بعض الوقت وهو متكئ على ذراع الشاب. لا شيء كان بإمكانه التفوُّق على الجمال البادي في تبايُن هاذين المخلوقين الرائعين: أحدهما شيخ فِضِّي الشَّعر تحمل ملامحه طيبة بلا حدود، والآخَر نحيل رشيق ملامحه في غاية التناسُق، لكن عينيه وأسلوبه شابهما حزن وقنوط واضحان. عاد الشَّيخ إلى الكوخ، بينما حمل الشاب أدواتٍ تختلف عن التي استخدمها في الصباح، واتَّجه صوب الحقول.

جاء الليل سريعًا، لكن لدهشتي الشديدة وجدتُ أن ساكني الكوخ لديهم وسيلة للحفاظ على الضوء باستخدام فتائل مطليَّة بالشمع، وأسعدني أن غروب الشمس لم يضع نهايةً للسرور الذي يُراوِدني مع مراقبتي لجيراني البشريين. انشغلت الفتاة والشاب في المساء بأعمالٍ لم أفهمها، بينما أمسك الشَّيخ من جديد بالأداة التي تُصدِر الأصوات الجميلة التي سحرَتني في الصباح، وبعد أن انتهى بدأ الشاب، ليس في العزف، بل في لفظ أصواتٍ رتيبة لا تُشبِه الأصوات الصادرة من أداة الشَّيخ أو من حناجر الطيور. عرفتُ بعدَها أنه كان يقرأ بصوتٍ عالٍ، لكني لم أكن أعرف شيئًا وقتها عن عِلم الكلمات والحروف.

ثم أطفأت العائلة النور بعد قضاء بعض الوقت على هذه الحال، وخلد أفرادها -كما خمَّنت- إلى النوم».

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني عشر

«تمدَّدتُ على القَش، لكني لم أستطِع النوم. تأمَّلتُ أحداث اليوم، وكان أكثر ما شغل بالي هو تصرُّفات هؤلاء القوم الدَّمِثة، وتمنَّيتُ الانضمام إليهم، وإن لم تُواتِني الشجاعة. تذكَّرتُ بوضوح المعامَلة التي تلقَّيتها في الليلة السابقة على يد القرويين الهمج، وقررتُ -أيًّا كان التصرف الذي سأراه صوابًا فيما بعد- أن أظلَّ في زريبتي هادئًا في الوقت الحالي لأراقِب وأحاوِل اكتشاف الدوافع وراء تصرُّفات أهل الكوخ.

استيقظ جيراني في اليوم التالي قبل شروق الشمس. رتَّبت الفتاة الكوخ وأعدَّت الطعام، بينما رحل الشاب بعد الوجبة الأولى. مضى اليوم على الوتيرة نفسها التي انقضى عليها سابقه: الشاب كان مشغولًا في الخارج معظم الوقت، والفتاة مشغولة في الداخل بأشياءَ مختلفة، أما الشَّيخ -الذي أدركتُ أنه كفيف- فقد أمضى ساعات الفراغ في العزف على أداته أو في التأمُّل. لا شيء كان يفوق الحب والاحترام اللذين لاقاهما الشَّيخ على يد رفيقيه الأصغر، فكانا يقومان بواجباتهما نحوه بكلِّ حبٍّ ومودَّة، وكان يُكافِئهما بابتسامته الطيِّبة.

لكنهم لم يكونوا سعداءَ بشكلٍ مطلَق. كان الشاب والفتاة كثيرًا ما ينتحي كلٌّ منهما جانبًا ليبكي في صمت. لم أرَ سببًا لهذه التعاسة،

لكنها أثَّرت فيَّ بعُمق. إن كانت مخلوقات ممتازة كهذه تعيسة، فليس من الغريب -إذن- أن يعاني كائن وحيد منبوذ مثلي من الحزن. لكن لماذا كانت هذه المخلوقات الجميلة تعيسة؟ كانوا يملكون بيتًا جميلًا -أو هكذا بدا في نظري- وجميع وسائل الترف. لديهم نار تُدَفِّئهم عند البرد، أطعمة شهيَّة عند الجوع، ملابس تقيهم العُري؛ والأهم أنهم كانوا يستمتعون بصُحبة وأحاديث بعضهم البعض، يتبادلون كلَّ يوم نظرات الحب والمودَّة، فما سبب دموعهم إذن؟ لم أتمكَّن من إجابةً ذلك السؤال في بادئ الأمر، لكن المراقَبة المستمرَّة والوقت فسَّرا لي أشياءَ كانت مُلغَّزة من قبل.

انقضت فترة طويلة قبل أن أكتشف أحد أسباب حزن هذه العائلة الرائعة. السبب كان الفقر، وكانوا يعانون من شرِّه بأسوأ صورةٍ ممكنة. طعامهم كان يتكوَّن بالكامل من خضروات حديقتهم وحليب بقرة واحدة لا تمنح سوى النَّزر اليسير منه أثناء الشتاء، عندما يستطيع أصحابها بالكاد توفير طعام يكفيها. أعتقدُ أنهم كثيرًا ما عانوا مرارة الجوع، خصوصًا الشاب والفتاة، لأنهما في أحيانٍ كثيرة كانا يضعان الطعام أمام الشَّيخ دون أن يأكل أيهما شيئًا.

أثَّرت لفتة الشهامة هذه فيَّ كثيرًا، إذ كنتُ معتادًا خلال الليل على سرقة جزءٍ من مؤونتهم من أجل طعامي الخاص، لكنني عندما اكتشفتُ أنني بهذا أزيد من حزن أهل الكوخ الطيبين، امتنعتُ ورضيتُ بالتهام ثمار التوت والجوز والجذور التي كنتُ أجمعها من الغابة القريبة. اكتشفتُ أيضًا طريقة أخرى يُمكنني بها مساعدتهم في جهودهم، فقد عرفتُ أن الشاب يقضي فترة طويلة من اليوم في جمع الأخشاب من أجل النار، فأصبحتُ خلال الليل آخذ أدواته، التي تعلمتُ كيف أستخدمها سريعًا، وأحضرُ إليهم ما يكفي لإشعال النار لأيامٍ طويلة.

twitter @baghdad_library

أذكرُ أنه في المرَّة الأولى التي فعلتُ فيها هذا أصيبت الفتاة بدهشةٍ عظيمة عندما فتحت الباب في الصباح التالي ووجدت كومة كبيرة من الأخشاب أمام الدار. قالت شيئًا ما بصوتٍ عالٍ، فانضمَّ إليها الشاب الذي أبدى دهشته الشديدة بدوره. سُرِرتُ لمَّا رأيتُ أنه لم يذهب إلى الغابة في ذلك اليوم، بل قضاه في إصلاح الكوخ وحرث الحديقة.

تدريجيًّا توصَّلتُ إلى اكتشافٍ آخَر أكثر أهميَّة. لاحظتُ أن هؤلاء الناس لديهم طريقة يتناقلون بها خبراتهم ومشاعرهم فيما بينهم عن طريق الأصوات المنطوقة، وأدركتُ أن الكلمات التي يستخدمونها لها وقع الحزن أو الفرح أو الابتسام أو العبوس على عقول وملامح السامعين. كان عِلمًا إلهيًّا بالفعل، وكنتُ أتحرَّق شوقًا للإلمام به، لكن جميع محاولاتي شابها التخبُّط، فنُطقهم للكلمات كان سريعًا، والكلمات نفسها التي ليس لها علاقة واضحة بالأشياء حولي كانت عسيرة على الفهم، وعلى إيجاد أيِّ رابطٍ بينها وبين أيِّ شيءٍ يكشف غموضها. لكنني مع الانتباه الشديد، ومع بقائي في زريبتي طوال دوراتٍ كثيرة للقمر، تعلَّمتُ الأسماء الممنوحة لبعض أكثر الأشياء المألوفة والمذكورة في المحادَثات. تعلَّمتُ كلماتٍ مثل النار، الحليب، الخبز، الخشب، وتعلَّمت أسماء أهل الكوخ أنفسهم. الشاب والفتاة كان لهما أسماء مختلفة، لكن الشَّيخ كان له اسم واحد هو أبي، بينما الفتاة كانت تُنادى بأختاه أو أجاثا، والشاب بفيلكس أو أخي أو يا بُني. لا يُمكنني وصف السعادة التي شعرتُ بها مع تعلُّمي للأفكار الملازِمة لكلِّ صوتٍ من هذه الأصوات، وتمكُّني من نُطقها أيضًا. استطعتُ أيضًا تمييز كلماتٍ أخرى كثيرة دون حتى أن أتمكَّن من فهمها أو تطبيقها بعد، مثل جميل وعزيز وحزين.

قضيتُ الشتاء على هذا المنوال، وحُسن تصرُّفات سكان الكوخ

الرقيقة جعلهم أعزاءً عليَّ جدًّا. كنتُ أشعر بالاكتئاب عندما كانوا يحزنون، وبالسرور عند سعادتهم. لا بُدَّ بالطبع من أنني رأيتُ أناسًا آخَرين غيرهم، وإذا تصادف أن دخل أحدهم الكوخ كانت تصرُّفاته الفَظَّة وكلماته الوقحة تجعلاني أتشبَّث أكثر بكياسة أصدقائي. رأيتُ أيضًا أن الشَّيخ كثيرًا ما كان يُشَجِّع طِفليه -كما سمعته يناديهما عِدَّة مرات- على نبذ كآبتهما، وكان يتحدَّث إليهما بنبرةٍ مرحة وأصواتٍ طيِّبة كانت تثير بداخلي مشاعر البهجة. كانت أجاثا تستمع إليه باحترام، وأحيانًا تمتلئ عيناها بالدموع، فتحاول تجفيفها سريعًا، لكني لاحظتُ بشكلٍ عام أن ملامحها ونبرتها تتغيَّر إلى الأفضل بعد استماعها لنصائح أبيها. الحال لم تكن هكذا مع فيلكس الذي بدا دائمًا أكثر الثلاثة حزنًا، وحتى بالنسبة لحواسِّي غير الخبيرة كان من الجلي أنه يعاني أكثر من أبيه وأخته. لكن إذا كانت ملامحه أكثر حزنًا، فإن صوته كان أكثر بشاشةً من أخته، خصوصًا عندما يُحَدِّث والده.

يُمكنني الإتيان على ذِكر لحظاتٍ لا تُحصى كانت -رغم أنها عابرة- تُبرِز الطبيعة الرقيقة لأهل الكوخ. في خِضَمِّ الفقر والعوز كان فيلكس يحمل إلى أخته أول زهرة بيضاء نبتت من الأرضِ الثلجيَّة، وفي الصباح الباكر قبل استيقاظها كان يجرف الثلج الذي يُغَطِّي طريقها إلى حيث تحلب البقرة الوحيدة، ويُخرِج الماء من البئر ويُحضِر الأخشاب من الخارج، حيث -لدهشته الدائمة- يجد يدًا خفية جاءت بالمزيد منها. أعتقدُ أنه كان يعمل نهارًا لحساب جارٍ مُزارع، لأنه كان كثيرًا ما يختفي ولا يعود قبل الغداء دون أن يحمل خشبًا معه. في أحيانٍ أخرى كان يعمل في الحديقة، لكن مع قِلَّة ما يُمكنه فِعله فيها في الفصل شديد البرودة كان يقرأ للشَّيخ وأجاثا.

حيَّرتني هذه القراءة بشِدَّةٍ في البداية، لكني اكتشفتُ تدريجيًّا أن

twitter @baghdad_library

الأصوات التي يلفظها وهو يقرأ هي ذاتها التي تخرج منه وهو يتكلَّم، وهكذا خمَّنتُ أنه يجد في الأوراق علامات كلام يفهمها، وتشوَّقتُ لأن أفهم هذه العلامات أيضًا. لكن كيف يُمكن ذلك وأنا لا أفهم حتى معنى الأصوات التي تُقابِل هذه العلامات؟ الواقع أنني تحسَّنتُ في هذا العِلم، لكن ليس بما يكفي لمتابَعةٍ وملاحَظةٍ كاملة، رغم أنني كرَّست عقلي كله لهذا الهدف، لأنني أدركت بسهولة أنه على الرغم من رغبتي الشديدة في الكشف عن نفسي لأهل الكوخ، فلا يَجدُر بي أن أحاول هذا قبل أن أتقن لُغتهم، والتي قد تجعلهم معرفتي بها يتغاضون عن بشاعة خلقتي التي أدركتها جيدًا من التبايُن الواضح لعينيَّ.

كنت معجبًا للغاية بهيئة جيراني، بجمال ملامحهم ونعومة بشرتهم، لكن كم أصابني الهلع عندما نظرتُ إلى نفسي في بِركةٍ شفَّافة! تراجعتُ إلى الخلف في البداية، غير قادرٍ على تصديق أن هذا هو انعكاسي بالفعل في المرآة، وعندما اقتنعتُ تمامًا بأنني هذا الوحش بالفعل امتلأ صدري بأقسى مشاعر القنوط والخزي. يا للخسارة! لم أكن أعرف بعد التأثير اللعين لهذا التشوُّه البغيض.

بدأ الثلج يختفي مع ازدياد دِفء الشمس وطول فترة ضوء النهار، ورأيتُ الأشجار العارية والأرض السوداء. ازدادت مشاغل فيلكس في هذا الوقت، فيما اختفت تهديدات المجاعة. كان طعامهم، كما اكتشفتُ لاحقًا، رديئًا لكن مفيدًا، وكانوا يُخَزِّنون كميَّة مناسبة منه. نبتت أنواع جديدة كثيرة من النباتات في الحديقة، وازدادت علامات الراحة بشكلٍ يومي في الفصل الجديد.

كان الشَّيخ يتكئ على ابنه يوميًّا في الظهيرة ليتمشَّى عندما لا يهطل

المطر، وهذا هو الاسم الذي تعلَّمته لنزول الماء من السماء. كان هذا يحدث كثيرًا، لكن الرياح كانت تُجَفِّف الأرض سريعًا، وأصبح فصل الربيع أجمل كثيرًا مما كان.

وتيرة حياتي في الزريبة كانت منتظمة. أتابِعُ نهارًا تحرُّكات سكَّان الكوخ، وأنامُ عندما ينشغل كلٌّ منهم بعمله، وأمضي بقيَّة اليوم في مراقبة أصدقائي. عندما ينامون، وإذا كان القمر ساطعًا أو ضوء النجوم واضحًا، أذهبُ إلى الغابة لأجمعِ طعامي والأخشاب، وعندما أعود، وكلما كان هذا ضروريًّا، كنتُ أنظِّف طريقهم من الثلج وأقوم بالواجبات التي رأيتُ فيلكس يؤدِّيها. عرفتُ أن تلك الجهود التي يقوم بها مجهول أدهشتهم كثيرًا، وفي مرَّةٍ أو مرَّتين سمعتهم ينطقون في تلك المناسبات كلماتٍ مِثل «روح طيِّبة»، لكني لم أُدرِك وقتها أهميَّة تلك المصطلحات.

أصبحَت أفكاري أكثر نشاطًا، وتُقتُ لاكتشاف أفكار ومشاعر هذه الكائنات الرائعة، واشتعلتُ فضولًا لمعرفة السبب وراء بؤس فيلكس وحزن أجاثا. خطر لي -لحماقتي!- أنني أستطيع إسعاد هذه الكائنات التي تستحق السعادة بحق، وعندما أنام كانت وجوه الأب الكفيف الجليل وأجاثا الرقيقة وفيلكس الباسل لا تُفارِقني. نظرتُ إليهم على أنهم مخلوقات أرقى يُمكنها التحكُّم في مُستَقبَلي، وكوَّنتُ في مخيِّلتي آلاف الصُّور للطريقة التي أُقدِّم نفسي إليهم بها واستقبالهم لي. تخيَّلتُ أنهم سيصابون بالاشمئزاز، ثم أستميلُ عطفهم بسلوكي المهذَّب وكلماتي الطيِّبة، وبعدها أنالُ حُبَّهم. أنعشَتني هذه الأفكار، ودفعتني بحماسةٍ متجدِّدةٍ إلى تعلُّم فنون اللُّغة. إن أعضائي قويَّة بالتأكيد، لكنها ليِّنة، ورغم أن صوتي كان يختلف تمامًا عن أصواتهم الرقيقة، إلا أنني استطعت نُطق بعض الكلمات التي فهمتها بيُسرٍ مقبول. كان الأمر يشبه

twitter @baghdad_library

قِصَّة الحمار والكلب اللَّاعق[1]، لكن الحمار طيب النيَّات، مهما كان سلوكه مرفوضًا، يستحق معاملة أفضل من الضرب والسباب.

غيَّرت أمطار الربيع الخفيفة ودِفء الشمس وجه الأرض، والبشر الذين بدا أنهم تواروا في كهوفٍ قبل هذا التغيير عادوا للظهور، وانشغلوا في مختلف أنواع الفِلاحة. غرَّدت الطيور بأصواتٍ أجمل، وعادت الأوراق للظهور على الشجر. يا لسعادة الأرض! إنها المسكن المناسب للآلهة، وقد كانت منذ وقتٍ قصيرٍ للغاية جرداء مُقبِضة. ارتفعَت روحي المعنويَّة كثيرًا بمناظر الطبيعة الخلَّابة، وأُزيح الماضي من ذاكرتي وصار الحاضر زمن الهدوء، بينما تألَّق المُستَقبَل بأشعَّة الأمل والبهجة المنتظرَة».

---

(1) إحدى القِصَص التي كتبها الفرنسي چان دو لا فونتين، وفيها يتلقَّى الكلب معاملة حسنة عندما يُداعِب سيده ويلعق وجهه، لكن عندما يُجَرِّب الحمار الشيء نفسه يتلقَّى الضرب والشَتائم.

الفصل الثالث عشر

«سأنتقلُ الآن إلى الجزء الأكثر تأثيرًا في حكايتي، وسأروي لك أحداثًا أثارت فيَّ مشاعر حوَّلتني مما كنتُ إلى ما أنا عليه الآن. بلغ الربيع أوجه في سرعة، وصار الجو معتدِلًا والسماء بلا سُحُب. أدهشني أن ما كان من قبل قاحلًا عابسًا يمتلئ الآن بأجمل الزهور والكلأ، وتشبَّعَت حواسِّي وانتعشَت بآلافٍ من المناظر والروائح الجميلة. في واحدٍ من تلك الأيام استراح سُكَّان الكوخ من عملهم، وكان الشَّيخ يعزف على جيتاره وفيلكس وأجاثا يُصغيان إلى أنغامه، عندما لاحظتُ أن ملامح الشاب تعتريها كآبة تفوق الوصف. كان يتنهَّد باستمرار، حتى إن والده توقَّف عن لعب الموسيقى، وأدركتُ أنا من أسلوبه أنه يسأل ابنه عن سبب حزنه الشديد. أجابه فيلكس بلهجةٍ مرحة، وعاد الأب إلى العزف، وكان هذا عندما نقر أحدهم على الباب.

كانت سيِّدة تمتطي صهوة فرس، وفي صُحبتها رجل ريفي يبدو أنه دليل. كانت السيِّدة ترتدي حُلَّة داكنة اللون وتُغطِّي رأسها بحجابٍ أسود سميك. ألقت أجاثا عليها سؤالًا كانت إجابته الوحيدة من السيِّدة هي اسم فيلكس بصوتٍ عذب. كان صوتها موسيقيًّا، لكنه يختلف عن أصوات أصدقائي، وعندما سمع فيلكس الكلمة هُرِع خارجًا إلى

twitter @baghdad_library

السيِّدة التي، بمجرَّد أن رأته، رفعت حجابها لتكشف عن ملامحها الملائكيَّة الفاتنة. شَعرها كان حالك السواد ومعقوصًا بعناية، عيناها سوداوان لكن الرِّقَّة والحيويَّة تشعان منهما، ملامحها متَّسقة وجسدها شديد التناسُق، واللون الوردي الجميل يتقد في وجنتيها.

بدا فيلكس على وشك الطيران من السعادة عندما رآها، واختفت كلُّ ذرَّة حزنٍ من وجهه الذي أُضيء في الحال بغبطةٍ لا يُماثِلها شيء ولم أتصوَّر من قبل أن تحتل وجدانه كله. تألَّقَت عيناه، وتورَّد وجهه بالسرور، وفي تلك اللحظة رأيت كم كان وسيمًا جميل الملامح كالسيِّدة الغريبة التي بدت متأثِّرة بمشاعر مختلفة، وجفَّفت عينيها من دموعٍ قليلة، ومدَّت يدها إلى فيلكس الذي قبَّلها في نشوة، ولقَّبها -كما سمعته- بـ«أميرته العربيَّة الجميلة». لم يبدُ عليها أنها فهمته، لكنها ابتسمَت، وساعدها هو على النزول من على ظهر الفرس، قبل أن يصرف دليلها ويقودها إلى داخل الكوخ. دار حديث ما بينه وبين أبيه، وركعت الغريبة الشابَّة عند قدمي الشَّيخ، وكادت تُقَبِّل يده، لولا أنه رفعها وعانقها في حنان.

أدركتُ سريعًا أنه على الرغم من أن الغريبة كانت تنطق كلماتٍ واضحة ويبدو أنها تملك لُغة خاصَّة بها، إلا أنها لم تفهم لغة أهل الكوخ ولا هُم فهموها. كانوا يتفاهمون معها بإشاراتٍ كثيرة لم أستطِع استيعابها، لكني رأيت أن وجودها تسبَّب في إحداث حالةٍ من السعادة الواضحة في المكان، وبدَّد حزن أهله كما تُبَدِّد الشمس غيوم الصباح. فيلكس بالتحديد بدا في غاية السعادة وهو يرحِّب بأميرته العربيَّة بابتساماتٍ متألِّقة، وأجاثا -أجاثا الباسلة الرقيقة دومًا- قبَّلت يدي الغريبة الحسناء، وبإشاراتٍ منها إلى أخيها استنتجت أنها تُحاوِل أن تشرَح كم كان بائسًا قبل أن تجيء. انقضت ساعات بهذا الشكل

والسرور يحتل ملامح الجميع، رغم أنني لم أستوعب سببه. بعد فترةٍ فهمت، عن طريق تكرار صوتٍ بعينه أخذت الحسناء تُردِّده وراءهم، أنها كانت تُحاوِل تعلُّم لُغتهم، وخطرت لي في الحال فكرة أن أستفيد من عمليَّة التعليم هذه إلى أقصى درجةٍ ممكنة. تعلَّمت الغريبة ما يقرب من العشرين كلمة في الدرس الأول، ومعظمها بالطبع كان من الكلمات التي كنتُ قد تعلَّمتُها بالفعل، لكني استفدتُ من الكلمات الجديدة على كلِّ حال.

خلدت أجاثا والعربيَّة مبكِّرًا إلى الراحة مع مجيء الليل، بعد أن لثَّم فيلكس يد الثانية وقال:

- «طابت ليلتك يا صافي الجميلة».

ظَلَّ بعدها ساهرًا لوقتٍ طويل يتحدَّث مع أبيه، ومع تكرار اسمها أدركتُ أن ضيفتهم الحسناء هي موضوع الحديث، وكنتُ أتوق إلى فهم ما يُقال. خرج فيلكس إلى عمله في الصباح التالي، وانتهت أجاثا من أعمالها المعتادة، وجلست عند قدمي الشَّيخ مع العربيَّة التي أمسكت بالجيتار، وعزفت ألحانًا تَخلُب الألباب، حتى إنني وجدتُ دموع النشوة تسيل من عينيَّ. غنَّت العربيَّة بإيقاعٍ ثري يتصاعد وينخفض كصوت العندليب في الغابات. أعطت الجيتار لأجاثا بعد أن انتهت، لكنها رفضته في البداية، ثم عزفت نغمة بسيطة صاحَبها صوتها في غناءٍ جميل مختلف عن غناء الغريبة. بدا الشَّيخ مسرورًا، وقال شيئًا ما حاولَت أجاثا أن تشرحه لصافي، وفهمت منه أنه يريد أن يقول لها إنها أبهجته كثيرًا بموسيقاها.

كانت الأيام تمر الآن على الوتيرة الهادئة نفسها كما الأيام السابقة، مع حدوث اختلافٍ واحدٍ هو السعادة التي حلَّت محلَّ الحزن في ملامح أصدقائي. صافي كانت دائمة المرح والسرور، وتقدَّمَت

twitter @baghdad_library

-وتقدَّمتُ أنا معها- في المعرفة باللُّغة، حتى أصبحتُ خلال شهرين أستطيع فهم وتفسير معظم الكلمات التي ينطقها حُماتي.

في تلك الأثناء افترشَت الأرض السوداء بالعُشب، واكتست المنحدَرات الخضراء بأشكالٍ وألوانٍ من الزهور الجميلة التي تَسُرُّ الأنظار وتُفعِم الأنوف بعبيرها. تألَّق ضوء النجوم الشاحب في الغابة التي ينيرها ضوء القمر، ودِفء الشمس كان في ازدياد، والليالي صارت صافية مريحة للأعصاب. كانت جولاتي الليليَّة تمنحني سرورًا بلا حدود، رغم قصرها بسبب غروب الشمس المتأخِّر وشروقها المبكِّر، وهذا لأنني لم أخاطِر بالخروج في ضوء النهار قَطُّ من فرط خوفي من تلقِّي المعاملة ذاتها التي نلتها في القرية الأولى التي زُرتها. النهار قضيته في انتباهٍ وتركيز من أجل أن تتطوَّر إجادتي للُغة سريعًا، ومن دواعي فخري أن تقدُّمي كان أسرع من تقدُّم العربيَّة التي فهمت القليل وكانت تتحدَّث بلهجةٍ ركيكة، بينما فهمتُ أنا واستطعتُ تقليد كلِّ كلمةٍ تقريبًا. وكما تقدَّمتُ في الكلام، تعلَّمتُ أيضًا عِلم الحروف كما تعلَّمته العربيَّة، وفتح هذا أمامي آفاقًا واسعة من الدهشة والسرور. الكتاب الذي استعان به فيلكس لتعليم صافي كان كتاب «أطلال الإمبراطوريَّات» لڤولني[1]، والذي لم أكن لأفهم فحواه لولا أن فيلكس كان يشرحه شرحًا مفصَّلًا أثناء القراءة.

قال إنه اختار هذا الكتاب لأن أسلوبه الخطابي كان يحاكي أسلوب كُتَّاب الشرق، وعن طريق هذا الكتاب عرفتُ عددًا كبيرًا من المعلومات

---

(1) فيلسوف وعالم تاريخ وسياسي ومستشرق فرنسي شهير، سافر إلى مصر في القرن الثامن عشر، ومنها إلى سوريا ولبنان وفلسطين، وتعلَّم اللغة العربيَّة هناك، وسافر بعدها إلى أمريكا حيث اتهموه بأنه جاسوس فرنسي، قبل أن يعود إلى فرنسا حيث عينه نابليون في مجلس الشيوخ.

السريعة عن التاريخ والإمبراطوريَّات المتعدِّدة الموجودة في العالم في زمننا، ومنحني هذا فكرة لا بأس بها عن عادات وتقاليد وحكومات وديانات الأمم المختلفة. سمعتُ عن كسل الآسيويين، ونشاط الإغريق الفكري، وحروب الرومان قديمًا ثم انهيار إمبراطوريَّتهم لاحقًا، وسمعتُ أشياءَ عن الفروسيَّة والمسيحيَّة والملوك، وسمعتُ عن اكتشاف القارَّة الأمريكيَّة، وبكيتُ مع صافي على مصير سُكَّانها الأصليِّين البشع.

أثارت هذه الحكايات المذهلة مشاعر غريبة في أعماقي. هل الإنسان بالفعل قويٌّ فاضلٌ سامٍ وآثمٌ شريرٌ في آنٍ واحد؟ يبدو الإنسان لي في أحيانٍ كأنه المادَّة الخامَ للشرور في العالم، وفي أحيانٍ أخرى يتمتَّع بكل صِفات الشهامة والنُّبل. أن تكون صالحًا مستقيمًا فهذا أكبر شرفٍ يُمكن أن يناله الإنسان، وأن تكون شريرًا فاسدًا، كما بدا في حكاياتٍ كثيرة، فهذه أحطُّ مرتبة، وهي مرتبة أدركتُ أنها أحطُّ من مرتبة حيوانٍ أعمى أو دودةٍ وديعة. لوقتٍ طويل لم أستطِع أن أفهم كيف يُمكن لبشريٍّ أن يَقتُل بشريًّا مثله، أو حتى سبب وجود القوانين والحكومات، لكن عندما سمعت هذه القِصَص عن القتل والسَّلب والنَّهب وإراقة الدِّماء كففتُ عن الحيرة، وانتابني شعور بالاشمئزاز.

كانت كلُّ محادَثةٍ بين أهل الكوخ تفتح لي أبواب عجائبَ جديدة، ومع إصغائي لدروس فيلكس التي يُلقيها على مسامع العربيَّة بدأ نظام المجتمع الإنساني يتَّضح لي شيئًا فشيئًا، وسمعتُ عن تقسيم الأملاك والثروات الفاحشة والفقر المدقع والمراتب والأنساب والدَّم الأزرق. دفعتني هذه الكلمات للتفكير في نفسي. تعلَّمتُ أن أهمَّ ما يمنحك التقدير بين الناس هو أن يتَّحد ثراؤك مع نَسَبك النبيل، ولا يُمكن أن يُحتَرَم الإنسان إلا وهو يملك واحدة من هذه المميِّزات التي من دونها

twitter @baghdad_library

يصبح -باستثناء حالاتٍ نادرةٍ للغاية- عبدًا أو شريدًا، ومصيره أن يُبَدِّد قواه من أجل مصالح القِلَّة المختارة!

فماذا كنتُ أنا؟

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن خلقي وخالقي، لكني كنت أعرف أنني بلا مالٍ أو أصدقاءٍ أو أملاك، بل إنني أيضًا ملعون بشكلٍ مشوَّه يثير الخوف والقرف، ولا تُشبه طبيعتي طبيعة الإنسان حتى. إنني أقوى وأرشق منه، وأستطيع التعيُّش بطعام أقل، واحتمال البرد والحر لفتراتٍ أطول، وقامتي تفوق قامته طولًا. أنظرُ حولي ولا أرى أو أسمع شيئًا يُشبِهني، فهل كنتُ بالفعل وحشًا ولطخة تُلَوِّث وجه الأرض يولِّي الناس منها الأدبار ويتنكَّرون لها؟

لا يُمكنني أن أصف لك الألم الذي سبَّبته لي هذه الأفكار. حاولتُ كثيرًا أن أصرفها، لكن الحزن كان يزداد مع ازدياد المعرفة. آه! ليتني بقيتُ إلى الأبد في غابتي لا أدري شيئًا أو أشعر بشيءٍ غير الجوع والظمأ والبرد والحرارة!

يا للمعرفة من شيءٍ عجيب! إنها تلتصق بالعقل بمجرَّد أن تدخله كالنبات المتسلِّق الذي يحيط بصخرة. تمنَّيتُ أحيانًا أن أنفض عن نفسي جميع الأفكار والأحاسيس، لكني تعلَّمت أنه ليس من سبيلٍ للخلاص من الألم سوى الموت، والموت كان حالة لم أفهمها وقتها. كنتُ معجبًا بفضائل ومشاعر أهل الكوخ الجميلة، وأحببتُ صفاتهم الرقيقة، لكني كنتُ محرومًا من التواصُل معهم، اللهم إلا عن طريق التسلُّل، عندما أكون غير مسموعٍ وغير مرئي، الشيء الذي زاد من رغبتي في أن أكون بين أصدقائي. كلمات أجاثا الرقيقة وابتسامات العربيَّة الحسناء لم تكن لي. نصائح الشَّيخ وصُحبة فيلكس لم تكن من أجلي أنا المسخ البائس التعيس.

دروسٌ أخرى تعلَّمتها وحفرَت نفسها في داخلي عميقًا. تعلَّمتُ أن للبشر جنسين هما الذَّكَر والأنثى، وعرفتُ كيف يولد الأطفال ويكبرون، وكيف يشغف الأب بابتسامة طِفله، وكيف يتحوَّل الطِّفل إلى مراهِقٍ متقلِّب المزاج، وكيف أن حياة الأم تدور في فلك رعاية أطفالها، وكيف تكبر عقول الشباب وتستقبل المعارِف. تعلَّمتُ وجود الإخوة والأخوات وجميع الروابط الأخرى التي تجمع بين البَشَر.

لكن أين أصدقائي وروابطي أنا؟

لا أب رعاني في طفولتي، ولا أم باركَتني بابتساماتها وداعبتني؛ وإن كانا قد وُجِدا، فحياتي الماضية كلها استحالت إلى بُقعةٍ عمياء لا أذكر منها شيئًا. منذ ذكراي الأولى لم يختلف طولي أو عرضي، ولم أرَ قَطُّ أيَّ كائنٍ يُشبِهني أو يَذكُر شيئًا عن معرفته بشيءٍ يُشبِهني.

ماذا أكون؟

تكرَّر السؤال وتردَّد، وما من مجيب سوى الأنين.

سأشرح بعد قليل ما أفضت إليه هذه المشاعر، لكن اسمح لي الآن بالعودة إلى سُكَّان الكوخ الذين أثارت قِصَّتهم فيَّ مختلَف مشاعر النِّقمة والسرور والدهشة في آنٍ واحد، والتي انتهت كلها بزيادة حُبِّي وتقديري لحُماتي، كما أحببتُ -في خداعٍ بريء شِبه مؤلم للنفس- أن أسَمِّيهم».

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

«مَرَّ بعض الوقت قبل أن أعرف قِصَّة أصدقائي، وكانت قِصَّة لا يُمكنها إلا أن تغرس نفسها في عقلي في عُمق، بكلِّ ما حملته من تفاصيلٍ مثيرة ومُدهِشة لكائنٍ عديم الخبرة مثلي.

اسم الشَّيخ كان دو لاسي، وكان سليلًا لأسرةٍ مُحترمة في فرنسا التي عاش فيها لسنواتٍ طويلة في دعة، يحترمه من هُم أثرى منه، ويُحِبُّه من هُم مثله. رَبَّى دو لاسي ابنه على حُبِّ وخدمة بلاده، وكانت ابنته أجاثا إحدى أشهر آنسات الطَّبقة الثريَّة. قبل وصولي بعدَّة شهور كانوا يعيشون في مدينةٍ كبيرة بهيَّة اسمها پاريس يحيط بهم الأصدقاء، وتحت أيديهم كلُّ متعةٍ يُمكن الحصول عليها عن طريق الثروة، وتُمَيِّزهم الفضائل وحُب المعرفة والذوق الرفيع.

كان أبو صافي السبب في مصيبتهم. كان تاجرًا تُركيًّا عاش في پاريس لسنواتٍ طويلة، ثم لسببٍ لم أفهمه أصبح من أعداء الحكومة، وفي اليوم ذاته الذي وصلَت فيه صافي من القسطنطينيَّة أُلقي القبض على الرجل وزُجَّ به في السجن. حوكم الرجل وحُكِم عليه بالإعدام، وكان الظُّلم البيِّن في الحُكم فظيعًا، وعَمَّ السخط پاريس كلها، وأشيع أن ديانته الإسلاميَّة وثروته هما سبب الحُكم الصادر عليه، لا الجريمة

التي ادَّعوا أنه ارتكبها. حضر فيلكس المحاكمة، والذعر والحنق اللذين شعر بهما عند صدور الحكم كانا فوق الوصف. في تلك اللحظة أقسم أن يُنقِذ الرجل، وبدأ يبحث عن وسيلة، وبعد مُحاولاتٍ فاشلةٍ عدَّة للحصول على إذنٍ بدخول السجن عثر على نافذةٍ مزوَّدة بقضبانٍ قويَّة في جزءٍ من المبنى بلا حراس، وتضيء الزنزانة التي يقبع فيها المحمَّدي [1] المسكين مكبَّلًا بالأغلال في انتظار تنفيذ الحُكم الوحشي الجائر. جاء فيلكس إلى النافذة ليلًا، وأخبره بأنه ينوي تهريبه، ومن فرط ذهوله وسعادته سعى التُّركي إلى إشعال حماسة الشاب أكثر بوعده بالمكافأة والثروة إذا فعلها. رفض فيلكس عرضه بشمم، لكنه عندما لمح صافي الجميلة، التي سُمِح لها بزيارة أبيها، ورأى الامتنان في ملامحها لم يستطِع إلا أن يعترف لنفسه بأن السجين لديه كنز حقيقي سيُعوِّضه عن جهده والخطر الذي يُعرِّض نفسه إليه.

لاحَظ التُّركي سريعًا التأثير الذي أحدثته ابنته في قلب فيلكس، وأسرع يُطمئنه بأن وعده بيدها كزوجةٍ له بمجرَّد وصولهم إلى مكانٍ آمِن. كان فيلكس أضعف من أن يقبل عرضًا كهذا، لكنه تطلَّع إلى احتماليَّة حدوث هذا كتمامٍ لسعادته.

خلال الأيام التالية، وبينما كانت الاستعدادات لتهريب التاجر تتم، تأجَّجَت حماسة فيلكس مع تلقيه عدَّة خطاباتٍ آتيةٍ من الفتاة الجميلة التي استطاعت التعبير عن أفكارها بلُغة حبيبها عن طريق الاستعانة برجلٍ هَرِم يعمل كخادمٍ لدى أبيها ويجيد الفرنسيَّة. شكرته بأكثر

---

(1) المحمَّدي: كلمة كان يستخدمها كُتَّاب الغرب حتى مُنتَصَف القرن العشرين، لكن المسلمين اعترضوا عليها بحُجَّة أنها تعني بشكلٍ ما أنهم يعبدون محمدًا -عليه الصلاة والسلام- بدلًا من الله.

twitter @baghdad_library

الألفاظ حرارة على خدماته المزمعة لوالدها، وفي الوقت ذاته كانت تستنكر مصيرها.

لديَّ نُسَخ من تلك الخطابات، فخلال إقامتي في الزريبة وجدتُ وسيلة للحصول على أدوات الكتابة، والخطابات ذاتها كانت في أيدي فيلكس أو أجاثا معظم الوقت. سأعطيك إياها قبل أن أرحل، وسوف تُثبِت صِحَّة حكايتي، لكن في الوقت الحالي دعني أحكي لك ملخَّصها فحسب، بما أن الشمس قد بدأت تغيب بالفعل.

حكت صافي أن أمها كانت مسيحيَّة عربيَّة وقعت في أسر العثمانيين، لكن جمالها جعلها تربح قلب والد صافي الذي تزوَّجها. كانت الفتاة تتحدَّث بحماسةٍ واحترام عن أمها التي وُلِدَت حُرَّة، وأصبحت الآن جارية تعاني القيود المفروضة حولها. علَّمت الأم ابنتها معتقدات ديانتها، وعلَّمتها أن تتطلَّع إلى القوَّة الفكريَّة والاستقلال اللذين حُرِمَت منهما تابعات محمَّد. ماتت الأم، لكن تعاليمها لم تمّحِ من عقل ابنتها التي أُصيبت بالقلق من فكرة العودة إلى آسيا من جديد وأن تُصبِح سجينة لجدران الحرملك، لا شيء يشغلها سوى ألعاب طفوليَّةٍ لا تُناسِبها البتَّة بعد أن اطَّلعت على أفكارٍ عظيمة ونبيلة، أما فكرة الزواج والبقاء في دولةٍ مسموح فيها للنساء باحتلال مكانةٍ في المجتمع فكانت فكرة ساحرة لها.

تم تحديد اليوم الذي ستُنَفَّذ فيه عقوبة الإعدام على التُّركي، لكنه هرب من سجنه في الليلة السابقة لتنفيذ الحُكم، ومع مجيء النهار كان قد ابتعد كثيرًا عن باريس بالفعل. كان فيلكس قد دبَّر جوازات سفر باسمه واسم والده وأخته، وكان الأب على علم بعمليَّة التهريب، ودوره فيها كان أن يغادر منزله متحجِّجًا بقيامه برحلةٍ، وعزل نفسه مع ابنته في مكانٍ قصيّ من المدينة.

قاد فيلكس الهارب وابنته عبر فرنسا إلى ليون، وعبر ممر مون سيني الجبلي إلى ليڤورنو الإيطاليَّة، حيث قرَّر التاجر التُّركي انتظار فرصة العبور إلى الأراضي التُّركية. قرَّرت صافي البقاء مع والدها حتى لحظة رحيله، والتي جدَّد الرجل قبلها وعده بزواجها من مُنقِذه، وظَلَّ فيلكس معهما منتظرًا أن يحدث هذا، مستمتعًا في الوقت الراهن بصُحبة العربيَّة التي أبدت نحوه أكثر العواطف رقَّة وبساطة. كانا يتحدَّثان مع بعضهما البعض عن طريق مُتَرْجِم، وأحيانًا باستخدام النظرات، وغنَّت له صافي أغاني بلادها الساحرة.

سمح التُّركي لهذه المودَّة بالاستمرار، وشجَّع آمال الحبيبين الصغيرين، بينما في قلبه كانت خُطَّة مُختلفة تمامًا تتكوَّن. كان يكره فكرة أن تتزوج ابنته من مسيحي، لكنه خاف من استياء فيلكس وردَّة فعله إذا بدا فاترًا تجاهه، لأنه كان يعرف أنه ما زال تحت رحمة مُنقِذه؛ وأن بإمكانه أن يبلغ عنه السلطات الإيطاليَّة. فكَّر الرجل في ألف حيلةٍ يطيل بها الخدعة حتى يأتي الوقت الذي لا تصبح فيه ضروريَّة، وعندها يصحب ابنته معه سرًّا عندما يرحل؛ وأضحت خطَّته هذه أكثر قابليَّة للتنفيذ مع وصول أنباءٍ جديدةٍ من پاريس.

الحكومة الفرنسيَّة أصيبت بغضب شديد مع فرار سجينها، ولم تدَّخر جهدًا في سبيل القبض على من هرَّبه ومعاقبته. انكشفت حيلة فيلكس سريعًا، وأُلقي بدو لاسي وأجاثا في السجن، ووصل الخبر إلى فيلكس ليوقظه من أحلام السعادة. أبوه الأعمى وأخته الرقيقة مُلقيان في زنزانةٍ حقيرة بينما يستمتع هو بهواء الحُرِّيَّة وصُحبة حبيبته، وعذَّبته هذه الفكرة أيَّما عذاب. رتَّب مع التُّركي سريعًا أنه إذا وجد فرصة للخروج من إيطاليا قبل عودته فليقتنصها، على أن تبقى صافي في أحد الأديرة في ليڤورنو، ثم ترك العربيَّة الحسناء وأسرع إلى پاريس ليُسَلِّم

twitter @baghdad_library

نفسه لرجال القانون، آملًا أن يُحَرِّر دو لاسي وأجاثا. لكنه لم ينجح، وظَلَّ الجميع سجناء طوال خمسة أشهُر في انتظار المحاكمة، وكانت النتيجة مصادرة أملاكهم ونفيهم خارج البلاد.

عثروا على مأوى بائس في هذا الكوخ الذي وجدتهم فيه في ألمانيا، وعرف فيلكس سريعًا أن التُّركي المخادع، الذي تحمَّل هو وأسرته من أجله ألمًا بلا مثيل، عرف بزوال الثروة من أسرة دو لاسي، ومن ثم غادر إيطاليا ومعه ابنته، والأدهى أنه أهانه بأن أرسل إليه مقدارًا زهيدًا من المال ليُعاوِنه على أعباء المُستَقبَل على حد تعبيره.

تلك كانت الأحداث التي افترست قلب فيلكس، وجعلته عندما رأيته في البداية أكثر أفراد أسرته الصغيرة تعاسة. الفقر كان مُحتمَلًا، والحزن الذي أصابه كنتيجةٍ لعمله الصالح كان مدعاةً لفخره، لكن مرارة خيانة التُّركي وخسارة صافي كانت لاذعة، إلى أن جاءت العربيَّة وأضاءت روحه من جديد.

عندما بلغت أخبار حرمان فيلكس من ثروته ومكانته ليڤورنو، أمر التاجر ابنته بألا تُفَكِّر في حبيبها بعد الآن، وأن تستعد للعودة إلى تركيا، لكن طبيعة صافي الكريمة شعرت بالنفور من هذا الأمر، وحاولت الاعتراض عليه، لكن الرجل تركها في غضب مستعيدًا طبيعته المستبدَّة.

بعدها بأيام قليلة دخل التُّركي غُرفة ابنته وأخبرها على عجل أن لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد أن وجوده في ليڤورنو قد افتضح، وأن الحكومة الفرنسيَّة ستقبض عليه قريبًا. بِناءً على ذلك أسرع باستئجار قارب ينقله إلى مدينة القسطنطينيَّة التي سيبحر إليها خلال ساعاتٍ قليلة، تاركًا ابنته في رعاية خادم أمين يحافظ على بقيَّة مقتنيات التاجر التي لم تكن قد وصلت بَعد إلى ليڤورنو.

عندما صارت صافي وحدها وضعت لنفسها خُطَّة تتبعها في حالة

الطوارئ هذه. كانت كارهة لفكرة الحياة في تركيا، ومشاعرها كانت تُعارِض هذا بعنف. كانت قد وجدت في أوراق أبيها خبر نفي حبيبها، وعلمت منها المكان الذي استقرَّ فيه. تردَّدت بعض الوقت، لكنها عقدت العزم على تنفيذ خُطَّتها في النهاية، فأخذت معها بعض الجواهر التي تملكها بالإضافة إلى مبلغ من المال، وغادرَت إيطاليا ومعها فتاة من سكان ليڤورنو تجيد التركيَّةَ، واتجهت إلى ألمانيا.

وصلَت صافي بسلام إلى بلدةٍ تبعد عشرين فرسخًا عن كوخ دو لاسي، وكان هذا عندما أصيبت مرافِقتها بمرضٍ شديد. رعتها صافي في حنان، لكن الفتاة المسكينة ماتت، وأصبحتْ صافي وحدها في بلدٍ لا تفهم كلمة من لُغته، وفي عالم لا تدري عنه شيئًا. لكنها وقعت على كلِّ حالٍ في أيدٍ أمينة، والإيطاليَّةَ كانت قد ذكرت المكان الذي تتجهان إليه، وبعد وفاتها أخذت المرأة صاحبة المنزل الذي عاشتا فيه على عاتقها أن توصل صافي في أمان إلى كوخ حبيبها».

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس عشر

«تلك هي قِصَّة أهل الكوخ الأعزاء التي تأثَّرتُ بها تأثُّرًا عميقًا، وتعلَّمتُ من خلال صُور الحياة الاجتماعيَّة التي وردت فيها أن أعجب أكثر بفضائلهم وطيبتهم، وأن أنبذ شرور الإنسان. مع نظري في تلك الأثناء إلى الجريمة على أنها شر بعيد عني، كانت الطيبة والشهامة ماثلتين أمامي دائمًا، وتَحُثَّاني من الداخل على أن أصبح ممثلًا على خشبة مسرح الحياة الذي يَعُجُّ بصفاتٍ حميدة لدى الناس. لكن مع روايتي للتقدُّم الذي حدث في عقليتي، لا يجب أن أُغفِل حادثًا وقع في بداية شهر أغسطس من العام نفسه.

ذات ليلة، خلال زيارتي المعتادة للغابة، حيث أجمع طعامي والأخشاب لحُماتي، وجدتُ على الأرض حقيبة جلديَّة تحوي بعض الملابس والكُتُب. احتويتُ غنيمتي بحماسة، وأسرعتُ عائدًا بها إلى الزريبة، ولحُسن حظِّي كانت الكُتُب مكتوبة باللُّغة التي أصبحَت عناصرها مألوفة لي خلال إقامتي في الكوخ، وكانت عبارة عن «الفردوس المفقود»، ومجلَّدٍ من «حيوات النبلاء الإغريق والرومان»

لبلوتارخ[1]، و«آلام ڤرتر»[2]. منحَني عثوري على هذا الكنز سعادةً بالغةً، وصببتُ كامل اهتمامي على قراءة ودراسة هذه القِصَص، بينما انشغل أصدقائي بأعمالهم المعتادة.

لا يُمكنني وصف تأثير هذه الكُتُب عليَّ إلا بصعوبة. لقد بعثَت في داخلي صُورًا ومشاعر لانهائيَّة بلغَت حَدَّ الانتشاء أحيانًا، لكنها أصابتني بالاكتئاب في أغلب الأحيان. في «آلام ڤرتر»، وإضافة إلى التشويق الذي حملته القِصَّة البسيطة المؤثِّرة، اتَّضحت لي آراء وأفكار كثيرة، وأخيرًا دخلَت أشياءَ لم أكن أدري عنها شيئًا حتى ذلك الحين إلى دائرة الضوء، بحيث عثرتُ على مصدرٍ لا ينضب من التأمُّل والدهشة. الصفات الرقيقة الحميمة التي وصفتها القِصَّة، وامتزاجها بمشاعر وأحاسيس نبيلة متفرِّدة بذاتها، تناغمَت تمامًا مع تجربتي مع حُماتي، ومع الرغبات التي ظلَّت حيَّة في صدري. لكن خطر لي أن الشاب ڤرتر نفسه كان ملائكي الصفات أكثر مما رأيتُ أو تخيَّلتُ، فشخصيَّته لم تشبها شائبة غرور أو ادِّعاء، بل كانت شديدة العمق، وتلك الخُطب المرسلة عن الموت والانتحار التي ذكرتها القِصَّة كانت شيئًا مدهشًا لي. لم أقوَ على التعمُّق في وقائع الحالة، لكني كنتُ أميل إلى آراء البطل الذي بكيتُ لموته دون أن أفهمه تمامًا.

كنتُ أقارن أثناء القراءة بين ما في القِصَّة ومشاعري وحالتي، ووجدتُ نفسي شبيهًا، وفي الوقت ذاته مختلفًا، بشكلٍ غريب عن

---

(1) مؤرِّخ يوناني أثَّر كثيرًا في الأدب الإنجليزي والفرنسي، ومن أبرز الكُتَّاب الذين تأثَّروا به شكسپير الذي أخذ عن كتاباته، واعتمد عليها في عددٍ من مسرحياته، مثل «يوليوس قيصر» وغيرها، وكذلك كُتَّاب آخَرون مثل بن چونسون وچون ميلتون.

(2) قِصَّة مأساويَّة من أعمال جوته، وتَستَنِد إلى وقائع حقيقيَّة.

twitter @baghdad_library

الكائنات التي أقرأُ عنها والكائنات التي أصغي إلى محادثاتها. كنتُ مُتغاطفًا معهم، وبشكلٍ ما أفهمهم، لكني بالتأكيد أختلف عنهم؛ لا أعتمد على أحدٍ ولستُ مرتبطًا بأحد. طريق رحيلي مفتوح، ولا يوجد من يُحزِنه غيابي.

إنني عملاق شائه، فما الذي يعنيه ذلك؟

من أكونُ؟

وماذا أكونُ؟

من أين أتيتُ، وكيف أتيتُ، وما مصيري؟

أسئلة تكرَّرت بلا نهاية دون أن أجد لها إجابة شافية.

المجلَّد الذي وجدته من «الحيوات» كان يحتوي على تاريخ المؤسِّسين الأوائل للجمهوريَّات القديمة، وكان تأثيره عليَّ مختلفًا بالكامل عن تأثير «آلام ڤرتر»، فمن الثاني عرفت الكآبة والقنوط، أما الأول فعلَّمني أفكارًا رفيعة، وارتقى بي فوق دائرة أفكاري السوداء، وجعلني أعجب بأبطال العصور الغابرة وأحبهم. أشياءَ كثيرة مما قرأت فاقت خبرتي وإدراكي: معرفتي بالممالك وحدود الدول والأنهار العظيمة والبحار المترامية كانت مشوَّشة إلى حدٍّ ما، لكني لم أفهم إطلاقًا معنى المدن وتجمُّعات البَشَر الكبيرة. كوخ حُماتي كان المدرسة الوحيدة التي تلقَّيتُ فيها تعليمي عن طبيعة الإنسان، لكن هذا الكتاب زوَّدني بمشاهدٍ جديدة وقويَّة عن العالم الخارجي. قرأتُ عن أناسٍ يهتمون بالقضايا العامَّة، يحكمون أو يذبحون أناسًا مثلهم. شعرتُ بحرارة حُبِّ الخير بداخلي، وبرودة كراهية الشرور بقَدر ما فهمتُ معاني هذه الأشياء وربطتها بالألم والراحة فحسب. حثَّتني هذه المشاعر على الإعجاب بالمُشرِّعين المسالمين، مثل نوما وسولون ولوكورجوس أكثر من إعجابي برومولوس وثيسيوس. جعل أسلوب

حياة حُماتي هذه الأفكار تسيطر على عقلي تمامًا، وخطر لي أنه لو كان مجيئي إلى عالم البشر على يد جندي شاب يتحرَّق شوقًا للذبح والمجد، لكانت مشاعري قد اختلفت بالكامل.

لكن «الفردوس المفقود» أثار في داخلي مشاعر مُختلفة وأكثر عمقًا. لقد قرأته، كما قرأت الكتابين الآخَرين، على أنه يروي قِصَّة حقيقية، ونجحَت فكرة دخول إله كُلِّي القُدرة في حربٍ مع مخلوقاته في إثارة كلِّ مشاعر الحيرة والرُّعب في نفسي، وكثيرًا ما دارت في مخيِّلتي مواقف كثيرة من تجربتي وجدتها شبيهة بما في الكتاب. كنتُ، مثل آدم، غير مرتبطٍ بأيِّ كائنٍ آخَر في الوجود، لكن حالته تختلف عن حالتي في جميع الوجوه الأخرى. لقد جاء من بين يدي الله كائنًا سعيدًا ثريًّا تحميه عناية خالقه، وكان مسموحًا له بالحديث مع كائناتٍ أرقى منه وجَنْي المعارف منها، أما أنا فمسخ عاجز وحيد. كثيرًا ما وجدتُ إبليس رمزًا أنسب لحالتي، لأنني -مثله- كنتُ أرى النِّعمة التي يتمتع بها حُماتي وأشعرُ بالغيرة والحسد يتصاعدان في أعماقي.

ثمَّة حادث آخَر عزَّز هذه المشاعر وأكَّدها. بعد مجيئي إلى الزريبة بفترةٍ قصيرة عثرتُ على بعض الأوراق في جيب الثوب الذي أخذته من معملك. لقد أهملتها في البداية بالطبع، لكن الآن وقد بِتُّ قادرًا على حلِّ شفرة الحروف المكتوبة بها، بدأتُ في قراءة ما بها بتركيز. إنه دفتر مذكِّراتك المكتوبة طوال الشهور الأربعة السابقة لمجيئي، وفيه وصفت بدِقَّةٍ تامة كلَّ خطوةٍ أثناء عملك، وكان هذا مختلطًا ببعضِ الملاحظات الشخصيَّة. تذكر هذه الأوراق بالطبع. ها هي ذي. كلُّ شيءٍ فيها يصف أصلي الملعون، وجميع التفاصيل المقزِّزة التي قادت إليه موجودة ها هنا، والوصف بالغ الدِّقَّة لشخصي البشع موجود أيضًا بلُغةٍ رسمت رُعبك بجميع تفاصيله، وجعلت رعبي أنا لا يُمحى.

twitter @baghdad_library

لقد أصبتُ بالغثيان وأنا أقرأ، وصرختُ في ألم:

- «ملعونٌ اليوم الذي تلقَّيتُ فيه الحياة! ملعونٌ يا صانعي! لماذا صنعت وحشًا بشعًا تفر أنت نفسك منه باشمئزاز؟ الله برحمته خلق الإنسان في أحسن تقويم، لكني مجرَّد صورةٍ قذرةٍ منك أنت تفوق شناعتها الوصف. إبليس كان لديه رفاقه من الشياطين يخدمونه ويطيعون أمره، أما أنا فوحيد منبوذ».

كانت هذه أفكاري في ساعات الوحدة والكآبة، لكني عندما تأمَّلتُ محاسن أهل الكوخ وصِفاتهم الرقيقة الطيِّبة أقنعتُ نفسي بأنهم عندما يعرفون بإعجابي الشديد بهم وحبي لهم سيتعاطفون معي ويتغاضون عن سحنتي المنفرة.

هل يُمكنهم حقًّا أن يتنكَّروا لشخصٍ -مهما كان بشع الخلقة- يلتمس عطفهم وصداقتهم؟

قررتُ ألا أيأس على الأقل، وأن أجهِّز نفسي بكلِّ طريقةٍ ممكنة للقاءِ معهم سيتحدَّد على إثره مصيري. أجَّلتُ هذه المحاوَلة شهورًا طويلة، لأن أهميَّة نجاحها ملأتني في الوقت عينه بخوفٍ بالغٍ من الفشل، كما أنني وجدتُ أن فهمي للأشياء كان يزداد مع مرور كلِّ يوم، ما جعلني غير راغبٍ في التجربة قبل مرور عدَّة شهور تزداد فيها حصافتي.

تغيُّرات كثيرة حدثتْ في تلك الأثناء في الكوخ. وجود صافي كان يشعّ بهجة في أهله، ووجدت أيضًا أنهم لم يعودوا يعانون الفقر الشديد كالسابق. أصبح فيلكس وأجاثا يقضيان المزيد من الوقت في المرح والثرثرة، وصار هناك بعض الخدم يساعدونهما في أعمالهما. لم يبدوا أثرياء، لكنهم كانوا سعداء وقانعين، ومشاعرهم كانت هادئة صافية، بينما صارت مشاعري أنا أكثر اضطرابًا مع كلِّ يوم يمر. زيادة المعرفة كشفت لي أكثر مدى عُزلتي. صحيحٌ أنني تمسَّكتُ بالأمل، لكنه كان

يتلاشى لمجرَّد رؤيتي لانعكاس شكلي في الماء أو لظلي في ضوء القمر.

حاولتُ دفن هذه المشاعر وتشجيع نفسي على خوض التجربة المنتظَرة خلال أشهُرٍ قلائل، وسمحتُ أحيانًا لأفكاري بالتحرُّر من قيود المنطق والتجوال في حقول الفردوس، وجرؤتُ على تخيُّل كائناتٍ جميلة تتعاطف معي وتُخَفِّف عني بابتساماتها الملائكيَّة المطمئنة. لكنه كان حُلمًا لا أكثر. لم تكن لديَّ حوَّاء تُخَفِّف آلامي وتُشارِكني أفكاري. كنتُ وحيدًا. تذكَّرتُ تضرُّع آدم لخالقه، لكن أين كان خالقي أنا؟ لقد هجرني تمامًا، وبكلِّ ما يعتمل في قلبي من مرارة لعنته.

فات الخريف، ورأيتُ في حزنٍ ودهشةٍ أوراق الشجر تبلى وتسقط، والطبيعة تكتسي من جديد بثوب الوحشة الذي ارتدته عندما رأيتُ الغابة والقمر الجميل للمرَّة الأولى. لكنني لم ألقِ الكثير من الانتباه للطقس، لأني كنتُ قادرًا على احتمال البرد والحَر، لكن مصدر بهجتي الأول كان في مُشاهَدتي للزهور والطيور وزينة الصيف المرحة؛ وعندما هجرتني هذه الأشياء عُدت بانتباهٍ أكبر إلى أهل الكوخ. لم يُنقِص غياب الصيف سعادتهم، واستمرَّ حُبُّهم وتعاطُفهم لبعضهم بعضًا، ولم يجعل اعتمادهم على بعضهم بعضًا هذا يتأثَّر بما يدور حولهم. كلما رأيتُ منهم المزيد ازدادت لهفتي على الحصول على حمايتهم وعطفهم، وقلبي كان يشتعل توقًا إلى أن أكون معروفًا لهذه المخلوقات الرائعة. أن أرى نظراتهم الحنون موجَّهة إليَّ كان أقصى مطامحي. لم أجرؤ على التفكيرِ في أنهم سيَفِرُّون بهذه النظرات مني في خوفٍ واحتقار، فلم أرهم قَطُّ ينهرون السائل الذي يَدُقُّ بابهم. صحيحٌ أنني كنت أتمنى شيئًا أكبر من مجرَّد طعام أو فِراشٍ هو الوُد والعطف، لكني لم أعتقد أني لا أستحقهما بشكلٍ مُطلَق.

اقترب الشتاء، وبهذا مرَّت دورة كاملة من الفصول منذ مجيئي إلى

twitter @baghdad_library

الحياة. اهتمامي في هذا الوقت كان فقط بخُطَّتي لتقديم نفسي إليهم. خطر لي الكثير من الأفكار، لكن الوحيدة التي استقررتُ عليها هي دخول الكوخ والشَّيخ الكفيف وحده هناك. كنتُ أملك ما يكفي من الذكاء لإدراك أن بشاعة خلقتي غير الطبيعيَّة هي السبب الرئيس في إثارة ذُعرٍ من رأوني من قبل، أما صوتي فلم يكن شنيعًا رغم خشونته. هكذا فكَّرتُ أنني أستطيع الحصول على عطف دو لاسي الشَّيخ أولًا في غياب أطفاله، ومن ثم يتوسَّط هو لي لديهم فيحتملونني.

ذات يوم كانت فيه الشمس مشرقة على الأوراق الحمراء التي تفترِش الأرضَ وتضفي على المنظر شيئًا من البهجة، وإنما دون دفء، خرج فيلكس وصافي وأجاثا في نزهةٍ ريفيَّةٍ طويلة، وتُرِك الشَّيخ وحده في الكوخ بناءً على رغبته. عندما رحل الأبناء أمسك الشَّيخ بالجيتار وعزف ألحانًا حزينة جميلة، أجمل ربما من كلِّ ما سمعته منه من قبل على الإطلاق. كان متهلِّل الأسارير في البداية، لكن التأمُّل والحزن حلَّا محلَّ البشاشة بعد قليل، وفي النهاية نحَّى الآلة جانبًا، واستغرق في التأمُّل.

خفق قلبي بسرعة. إنها لحظة الاختبار الحاسمة، فإما أن تتحقَّق آمالي أو مخاوفي. كان الخدم قد ذهبوا إلى معرضٍ قريب، وكلُّ شيءٍ صامت حول الكوخ. كانت فرصة ممتازة، لكن مع عزمي على تنفيذ الخطَّة خذلتني أطرافي، وتهاويتُ على الأرض. ثم إنني من جديد نهضتُ بكلِّ حزم وتصميم استطعتُ تدبيرهما، وأزحتُ الألواح الخشبيَّة التي كنتُ قد أخفيتُ بها مستقري. أنعشني الهواء النقي، وبعزمٍ متجدِّد اقتربتُ من باب الكوخ.

طرقتُ الباب، فقال الشَّيخ:

- «تفضَّل أيها الطارق».

دخلتُ قائلًا:

- «اعذرني على تطفُّلي. إنني مسافر يحتاج إلى القليل من الراحة، وسيكون فضلك عليَّ كبيرًا إذا سمحت لي بالجلوس أمام النار لدقائقٍ قليلة».

- «ادخل، وسأحاول إراحتك بقدر ما أستطيع. لكن أبنائي ليسوا هنا للأسف، وأنا رجل كفيف، وأخشى أنني لن أستطيع أن أدبِّر لك طعامًا».

- «لا تُتعِب نفسك أيها المضيف الطيِّب. إن معي طعامي، ولا أنشد سوى الدِّفء والراحة».

جلستُ وران الصمت. كنتُ أعرف أن لكلِّ دقيقةٍ ثمنها، لكنني تردَّدتُ في الأسلوب الذي أفتح به الحوار، وكان هذا عندما قال الشَّيخ:

- «أفهم من لُغتك أيها الغريب أنك من أهل وطني. هل أنت فرنسي؟».

- «لا، لكني تعلَّمت على يد عائلة فرنسيَّة، ولا أتحدَّث سوى هذه اللُّغة. إنني في طريقي لطلب حماية بعض الأصدقاء الذين أُحِبُّهم من كلِّ قلبي، وآملُ أن يُسانِدونني».

- «أهُم ألمان؟».

- «فرنسيُّون. لكن دعنا نُغَيِّر الموضوع. إنني كائن تعيس منبوذ. أنظر حولي فلا أجد صديقًا أو قريبًا على وجه الأرض. القوم الطيِّبون الذين أذهب إليهم لا يعرفونني ولا يعرفون عني إلا أقل القليل. إن المخاوف تملأني، لأنه إذا واجهني الفشل فلا مكان لي في هذا العالم إلى الأبد».

- «لا تيأس. أن تكون بلا أصدقاء فأنت بائس بالتأكيد، لكن قلوب البَشَر، عندما لا تُفعِمها الأنانية، ملأى بالحب الأخوي والطِّيبة. اعتمد إذن على آمالك، وإذا كان أولئك الأصدقاء طيِّبين بالفعل، فلا داعي لليأس».

twitter @baghdad_library

- «هُم طيِّبون بالفعل، بل أطيب قوم في العالم بأسره، لكنهم متحيِّزون ضدي للأسف. إنني أتمتع بصفاتٍ حسنة، وحياتي حتى الآن خالية من الأذى، بل ومفيدة أيضًا، لكن هناك تحامُل يعمي أعينهم، وعندما يكون حريًّا بهم أن يروا صديقًا صدوقًا، فإنهم لا يرون أمامهم سوى وحشٍ بغيض».

- «هذا سيئ بالفعل، لكن طالما لا تثريب عليك، أفلا يُمكنك تنويرهم؟».

- «إنني على وشك فِعل هذا فعلًا، ولهذا السبب تملأني المخاوف. إنني أحب هؤلاء الأصدقاء بحق، ومن دون دراية منهم خدمتهم يوميًّا لشهور طويلة، لكنهم يظنون أنني أهدف إلى إيذائهم، وهذا هو التحيُّز الذي أبغي التغلُّب عليه».

- «أين يسكن هؤلاء الأصدقاء؟».

- «بالقُرب من هنا».

صمت الشَّيخ لحظة، ثم قال:

- «إذا أخبرتني بتفاصيل حكايتك دون تحفُّظات، فلربما أستطيع مساعدتك. إنني كفيف ولا يُمكنني الحُكم على صِدق ملامحك، لكن ثمَّة شيئًا ما في كلماتك يُقنِعني بأنك مُخلِص. إنني فقير ومنفي، لكني سأسعد كثيرًا إذا قدرتُ على مساعدة إنسانٍ آخَر».

- «يا لك من رجلٍ رائع! إنني أشكرك وأقبل عرضك الكريم. إنك تنتشلني من التراب بهذه الطيبة، وأثق بأنني، بمساعدتك، لن أُحرَم من عطف الناس».

- «حاشا لله! حتى لو كنت مُجرمًا حقًّا، فهذا وحده يُمكنه أن يقودك إلى اليأس ولا يحرِّضك على الفضيلة. إنني أيضًا تعيس، وعائلتي أدينت رغم أنها بريئة، فاحكم إذن إن كنتُ لا أشعر بما تعانيه».

- «كيف يُمكنني أن أشكرك أيها الرجل الطيِّب؟ من شفتيك سمعت أولى كلمات العطف الموجهة إليَّ على الإطلاق. إنني ممتن لك إلى الأبد، وإنسانيَّتك تؤكِّد لي نجاحي مع الأصدقاء الذين أزمع اللقاء بهم».

- «هلَّا أخبرتني بأسماء هؤلاء الأصدقاء ومحل إقامتهم؟».

صمتُّ في هذه اللحظة. إنها لحظة الحسم بالفعل التي ستمنحني السعادة أو تحرمني منها إلى الأبد. كافحتُ لأجد الثبات الذي يُمَكِّنني من إجابته، لكن المجهود أتى على كلِّ ما تبقَّى لي من قوَّة. غصتُ في المقعد ونشجتُ بصوتٍ عالٍ، وفي تلك اللحظة سمعت خطوات حُماتي الصغار تقترب. لم تكن لَديَّ ثانية واحدة أفقدها. اعتصرتُ يد الشَّيخ وصِحتُ:

- «الآن! أنقذني واحمني الآن! أنت وعائلتك هُم الأصدقاء الذين أبحث عنهم، فلا تتخلَّ عني في لحظة الحقيقة!».

صاح الشَّيخ:

- «يا إلهي! من أنت بالضبط؟».

لحظتها انفتح باب الكوخ، ومنه دلفت أجاثا وصافي وفيلكس.

من يُمكنه وصف رُعبهم إثر رؤيتي؟ أجاثا خرَّت فاقدة الوعي، وصافي لم تقدر على إنعاش صديقتها، فهُرِعَت خارجة من الكوخ، بينما انقض عليَّ فيلكس، وبقوَّةٍ فوق طبيعيَّة أبعدني عن أبيه الذي تشبَّثتُ بركبتيه، لكنه دفعني في ثورة وضربني بعصاه بعنف. كان يُمكنني تمزيقه إربًا كما يفعل الأسد مع الظباء، لكن قلبي هوى بين قدميَّ في ضعف. رأيته على وشك أن يهوي بضربةٍ أخرى، لكنني تملَّصتُ منه مدفوعًا بالألم، وهُرِعتُ مغادرًا الكوخ، ولم يلحظني أحدهم خلال الجلبة الحادثة وأنا أَتسلَّل إلى الزريبة».

twitter @baghdad_library

الفصل السادس عشر

«ملعونٌ يا صانعي، ملعون! لماذا بقيتُ حيًّا؟ لماذا لم أطفئ لحظتها جذوة الحياة التي منحتَني إياها بكلِّ وحشيَّتك؟ لا أدري.

لم يكن اليأس قد سيطر عليَّ بَعد، لكن مشاعري كانت مشاعر غضب وانتقام قمينة بأن تجعلني -بكلِّ سرور- أهدم الكوخ على من فيه بينما يُطرِبني صوت صراخهم.

خرجتُ من مكمني مع مجيء الليل، وذهبتُ إلى الغابة. والآن وقد أصبحتُ غير خائفٍ من اكتشاف أمري، أطلقتُ العنان لألمي في صرخاتٍ مخيفةٍ طويلة. كنتُ كحيوانٍ برِّي تحرَّر من قفصه، أدمِّر الأشياء التي تعترض طريقي وأنا أقطع الغابة بسرعة حصانٍ قوي. يا لها من ليلةٍ بائسةٍ تلك التي قضيتها! تألَّق ضوء النجوم البارد في سخرية، وحرَّكَت الأشجار العارية فروعها فوقي، ومن حينٍ إلى آخَر ينطلق صوت طائرٍ جميل من قلب الكون الصامت. الجميع فيما عداي كانوا في راحةٍ أو متعة، أما أنا، كالشيطان الأكبر[1]، فكانت نيران الجحيم مستعرَّة في أعماقي؛ ومن فرط وحدتي وألمي تمنَّيتُ لو أنتزع كلَّ

(1) من «الفردوس المفقود».

الأشجار من جذورها، وأن أنشر الفوضى والدمار حولي، وبعدها أجلس وأستمتع بالخراب.

لكن ذلك كان ترفًا عاطفيًّا غير قابلٍ للاستمرار. الإرهاق الجسدي والنفسي كان عظيمًا، لدرجة أنني تهاَويتُ على الأرض الرطبة من فرطه. لا يوجد واحد فقط من بين جحافل البَشَر يرغب في الشفقة عليَّ أو معاونتي، فهل يَجدُر بي أن أشعر بالعطف على أعدائي إذن؟ بالطبع لا. في تلك اللحظة أعلنتُ حربًا دائمةً على الإنسان، والأهم أنني أعلنتها على ذلك الذي جمع أجزائي وتركني في بؤسٍ لا يُطاق.

أشرقَت الشمس، وسمعتُ أصوات رجالٍ بالقُرب من مكاني، فأدركتُ أنه من المستحيل أن أعود إلى مكمني خلال النهار، ومن ثم أخفيتُ نفسي بين مجموعةٍ من الشُّجيرات الكثيفة، مُقرِّرًا أن أستغل الساعات القادمة في التفكير في موقفي.

أعاد إليَّ ضوء الشمس والهواء النقي شيئًا من الهدوء، وحين فكَّرتُ فيما حدث في الكوخ لم أملك سوى الاعتقاد بأنني تسرَّعتُ فيما فعلت، وأنني تصرَّفتُ بحماقةٍ لا شَكَّ فيها. كان من الواضح أن كلامي قد أثَّر في الأب وجعله يميل إليَّ، لكني تحامقتُ بالكشف عن نفسي للأبناء وإصابتهم بالرُّعب. كان يَجدُر بي أن أُعوِّد دو لاسي عليَّ أولًا، ثم أكشف عن نفسي تدريجيًّا لبقيَّة أفراد العائلة عندما يكونون مستعدِّين لأن أفاتِحهم بأمري. لكنني، بأية حال، لم أحسب أن أخطائي غير قابلة للإصلاح، وبعد تفكيرٍ عميق قرَّرتُ أن أعود إلى الكوخ وأبحث عن الشَّيخ وأضُمَّه إلى صفِّي.

مدَّتني هذه الأفكار بالسَّكينة، ومع حلول الظهيرة كنتُ غائبًا في نوم عميق. لكن الانفعال الذي في دمي لم يمنح الأحلام الجميلة فرصةً لزيارتي، وأحداث اليوم السابق الرهيبة راحت تدور أمام عينيَّ مرارًا

twitter @baghdad_library

وتكرارًا، بالذات مشهد الأنثيين وهما تفران، وفيلكس وهو ينتزعني عن ساقي أبيه. استيقظتُ شاعرًا بالإرهاق، وكان الليل قد جاء، فخرجتُ من مكمني بحثًا عن الزاد، وعندما شعرتُ بالشبع سُقت نفسي إلى الطريق الذي يُفضي إلى الكوخ، والذي صرتُ أحفظه عن ظَهر قلب. كلُّ شيء هناك كان في سكون. زحفتُ إلى الحظيرة، وانتظرتُ الساعة المعتادة التي يستيقظ فيها أفراد العائلة. فاتت الساعة، وصعدت الشمس عاليًا في السماء، لكن أهل الكوخ لم يظهروا. ارتعدتُ في عنفٍ خشية حدوث شيءٍ سيئ. الكوخ من الداخل كان مظلمًا، ولم أسمع حركة واحدة؛ ولا يُمكنني وصف توتُّري في هذه الأثناء.

بعد قليل مَرَّ رجلان ريفيان وتوقَّفا أمام الكوخ ليتكلَّما بصوتٍ مرتفع ويستخدما إيماءاتٍ عنيفة، لكني لم أفهم شيئًا من كلامهما لأنهما كانا يتكلَّمان بالألمانيَّة التي تختلف عن لغة حُماتي. لم يَطُل الوقت بأية حال قبل أن يظهر فيلكس مع رجلٍ آخَر. أدهشني هذا، لأنني خلتُ أنه لم يخرج من الكوخ هذا الصباح، وانتظرتُ في قلقٍ ما ستُسفِر عنه المحادَثة.

قال الرجل لفيلكس:

- «هل أخذت بعين الاعتبار أنكم ملزَمون بدفع إيجار ثلاثة أشهُر، بالإضافة إلى خسارة محصول الحديقة؟ لستُ أحاول استغلال الموقف، ولهذا أناشدك بأن تستغرق بعض الوقت في التفكير في قرارك».

أجاب فيلكس:

- «لا فائدة، ولا يُمكنني سُكنى هذا الكوخ بعد اليوم. حياة أبي في خطر محدق كما رويتُ لك، وزوجتي وأختي لن تتغلَّبا على رُعبهما أبدًا. أرجوك، لا تحاول ثَنيي عن قراري. استرد مسكنك، ودعنا نفر من هذا المكان».

كان يرتجف في قوَّةٍ وهو يتكلَّم. دخل مع رفيقه إلى الكوخ، وغابا في الداخل لعدَّة دقائق، ثم خرجا ورحلا؛ ولم أرَ عائلة دو لاسي بعدها مُطلقًا.

قضيتُ بقيَّة اليوم في الزريبة في حالةٍ من اليأس الغبي. حُماتي رحلوا وقطعوا آخِر صِلَةٍ لي بالعالم، وللمرَّة الأولى مُلئ صدري بمشاعر الكراهية والانتقام، ولم أحاول حتى أن أتحكَّم فيها، بل سمحتُ لتيار العنف بأن يجرِفني، واستقرَّت في وجداني فكرة الأذى والموت. عندما فكَّرتُ في أصدقائي، في صوت دو لاسي الرقيق، في عيني أجاثا الجميلتين، في فتنة الفتاة العربيَّة، عادت هذه الأفكار تختفي، وشهقتُ ودموعي تتدفَّق لتُبَرِّد نيران صدري. ثم مرَّة أخرى، مع فكرة احتقارهم لي ورُعبهم مني عاد الغضب. عاد هادرًا لدرجة أنني عندما لم أجد بشريًّا بالقُرب مني لأمزقه إربًا صببت ثورتي على الأشياء التي حولي. مع توغُّلِ الليل كنتُ قد أحطت الكوخ بموادَّ سريعة الاشتعال، وبعد أن دمَّرتُ كلَّ نبتةٍ في الحديقة انتظرتُ في صبر غياب القمر لأبدأ ما عزمت عليه.

توغَّل الليل أكثر، وهبَّت رياح عنيفة من الغابة لتُبَدِّد السُّحُب الكامنة في السماء. اندفع الهواء بسرعةٍ أشبه بسرعة الانهيارات الصخريَّة، وفجَّر في كِياني جنونًا لم يدع مكانًا لعقلٍ أو منطق. أشعلتُ فرع شجرة، ورقصتُ في ثورةٍ حول الكوخ المهجور وعيناي مثبَّتتان على الأفق الغربي الذي كاد القمر يمس حافته. توارى جزء من قرصه في النهاية، ولوَّحتُ بجمرتي. اختفى القمر، وبصرخةٍ متفجِّرة أشعلتُ النار في القَشِّ والنباتات والشجيرات التي جمعتها. اضطرمت النار سريعًا بفِعل الرياح، وسرعان ما توارى الكوخ بين ألسنة اللهب التي تأجَّجت وأخذت تلعقه ثم تلتهمه. ولمَّا أصبحتُ واثقًا من استحالة إنقاذ الكوخ من النيران تركت المكان وبحثتُ عن مأوى في الغابة.

twitter @baghdad_library

والآن والعالم أمامي، فإلى أين تسوقني خطاي؟

قرَّرتُ بالطبع الفرار من المكان الذي شهد مأساتي، لكن بالنسبة لي، أنا المسخ الكريه، كلُّ بلدان العالم سيان.

في النهاية فكَّرتُ فيك. من أوراقك عرفت أنك أبي وصانعي، فأيُّ مكانٍ أنسب لي من مكانك أنت؟ لم يكن فيلكس أثناء دروسه لصافي قد أهمل الجغرافيا، ومنها تعلَّمتُ العلاقات المختلفة بين دول الأرض. لقد ذكرت چنيڤ في أوراقك على أنها بلدتك الأم، ولهذا قرَّرت المضي إلى هناك.

لكن أنَّى لي بإرشاد نفسي؟

كنتُ أعرف أن عليَّ التحرُّك في اتجاه جنوب غربي كي أصل إلى وجهتي، لكن الشمس كانت مُرشدي الوحيد. لم أكن أعرف أسماء البلدان التي سأمرُّ بها، وبالطبع لم يكن بإمكاني طلب أيَّة معلومةٍ من أيِّ إنسان، لكنني لم أيأس مع ذلك. لم يكن لديَّ أمل في عون أيِّ كائنٍ سواك، رغم أن جميع مشاعري نحوك تلخَّصت في الكراهية. يا لكَ من خالق متوحِّش متحجِّر القلب! وهبتني الإدراك والحواس، ثم نبذتني لأصبح منبع احتقار ورُعب الإنسان. منك فقط أستحقُّ الشفقة والتعويض، ومنك فقط قرَّرتُ الحصول على العدالة التي لم أجدها قَطُّ في أيِّ كائنٍ آخَر يكتسي بجِلد الإنسان.

رحلتي كانت طويلة، والآلام التي تحمَّلتها كانت شديدة. كان الخريف في نهايته بالفعل عندما خرجتُ أخيرًا من البلد الذي سكنته طويلًا. سفري كان ليلًا بالطبع، خشية اصطدامي بأيِّ بشري. اضمحلَّت الطبيعة حولي، واختفى من الشمس دفؤها. انهمرَ المطر والثلج عليَّ، وتجمَّدت الأنهار العظيمة، وصارت الأرض سطحًا صلبًا باردًا عاريًا، ولم أجد لي ملاذًا. آه أيتها الأرض! كم صببتُ من

اللعنات على من تسبَّب في وجودي! تلاشى لُطف الطبيعة، وكلُّ شيءٍ في داخلي تحوَّل إلى مرارةٍ وحقد. كلما اقتربتُ من بلدتك أكثر شعرتُ بشرارة الانتقام تَتَّقِد في قلبي. تساقط الثلج وتجمَّدت صفحات المياه، لكني لم أسترِح. مصادفات قليلة صغيرة كانت تقع بين الحين والآخَر لتُرشِدني، واستطعتُ تدبير خريطة للبلاد، لكني كنتُ أبتعد عن مساري أغلب الوقت. مشاعري الجريحة لم تسمح لي براحةٍ إطلاقًا، ولم يقع حادث واحد جعل غضبي يهدأ أو رغبتي في الانتقام تقل. حادث واحد وقع مع وصولي إلى الحدود السويسريَّة، وكان هذا عندما بدأت الشمس في استرجاع دفئها، والأرض في الاكتساء بالأخضر من جديد؛ حادث زاد بطريقةٍ خاصَّة جدًّا ما أحمله من مرارة في صدري.

كنت أستريح عمومًا خلال النهار، ولا أتحرَّك إلا عندما يحتويني الليل ويُخفيني عن عيون البَشَر. ذات صباح وجدتُ أن طريقي يتخلَّل غابة عميقة، فغامرتُ بإكمال رحلتي بعدَ أن أشرقَت الشمس. أثار اليوم، الذي كان أحد أيام الربيع الأولى، فيَّ بهجةً بدِفء شمسه ونعومة هوائه، ووجدَت مشاعر الرِّقَّة والسرور طريقها إليَّ بعد أن كانت قد ماتت منذ وقتٍ طويل. أدهشني تجدُّد هذه المشاعر، لكني سمحتُ لها بأن تحملني، وجرؤتُ على الشعور بالسعادة متناسيًا عُزلتي وبشاعة وجهي. عادت الدموع تسيل على وجنتيَّ، ورفعت عينيَّ المبتلَّتين إلى الشمس التي منحَتني هذا الشعور الجميل بنظرةٍ شاكرة.

استَمَرَّيتُ في الدوران في طُرُق الغابة حتى بلغتُ حدودها التي يطوِّقها نهر عميق سريع المياه تميل عليه الأشجار التي بدأت تورق من جديد مع مجيء الربيع الطازج. توقَّفتُ هناك غير عالمٍ أيَّ طريقٍ أسلك، وكان ذلك عندما سمعتُ أصوات بشريَّة أجبرَتني علىَ المسارعة بإخفاء نفسي في ظلال شجرة سَرو. لم أكن قد أخفيتُ نفسي جيِّدًا بَعد عندما

twitter @baghdad_library

جاءت فتاة صغيرة تركض صوب مكمَني، وكانت تضحك كأنها تجري من شخصٍ يُداعِبها. واصلَت طريقها عبر ضفَّة النهر المنحدِرة، قبل أن تَنزَلِق فَجأةً وتسقط في المجرى السريع. وثبتُ من مكاني، وبجهد جهيد منبعه مكافحتي للتيَّار نجحتُ في إنقاذها وجرِّها إلى الشاطئ. كانت فاقدة الوعي، وحاولتُ بكلِّ ما في استطاعتي أن أنعشها، عندما قاطعني اقتراب رجلٍ ريفي هو غالبًا الشخص الذي كانت تركض منه في مرح. انقض عليَّ إذ رآني، وانتزع الفتاة من بين ذراعيَّ ليندفع بها في الغابة ويغيب معها هناك. تبعته في سرعةٍ ولا أدري لماذا، لكن الرجل عندما رآني أقترب استلَّ مسدسًا وصوَّبه نحوي وأطلق النار. سقطتُ على الأرض، بينما فَرَّ الرجل إلى أعماق الغابة.

هذه إذن مكافأتي على ارتكاب الخير!

أنقذتُ إنسانة من الموت، والجائزة جرح فتَّت اللحم والعظم وجعلني أتلوَّى ألمًا. المشاعر الطيِّبة التي عادت إليَّ لدقائق قليلة انزاحت تمامًا، وحلَّ محلها الغضب الشيطاني وصرير الأسنان من جديد. أشعل الألم فيَّ نارًا لا تُطفَأ، وأقسمتُ على كراهية البَشَر أجمعين إلى الأبد. غلبني ألم الجرح، وضعفت نبضات قلبي، وسقطتُ فاقدًا الوعي.

أسابيع عدَّة انقضت في حياةٍ بائسةٍ في الغابة وأنا أحاول تطبيب الجرح الذي أصِبتُ به. الطلقة اخترقت كتفي، ولم أدرِ إن كانت قد ظلَّت هناك أم عبرته إلى الجانب الآخَر، وعلى كلِّ حالٍ لم تكن لديَّ وسيلة لاستخراجها. معاناتي زادها الإحساس المؤلم بالظُّلم من جحود الإنسان، وصرتُ أقسم يوميًّا إنني سأنتقم انتقامًا مميتًا لن يُرضيني أقل منه.

اندمل الجرح بعد عدَّة أسابيع وواصلتُ رحلتي. لم يَعُد بإمكان

الشمس المشرِقة أو النسيم الرقيق التخفيف من آلام قلبي وروحي، وكلُّ بهجةٍ في العالم صارت سخرية مني ومن عُزلتي، وتعاظَم شعوري بأنني لم أُخلَق لأعرف الراحة.

لكن رحلتي المتعِبة شارفَت على الانتهاء على كلِّ حال، وبعد شهرين بلغتُ ضواحي چنيڤ.

وصلتُ هناك مساءً، ولجأتُ إلى مخبأٍ في الحقول المحيطة بالمدينة لأفكِّر في الطريقة التي سأصل بها إليك. كنتُ أعاني التعب والجوع، ومزاجي لا يسمح بالاستمتاع بالنسيم الليلي، أو بفكرة غياب الشمس خلف جبال چورا الشامخة. أعفتني سِنَة نومٍ خفيفة من عناء التفكير، لكن نومي قطعه اقتراب طِفلٍ جميل من التجويف الذي اخترته لراحتي. كان يَركُض بكلِّ مرح الطفولة، وفجأة وأنا أتطلَّع إليه استحوذَت عليَّ فكرة أن هذا المخلوق الصغير لا يعرف معنى التحيُّز، وأن سنوات عمره القليلة لم تسنح له بإدراك معنى الخوف من الأشكال القبيحة، ومن ثم، إذا استطعت التفاهُم معه وجعله رفيقًا وصديقًا لي، فلن أكون وحدي بالكامل في هذه الأرض العامرة بالناس.

استحثَّتني هذه النزوة على مَدِّ يدي والإمساك بالطِّفل وهو يَمُرُّ بي، لكنه بمجرَّد أن رآني وضع يديه على عينيه وأطلق صرخة مروِّعة. أبعدتُ يديه في قوَّة عن عينيه، وهتفتُ:

- «مهلًا أيها الصغير. لست أريد إيذاءك. اسمعني».

قاومني بعنف صارخًا:

- «دعني! اتركني أيها الوحش القبيح! إنك تريد تمزيقي والتهامي! أنت غول! دعني وإلا سأنادي أبي!».

- «لن ترى أباك بعد الآن أيها الطِّفل. يجب أن تأتي معي».

twitter @baghdad_library

- «أيها الوحش البشع! إليك عني! إن أبي هو القاضي فرانكنشتاين وسيُعاقِبك. لست تجرؤ على اختطافي!».

- «فرانكنشتاين؟! أنت من ذوي عَدُوِّي إذن، عَدُوِّي الذي أقسمتُ على الانتقام منه. ستكون ضحيَّتي الأولى».

ظَلَّ الطِّفل يُقاوِم ويُمطِرني بالسباب الذي زاد من يأسي. أمسكتُ بعنقه كي أجعله يصمت، وبعد لحظةٍ واحدة كان قد سقط ميتًا عند قدميَّ.

تطلَّعتُ إلى ضحيَّتي، وامتلأ قلبي بنشوة ظفرٍ شيطانيَّة. صفَّقتُ بيديَّ وصرختُ:

- «أنا أيضًا قادرٌ على الدمار! عَدُوِّي ليس بلا نقاط ضعف. سيذبحه هذا الموت، وسيتبعه ألف موتٍ آخَر يذيقه الويل!».

عُدتُ أنظر إلى الصبي، ورأيتُ شيئًا يلتمع على صدره فأخذته. كان صورة مرسومة لامرأةٍ بارعة الحُسن، ورغم حقدي العارم جذبتني ملامح السيِّدة وجعلتني أهدأ قليلًا. للحظاتٍ قليلة رمقتُ عينيها السوداوين اللتين تظلِّلهما أهداب عميقة وشفتيها الجميلتين. لكن غضبي عاد من جديد. تذكَّرتُ أنني محروم إلى الأبد من المسرَّات التي تمنحها مخلوقة جميلة كهذه، وأنها إذا رأتني فبالتأكيد ستستحيل ملامحها من الرِّقَّة والوداعة إلى الاشمئزاز والرُّعب.

هل تتساءل إن كانت تلك الأفكار قد ملأتني غضبًا؟

إنني أتساءل الآن.. لماذا، بدلًا من تفريغ مشاعري بالصراخ والألم، لم أنقضّ على البشر وأهلك وأنا أحاول تدميرهم؟

بينما تغمرني هذه الأفكار تركتُ البُقعة التي ارتكبتُ فيها الجريمة، وبحثتُ عن مكانٍ أكثر عُزلةً حتى وجدتُ حظيرة بدت لي خاوية، قبل أن أرى امرأة نائمة على كومة من القش. كانت شابَّة، وليست في جمال

السيِّدة التي حملتُ صورتها، لكن ملامحها كانت متناسقة جذَّابة وتشع شبابًا وصِحَّةً. فكَّرتُ حينها في أنها واحدة من اللاتي تصيب ابتساماتهن الجميع سواي.

عندها مِلتُ عليها وهمستُ في أذنها:

- «أفيقي أيتها الحسناء، فإن حبيبكِ قريب، حبيبكِ الذي سيُضَحِّي بحياته لينال منكِ نظرة عطفٍ واحدة. أفيقي يا حبيبتي!».

تحرَّكت النائمة، وسرت رعدة خوف في جسدي.

هل ستفيق بالفعل وتراني وتلعنني وتنعتني بالقاتل؟

كانت لتفعل هذا بالتأكيد إذا فتحت عينيها النائمتين ورأتني. أصابتني الفكرة بالجنون، وأيقظَت المسخ بداخلي. هي التي ستدفع ثمن الجريمة التي ارتكبتها، لأنني محروم إلى الأبد مما يُمكنها أن تمنحني إياه. هي ستدفع الثمن. إن الجريمة في دمها، فليكن العقاب من نصيبها إذن!

شكرًا لدروس فيلكس وقوانين الإنسان الوحشيَّة، فمنها تعلَّمتُ كيف أرتكب الآثام بيدي. مِلت عليها ووضعتُ الصورة بين طيَّات ثوبها، فتحرَّكت من جديد، ولُذت أنا بالفرار.

لازمتُ المكان الذي دارت فيه هذه الأحداث عدَّة أيام، أحيانًا أتمنى رؤيتك، وأحيانًا أقرِّر أن أعتزل العالم وبؤسه إلى الأبد. في النهاية جُلتُ نحو هذه الجبال، وطُفتُ في أعماقها السحيقة تلتهمني رغبة حارقة لا يُمكن لسواك إشباعها. لن نفترق قبل أن تُذعِن لطلبي. إنني وحيد بائس، والإنسان لا يمنحني شفقته مقدار ذَرَّة، لكن مخلوقة شائهة مخيفة مثلي لن تتمنَّع عني. رفيقتي يجب أن تكون من نوعي نفسه وبعيوبي نفسها.. وأنت ستصنع لي هذه المخلوقة».

twitter @baghdad_library

الفصل السابع عشر

أنهى الكائن قِصَّته، وسلَّط نظراته عليَّ منتظرًا إجابة، لكني كنتُ مرتبِكًا مشوَّشًا، وغير قادرٍ على ترتيب أفكاري بما يكفي لاستيعاب طلبه بشكلٍ كامل.

استطرد هو:

- «يجب أن تصنع لي أنثى أتبادل معها العلاقات الضروريَّة لوجودي. أنت وحدك يُمكنه أن يفعل هذا، وأطالبُ به كحقٍّ لا يُمكنك التنصُّل منه».

كان الجزء الأخير من حكايته قد عاد يُشعِل في داخلي الغضب الذي كان قد توارى بينما يحكي عن حياته المسالمة مع أهل الكوخ، ومع قوله الأخير لم أستطِع كبح جماح ثورتي، وصحتُ:

- «إنني أرفضُ مطلبك بالطبع، ولن تنجح في إجباري على الرضوخ إليه حتى بالتعذيب. يُمكنك أن تجعلني الأكثر بؤسًا بين البَشَر أجمعين، لكنك لن تجعلني أنظر إلى نفسي باحتقار. تريدني أن أصنع لك واحدة مثلك تنضمُّ إليك في تدمير العالم؟ ارحل! هذا جوابي، ويُمكنك تعذيبي إذا شِئت، لكني لن أذعن أبدًا».

أجاب المسخ:

- «إنك مخطئ، وإنني أتفاوضُ معك بدلًا من التهديد. إنني حقودٌ لأني بائس، وكيف لا والبَشَر جميعًا يكرهونني ويتجنَّبونني؟ أنت يا صانعي ترغب في تمزيقي إلى أشلاء وتحتفل بالنصر. تذكَّر ذلك وقُل لي: لماذا أرفق بالإنسان أكثر مما يرفق بي؟ لماذا أرحمه وأنا لم أرَ منه رحمة؟ إنك لن تعتبرها جريمة قتلٍ إذا ألقيت بي في هاويةٍ جليديَّة ودمَّرتني وأنا نتاج عمل يديك، فهل تريدني أن أحترم الإنسان وهو يَنبذني؟ دع البَشَر يعيشون معي في وُدٍّ متبادَل، وبدلًا من إيذائهم أعدك أنني سأساعِدهم بكلِّ ما أملكُ من طاقةٍ ودموع الامتنان في عينيَّ لقبولهم لي بينهم. لكن هذا لن يكون، أليس كذلك؟ إن حواس وأحاسيس الإنسان ذاتها أكبر عائق لا يُمكن تخطِّيه. إلا أن أحاسيسي أنا لن تكون أحاسيس الرضوخ للاستعباد المهين. سأنتقمُ لجراحي، وطالما لا أستطيع العثور على الحُب، فسأنشرُ الخوف. سأنشره حولك أنت بالتحديد يا عَدُوِّي الأول، لأنني أقسمتُ على كراهيةٍ بلا نهايةٍ وبلا حدود. احترس إذن، لأنني سأعملُ على دمارك الشامل، ولن أتوقَّف حتى يتعفَّن قلبك فتلعن ساعة ميلادك».

كان يرتجف في غضبٍ عارم وهو يقول هذه الكلمات الرهيبة، وسرَت في وجهه تجاعيدُ أكثر إرعابًا من أن يراها إنسان، لكنه هدَّأ نفسه بعد قليل، وتابَع:

- «لكني أرومُ التفاهُم معك. هذا الانفعال يؤذيني، وأنت تجهل أنك السبب في إفراطي فيه. إذا منحني بشريٌّ واحدٌ لفتة طيِّبة واحدة، فسأردُّها إليه مضاعَفة مئة مرة، بل مئات المرَّات. من أجل هذا البشري الواحد سأعقدُ معاهَدة سلام مع البَشَر كلهم! لكني منغمسٌ الآن في أحلام لا يُمكن أن تتحقَّق. مَا أطلبه منك عادل ومعقول: إنني أطلبُ مخلوقة من الجِنس الآخَر، لكنها بشعة الخلقة مثلي. أجدُ في هذا قليلًا

twitter @baghdad_library

من الرِّضا، لكنه كلُّ ما يُمكنني أن أحصل عليه على كلِّ حال، وسأقنعُ به. صحيحٌ أننا سنكون وحشَين منبوذَيْن من العالم، لكن هذا سيربط بيننا أكثر. حياتنا لن تكون سعيدة، لكنها ستكون غير مؤذية وحُرَّة من البؤس الذي أشعرُ به الآن. اجعلني سعيدًا يا صانعي! اجعلني أمتنّ لك مقابل صنيعٍ واحد! دعني أرى أنني أثير تعاطُف شيءٍ واحدٍ حَي! لا ترفض مطلبي!».

أعترفُ بأنني تأثَّرت. صحيحٌ أن العواقب المحتمَلة لقبولي أثارت فيَّ الرَّجفة عندما فكَّرتُ فيها، لكني شعرتُ بما في ما يقوله من عدالة. حكايته والمشاعر التي بدرت منه الآن أثبتت أنه مخلوق ذو أحاسيس طيِّبة، وبصفتي صانعه كنتُ مدينًا له بكلِّ السعادة التي أستطيعُ منحه إياها.

رأى هو تغيُّر مشاعري، فأكمل:

- «إذا قبلتَ فلن تراني أو يراني إنسان آخَر بعدها أبدًا. سأرحلُ إلى غابات أمريكا الجنوبيَّة العميقة. طعامي ليس طعام الإنسان، ولستُ أقتل الحِملان والماعز لأرضي شهيتي، فجوزات البلوط وثمار التوت تكفي لإشباعي. رفيقتي ستكون مثلي، وستقنع بما أقنعُ به. فِراشنا سيكون من أوراق الشجر الجافَّة، وستُشرِق علينا الشمس كما تُشرِق على الإنسان لتُنضِج طعامنا. الصورة التي أصفها إليك إنسانيَّة مسالمة، ولتعلم أنك إذا رفضتها فلن يكون هذا إلا بدافع القسوة. لكن رغم كلِّ قسوتك عليَّ أرى بعض التعاطُف الآن في عينيك، فدعني أقتنص الفرصة الفريدة وأقنعك بأن تعدني بما أتمنَّاه بكلِّ جوارحي».

أجبته:

- «تعتزم إذن أن تهجر مواضع سُكنى البَشَر، وأن تعيش في البراري حيث لا رفاق لك سوى الدواب. كيف يُمكنك العيش في ذلك المنفى

وأنت تتوق إلى عطف البَشَر وحُبِّهم؟ ستعود ناشدًا هذا من جديد، ولن تجد سوى الاستقبال ذاته، وعندها ستتجدَّد مشاعرك الشريرة، وستكون لديك رفيقة تُعاوِنك على الدمار. لا، هذا لا يُمكن أن يكون. كُفَّ عن الإلحاح، لأني لن أقبل».

– «يا لتقلُّب مشاعرك! منذ دقيقةٍ واحدةٍ فقط تأثَّرت بموقفي، فلماذا تدفع نفسك إلى القسوة عليَّ من جديد؟ أقسم لك بالأرض التي أعيش فيها، وبك أنت يا من صنعتني، أنني مع المخلوقة التي ستصنعها لي سأهجرُ أراضي البَشَر كلها، وأقطنُ أكثر أرجاء العالم عُزلةً. سوف تتلاشى مشاعري الشريرة، لأنني سأجدُ عندها ما يكفيني من عطف! ستَمُرُّ حياتي بهدوء، وفي لحظة موتي لن ألعنك».

كلماته كان لها تأثير غريب عليَّ، ووجدتُ نفسي أتعاطف معه مرَّة أخرى، بل وأرغب في مواساته. لكن عندما نظرت إليه، عندما رأيت الكتلة القذرة التي تتحرَّك وتتكلَّم، شعرتُ بالامتعاض وتغيَّرت مشاعري إلى الخوف والمقت من جديد. حاولتُ كبت هذه المشاعر، وفكَّرتُ أنني مع عدم استطاعتي التعاطفُ معه، فلا حقَّ لي في حرمانه من جُرعة السعادة الصغيرة التي أملك منحه إياها.

قلتُ:

– «تُقسِم إنك لن تؤذي أحدًا، لكن ألم تُظهِر بالفعل شيئًا من الأذى يجعلني لا أثق بك؟ ألا يُمكن أن تكون هذه خدعة تُضاعِف من نصرك مع وجود فرصةٍ وإمكانيَّةٍ أكبر للانتقام؟».

– «وكيف ذلك؟ لا تعبث معي، وإنني لأطالبك بإجابة. بالطبع سيكون الشر والمقت مصيري إذا لم تكن لي روابط وعواطف، لكن حُبَّ مخلوقةٍ أخرى سيطيح بسبب جرائمي من الأساس، وسأُصبِح شيئًا لا يدري بوجوده أحد. إن شروري نتاج للعُزلة الإجباريَّة التي أمقتها، وستظهر فضائلي بالتأكيد إذا تمتَّعتُ بصُحبة من تُشبِهني. عندئذ

twitter @baghdad_library

سأشعرُ بتعلُّق كائنة حسَّاسة بي، وأصبح حلقة في سلسلة الوجود والأحداث التي لا أعدُّ جزءًا منها الآن».

ران الصمت وأنا أفكِّرُ في كلِّ ما قاله والحجج الكثيرة التي ساقها. فكَّرتُ في الوعد بالصلاح الذي بدا منه في بداية وجوده، والتلف التام لكلِّ مشاعرِ الطيبة فيه من جرَّاء الكراهية والنكران اللذين تَلقّاهما من حُماته. لم أُسقِط قوَّته وتهديداته من حساباتي، فالكائن الذي يستطيع الحياة في كهوف الأنهار الجليديَّة وإخفاء نفسه في ثنايا الجبال الشاهقة هو كائن يحوز إمكاناتِ محاوَلة التغلُّب عليها ضربٌ من العبث. بعد صمتٍ طويل قرَّرتُ أنَ العدل الذي يستحقه ويستحقه بنو البَشَر مثلي يُرجِّح كَفَّة انصياعي لمطلبه.

التفتُّ إليه قائلًا:

- «سوف ألبِّي طلبك، فقط إذا أُقسمت لي أن تُغادِر أوربا وكلَّ بقعةٍ يسكنها إنسان إلى الأبد بمجرَّد أن أُسلِّمك أنثى تصحبك في منفاك».

صاح في لهفة:

- «أقسم لك بالشمس والسماوات الزرقاء وبنيران الحُبِّ التي تتَّقد في قلبي أنك لو استجبت لطلبي فلن تراني مرَّة أخرى أبدًا. عُد إلى بيتك واعمل، وسأراقب عملك في شغفٍ وترقُّب، ولا تخشَ ظهوري من جديد إلا عندما تنتهي».

قالها وتركني فجأةً، خائفًا ربما من تراجُعي عن كلمتي. رأيته يهبط الجبل بسرعةٍ أكبر من سرعة النَّسر، وغاب سريعًا في تموُّجات اليَمِّ الجليدي.

استغرقَت حكايته النهار كله، وكانت الشمس تميل إلى المغيب بالفعل عندما رحل. كنتُ أعرف أنني يجب أن أسرع في نزولي إلى الوادي، فعما قريب سيكتنفني الظلام، لكن قلبي كان مثقلًا وخطواتي بطيئة. الجهد النابع من نزول طرقات الجبل الملتوية واضطراري

لتثبيت قدميَّ أربكني، خصوصًا مع انشغالي بالمشاعر التي تسبَّبت فيها أحداث اليوم. كان الليل قد توغَّل بالفعل عندما بلغتُ مُنتَصَف الطريق وجلستُ إلى جوار ينبوع. كان ضوء النجوم يأتي متقطِّعًا مع مرور السُّحُب أمامها، وأشجار الصنوبر الداكنة ترتفع أمامي، وبين المكان والآخَر كنتُ أرى شجرة مكسورة على الأرض. كان مشهدًا شديد المهابة حرَّك في داخلي أفكارًا غريبة.

بكيتُ في مرارة، وشبكتُ يديَّ هاتفًا:

– «أيتها النجوم والسُّحُب والرياح، إنك تسخرين مني. إن كنت تُشفقين عليَّ حقًّا، فاسحقي مشاعري وذكرياتي. اجعلي مني عدمًا. وإذا لم تفعلي، فارحلي. ارحلي واتركيني في الظلام!».

كانت أفكاري قاسية بائسة، لكني لا أستطيع أن أصف لك الثقل الذي أشعرني به ضوء النجوم، وكيف أصغيتُ لكلِّ هبَّة ريحٍ كأنها إعصار آتٍ ليقتلعني.

جاء الصباح قبل بلوغي قرية شاموني. لم أسترِح، بل عُدتُ في الحال إلى چنيف. لم أستطِع تفسير المشاعر التي اعتملت في قلبي وأثقلتني كأنها جبل لتُدَمِّر ألمي أسفلها. هكذا عُدتُ إلى بلدتي، ودخلتُ بيتي مقدِّمًا نفسي للعائلة. إنهاكي ومنظري المزري أيقظا فيهم خوفًا شديدًا، لكنني لم أجِب على أيِّ سؤال، واكتفيتُ بنُدرة الحديث. كنتُ أشعر كأنَّ لعنة قد حلَّت بي، وكأنني لم أعد أملك الحق في تعاطُفهم، وكأنني لن أستمتع بصحبتهم بعدها أبدًا. لكنني كنتُ أحبهم من أعمق أعماق قلبي، ولأنني يجب أن أنقذهم كان يجب أن أكرِّس نفسي لمهمَّتي الشنيعة. احتلَّت هذه الفكرة كِياني كله، وجعلت كل تفاصيل الحياة الأخرى تمر أمامي كالحُلم، حتى صارت هي الحقيقة الوحيدة.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن عشر

قضيتُ في چنيڤ يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع دون أن أستطيع استجماع شجاعتي لبدء عملي. كنتُ خائفًا من انتقام المسخ مع إصابته بخيبة الأمل، لكني كنتُ كارهًا أيضًا للمهمَّة التي فُرِضَت عليَّ. وجدتُ أنني لا أستطيع صُنع أنثى دون العودة إلى الدراسة الدقيقة والبحث المُجهِد من جديد. كنتُ قد سمعتُ عن اكتشافاتٍ توصَّل إليها فيلسوف إنجليزي، ومعرفتي بها كانت مهمَّة لنجاحي، وفكَّرتُ في الحصول على إذن أبي بزيارة إنجلترا من أجل هذا الغرض، لكنني تشبَّثتُ بكلِّ فرصةٍ للتأجيل، ونفرتُ من اتِّخاذ الخطوة الأولى في المشروع الذي بدأت أهميَّته الفوريَّة تبدو لي غير مُطلَقة. بالطبع حدثت تغييرات في شخصي في تلك الفترة، فصِحَّتي التي كانت في تدهوُر تحسَّنت بشكلٍ كبير، وروحي المعنويَّة كانت مرتفِعة كلما غابت عني أفكار وعدي التَّعِس.

سُرَّ أبي برؤيته لهذا التغيير، وسلَّط أفكاره على العثور على أفضل طريقةٍ لاستئصال ما تبقَّى من كآبتي التي كانت تعود في نوباتٍ بين الحين والآخَر لتُغَلِّف وجه الشمس بسحابةٍ من السواد. في تلك اللحظات كنتُ ألوذُ بالوحدة التامَّة، وأمضي أيامًا كاملةً في قاربٍ صغيرٍ

في البحيرة أشاهِد السُّحُب وأصغي إلى تموُّج المياه في صمتٍ وكسل. لكن نادرًا ما فشل الهواء النقي وضوء الشمس المشرق في ردِّي إلى هدوئي، ومع عودتي كنتُ أجد ابتسامة أصدقائي في استقبالي، فكنتُ أقابلها ببشاشةٍ وقلب أكثر بهجة.

كنتُ قد عُدتُ من واحدةٍ من هذه الجولات عندما انتحى بي أبي رُكنًا وقال:

- «يُسعِدني أن أراكِ تعود إلى نفسك القديمة يا بني، لكنك ما زلت غير سعيد وتتجنَّب صُحبتنا. لبعض الوقت احترتُ في سبب هذا، لكن فكرة راودتني بالأمس، وإذا كانت صائبة فأريدكَ أن تعترف بهذا. التحفُّظ على نقطة كهذه لن يكون عديم الفائدة فحسب، بل سيُضاعِف حزننا ثلاثًا».

ارتجفتُ بقوَّة مع الديباجة التي بدأ بها حديثه، بينما تابَع هو:

- «أعترفُ بأنني تطلَّعتُ دائمًا إلى زواجك من عزيزتنا إليزابث كمعادِلٍ لراحتنا ودعامةٍ لسنِّي المتقدِّمة. إنكما مرتبطان يبعضكما البعض منذ الطفولة. درستما معًا، وذوقكما ونزعاتكما تُآلِف بينكما. لكن خبرة الإنسان محدودة، فربما يكون الشيء الذي حسبته أفضل مُعينٍ لخُطَّتي هو ما سيدمِّرها تمامًا. لعلك تنظر إليها على أنها أختك فقط دون أيِّ رغبةٍ في أن تُصبِح زوجتك، بل ولعلك التقيت بفتاةٍ أخرى تحبها، وباعتبار أنك مرتبط بإليزابث، فلربما كان هذا الصراع الداخلي هو سبب البؤس الذي يبدو أنك تعانيه».

- «اطمئن يا أبي. إنني أحب ابنة عمي من كلِّ قلبي، ولم أرَ امرأة تُثير بداخلي كلَّ هذه المشاعر الدافئة مثلما تفعل إليزابث. إن آمالي المُستَقبَليَّة كلها مبنيَّة على ارتباطنا».

twitter @baghdad_library

- «تعبيرك عن عواطفك هذه يا عزيزي ڤيكتور يمنحني سعادة لم أشعر بها منذ وقتٍ طويل. طالما هذا شعورك، فسنسعد بالتأكيد مهما كانت الأحزان التي سبَّبَتها الأحداث الأخيرة. لكن الأحزان هي التي تبدو كأنها سيطرت على عقلك وأبغي طردها. قُل لي إذن إن كنت تعترِض على الاحتفال بمراسم الزفاف قريبًا. لقد أصابنا حظٌّ عاثر، والأَحداث الأخيرة سلبتنا السَّكينة المعتادة التي أحتاجها في شيخوختي ومرضي. إنك شاب، لكنني لا أعتقد أن الزواج المبكِّر -رغم الثروة الكبيرة التي تملكها- سيتعارض مع أيٍّ من خُططك المُستَقبَليَّة للمنفعة والمجد. لكن لا تحسب أنني أفرِض عليك شيئًا، أو أن أيَّ تأخيرٍ من جانبك سيُزعِجني. تَرجِم كلماتي وأجِبني بإخلاصٍ وثقة».

أصغيتُ إلى أبي بصمت، وظللتُ بعض الوقت غير قادرٍ على أن أمنحه ردًّا. أدرتُ في رأسي حشدًا من الأفكار بسرعة، وحاولتُ التوصُّل إلى نتيجة. تبًّا! فكرة زواجي العاجل من إليزابث كانت في حَدِّ ذاتها مرعِبة. كنتُ مرتبطًا بوعدٍ لم أفِ به بَعد وليس بمقدوري النكوص به. وإذا نكصتُ به، فأيُّ هولٍ سيحل بي وبعائلتي؟ هل يُمكنني بدء الاحتفال وهذا الثقل المميت يتعلَّق بعُنُقي ويجذبني إلى الأرض؟ يجب أن أقوم بما يجب أن أقوم به وأدع الوحش يرحل مع رفيقته قبل أن أسمح لنفسي بالاستمتاع بسعادة الزواج الذي ربما يمنحني السلام والطمأنينة.

تذكَّرتُ أيضًا ضرورة السفر إلى إنجلترا، أو الدخول في عملية مراسَلة طويلة مع فلاسفة هذا البلد الذين لمعارفهم واكتشافاتهم أهميَّة لا يجب إغفالها في مهمَّتي الحاليَّة. الطريقة الثانية للحصول على المعلومات المطلوبة كانت بطيئة ممضَّة، كما أنني كنتُ أمقت فكرة الانشغال في عملي المقزِّز في بيت أبي وأنا أمارس حياتي اليوميَّة مع

من أُحِبُّهم. كنتُ أعرف أن ألف حادثةٍ مخيفة قد تقع، أقلها سيَصِم كلَّ من يرتبطون بي بالرُّعب إلى الأبد، وكنتُ أدرك أيضًا أنني سوف أفقد كثيرًا سيطرتي على نفسي، وعلى كلِّ قُدرةٍ على السيطرة على المشاعر المتدفِّقة التي ستنتابني خلال عملي المريع. يجب أن أعزل نفسي عن جميع من أحب خلال انشغالي، يجب. بمجرَّد أن أبدأ فسوف أنتهي سريعًا، وبعدها أعود إلى حياتي الهانئة مع أهلي، وبمجرَّد أن أفي بوعدي سيرحل الوحش إلى الأبد، أو -هكذا صوَّرت لي مخيِّلتي الحمقاء- قد يقع له حادث ما تكون فيه نهايته ونهاية استعباده لي.

أملَت هذه المشاعر عليَّ إجابتي لأبي. عبَّرتُ عن رغبتي في زيارة إنجلترا، لكني أخفيتُ بالطبع السبب الحقيقي وراء هذه الزيارة، وتحجَّجتُ بأسباب لا تثير أيَّ شكوك، بينما غلَّفتُ مطلبي بجِدِّيَّةٍ أغرت أبي بالموافَقة. بعد فترةٍ طويلةٍ من الاكتئاب الذي كاد يبلغ حدَّ الجنون في قوَّته وتأثيره شعر أبي بالسرور لمعرفته بأنني ما زلتُ قادرًا على الاستمتاع برحلةٍ كهذه، وبالأمل في أن تغيير المناظر المحيطة والتسالي المختلفة سيردني إلى نفسي القديمة قبل عودتي.

تُرِكَت فترة غيابي لتقديري الشخصي، وكنتُ أنوي التغيُّب لبضعة شهورٍ أو عام على الأكثر. إجراء أبوي واحد اتَّخذه أبي دون الرجوع إليَّ، فقد اتَّفقَ مع إليزابث على أن يلقاني رفيق لرحلتي في ستراسبوج، وهذا الرفيق كان هنري كليرڤال بالطبع. كان هذا يتعارض طبعًا مع العُزلة التي أنشدها من أجل إتمام عملي، لكنني وجدتُ مع بداية رحلتي أن وجود صديقي ليس بعائقٍ بأيِّ حالٍ من الأحوال، والحق يُقال إنني شعرتُ بالسرور لإعفائي من ساعاتٍ طويلة أقضيها في الوحدة والتفكير الكفيل بإصابتي بالخبال. كلا، قد يمنع وجود هنري تطفُّل خصمي، فمن الوارد جدًّا أن يظهر وأنا وحيد ليُذَكِّرني بمهمَّتي أو

twitter @baghdad_library

يُراقِب تطوُّر العمل. إلى إنجلترا إذن بدأت رحلتي، وكان من المتَّفَق عليه أن يتم زواجي من إليزابث فور عودتي. سِنُّ أبي المتقدِّمة جعلته كارهًا بشدَّة لفكرة التأجيل أكثر من ذلك، أما أنا فقد وعدتُ نفسي بجائزةٍ واحدةٍ أتلقَّاها مقابل جهودي المنفِّرة ومعاناتي التي بلا مثيل: أنني سأنال إليزابث وأنسى الماضي معها بعد أن أُعتَق من عبوديَّتي للمسخ.

أعددتُ العدَّة لرحلتي، لكن شعورًا واحدًا طاردني بإصرار وملأني بالخوف والوجل. خلال غيابي سأترك أصدقائي غير واعين بوجود عَدُوِّهم، وغير محميين ضد هجماته إذا ما أثار رحيلي سخطه. لكنه وعد بأن يتبعني حيثما ذهبت، فما الذي يمنع أن يتبعني إلى إنجلترا؟ كانت هذه الفكرة مخيفة في حَدِّ ذاتها، لكنها في الوقت ذاته مطمئِنة بافتراضها سلامة أصدقائي ضمنيًّا. أقلقتني فكرة أن يحدث العكس، لكن طوال الفترة التي كنتُ فيها تحت سيطرة كائني سمحتُ لنفسي بأن توجِّهها دوافع ومشاعر اللحظة، ومشاعري الحاليَّة كانت تُرَجِّح بقوَّةٍ أن المسخ سيتبعني ويعفي أصدقائي من خطر مكائده وشروره المستطيرة.

في الأسبوع الأخير من سبتمبر تركتُ بلدي مرَّة أخرى. رحلتي جاءت بِناءً على رغبتي، ولهذا أذعنَت إليزابث، لكنها كانت قلقة من فكرة معاناتي وحدي بعيدًا عنها. كان مجيء كليرفال معي من تدبيرها، لكن الرجل يكون أعمى عن آلاف التفاصيل الصغيرة التي تشي باهتمام المرأة المتواصِل. كانت تريد أن تُناشِدني بالإسراع بعودتي، لكن ألف إحساسٍ متضارِبٍ جعلها تصمت وهي تودِّعني وداعًا صامتًا دامِعًا.

ألقيتُ بنفسي في العربة التي ستحملني دون أن أدري حتى إلى أين سأذهب، وغير مبالٍ بالمَشاهد التي أمر بها. فقط تذكَّرتُ -في مرارة

موجعة- أن أطلب حزم عُدَّتي الكيميائيَّة معي. هكذا، مليئًا بالخيالات الموحشة، مررتُ بمَشاهدِ جميلةٍ كثيرة، لكن عينيَّ كانتا معميَّتين عنها، ولم أستطِع سوى التفكير في أسفاري والعمل الذي سيشغلني طوالها.

بعد أيامٍ انقضت دون أحداثٍ وقطعتُ فيها مسافاتٍ طويلة وصلتُ إلى ستراسبوج حيث انتظرتُ كليرڤال ليومين. جاء أخيرًا، ويا للاختلاف الذي كان بيننا! كلُّ مشهدٍ كان يُجَدِّد فيه الحياة، والمرح كان يملأه عندما يرى مشهد الشمس الغاربة، ويملأه أكثر وأكثر عندما يراها تُشرِق لتبدأ يومًا جديدًا. كان يشرح لي اختلاف الألوان في الموجودات المحيطة وفي السماء، وأحيانًا كان يهتف في نشوة:

- «هذه هي الحياة، وهكذا أستمتع بالوجود!».

وأحيانًا يقول:

- «لكنك مكتئب حزين دائمًا يا عزيزي فرانكنشتاين».

والحق أنني كنتُ غارقًا في الأفكار السوداء، فلم أرَ اختفاء نجوم المساء ولا شروق الشمس الذهبي على صفحة نهر الراين. ستندهش يا صديقي من كليرڤال الذي استمتع بالمناظر الجميلة بعينٍ حسَّاسة بدلًا من الإصغاء إلى صوت أفكاري التي هي أفكار كائنٍ بائس حلَّت به لعنة سلبته القُدرة على الاستمتاع بأيِّ شيء.

اتفقنا على عبور الراين في قاربٍ من ستراسبوج إلى روتردام، ومنها إلى لندن في سفينة. مررنا في رحلتنا النهريَّة بالكثير من الجُزُر الملأى بأشجار الصفصاف، ورأينا العديد من المُدُن الجميلة. مكثنا في مانهايم يومًا واحدًا، ثم في اليوم الخامس بعد رحيلنا من ستراسبوج وصلنا إلى ماينتس التي بعدها يُصبِح مجرى الراين في أبهى صُوره. يجري النهر بسرعة، ويتلوَّى بين تلالٍ ليست عالية، لكنها منحدِرة جميلة الأشكال.

twitter @baghdad_library

رأينا الكثير من أطلال القلاع على حواف الجروف، تحيط بها غابات سوداء مرتفعة الأشجار. يحتوي هذا الجزء من الراين بالتحديد على سيمفونيَّة من الألوان والأشكال. في بُقعةٍ منه ترى تلالًا وعرة وأطلال قلاع وحصونٍ تُطِلُّ على جروفٍ شاهقةٍ ومياه الراين الداكنة تتدفَّق أسفلها، ومع الانعطاف المفاجئ بعد مرورك بنتوءٍ كبير تحتل المشهد حقول كروم خصبة وضفاف منحدِرة خضراء وبلدان عامرة بالسكان.

كنا نرتحل في موسم القطاف، وسمعنا أغاني المزارعين والتيار يحملنا، وحتى أنا شعرت بالسرور رغم الأفكار الكئيبة المسيطِرة على عقلي. تمدَّدتُ في قاع القارب، ورمقتُ السماء الزرقاء الخالية من السَّحاب، والتي بدت كأنني أمتصُّها امتصاصًا في سَكينة صارت غريبة عليَّ منذ زمن.

وإذا كانت هذه أحاسيسي أنا، فمن يُمكنه وصف أحاسيس هنري؟

كان يشعر كأنه انتقل إلى أرضٍ مسحورة، ويستمتع بسعادةٍ نادرًا ما يتذوَّقها بَشَر، وقال في هيام:

- «لقد رأيتُ أجمل المَشاهد في بلادنا، وزرتُ بحيرات لوسرن وأوري حيث تكاد الجبال المغطَّاة بالثلوج تتعامد على المياه وتلقي عليها ظلالًا سوداء، المشهد الذي قد يصفه البعض بالكآبة لولا الجُزُر المخضوضرة التي تَسُرُّ العين بمنظرها البهي. رأيتُ هذه البحيرة وقد هبَّت عليها عاصفة يتحوَّل فيها الماء إلى زوابع ويمنحك لمحة من أعاصير المحيط العظيم. رأيتُ الأمواج تنكسر في ثورةٍ على سفح الجبل، حيث هوى الانهيار الصخري على الكاهن وعشيقته، وحيث يقال إن أصواتهما المحتضرة لا تزال تُسمَع في لحظات صمت الريح الليليَّة كما تقول الأسطورة. رأيتُ جبال لا ڤالي وپاي دو ڤود، لكن هذا البلد يا ڤيكتور يُشعِرني بسرورٍ أكثر من كلِّ هذه الأعاجيب. إن جبال

سويسرا أكثر مهابة وغرابة، لكن ثمَّة سِحرًا في ضفاف هذا النهر لم أرَ مثيلًا له من قبل. انظر إلى تلك القلعة المعلَّقة على هذا الجرف، وإلى تلك الثانية الأخرى المبنيَّة على الجزيرة وتكاد تتوارى بين الأشجار. انظر إلى مجموعة العاملين هذه التي تقترب من بين حقول الكروم، وإلى تلك القرية التي تكاد تختفي بين ثنايا الجبل. لا بُدَّ أن الروح التي تسكن هذا المكان وتحرسه تتناغم مع الإنسان أكثر من تلك التي تسكن الأنهار الجليديَّة وقِمَمَ الجبال الشاهقة في بلدنا».

كليرڤال يا صديقي العزيز! حتى الآن يُبهجني ترديدي لكلماتك وللثناء الذي تستحقه عن جدارة. كان إنسانًا كبيتٍ من قصيدةٍ عن الطبيعة، وخياله الجامح الوهَّاج هذَّبته طيبة قلبه. روحه كانت مغمورة بعواطفٍ حماسيَّة، وصداقته من نوعٍ نادر تُعَلِّمنا أن نبحث عنه ونحتويه. لكن حتى التآلُف البشري لم يكن كافيًا لإشباع مخيِّلته دائمة الحياة، ومَشاهد الطبيعة التي لا يُبدي الآخَرون أكثر من إعجابهم بها كانت بالنسبة له حالة حُبٍّ كاملة.

غَمَره صوت الشلال بمشاعرِ شَجِيَّة
والصخرة الطويلة والجبل والغابة العميقة
بدت ألوانها وأشكالها له شهيَّة
كحُبٍّ كهذا لا توجد حقيقة[1]
أين هو الآن؟
هل ضاع هذا المخلوق الرائع إلى الأبد؟

هذا العقل المفعم بالأفكار والخيالات الساحرة التي كوَّنَت عالمًا بأكمله يعتمد بقاؤه على بقاء صانعه.. هل هلك هذا العقل؟

---

(1) من قصيدة للشاعر الإنجليزي ويليام ووردسوورث.

twitter @baghdad_library

هل مكانه الوحيد الآن هو ذاكرتي؟

كلا. ربما اضمحلَّ جسدك، لكن روحك ما زالت تزور صديقك التعيس وتواسيه.

سامحني على نوبة الأسى هذه، لكن هذه الكلمات القليلة ليست إلا تعبيرًا ضئيلًا عن قيمة هنري التي بلا مثيل، لكنها تُهَدِّئ قلبي الذي تغمره مشاعر الألم عندما أتذكَّره. لا عليك، سأواصِل حكايتي.

بعد مرورنا بكولونيا وصلنا إلى سهول هولندا، وهناك قرَّرنا استكمال بقيَّة رحلتنا برًّا، لأن الرياح كانت عكسيَّة وتيَّار النهر صار أضعف من أن يحملنا. فقدَت رحلتنا في هذه البقاع الشغف النابع من المناظر الجميلة، لكننا وصلنا خلال أيامٍ قليلة إلى روتردام، ومنها استكملنا رحلتنا إلى إنجلترا عن طريق البحر؛ وفي صباحٍ صافٍ في أيام ديسمبر الأخيرة رأيتُ جروف بريطانيا البيضاء للمرَّة الأولى. كشفت ضفاف نهر الثيمز عن مَشاهدِ جديدة، وكانت مسطَّحة لكن خصيبة، وكلُّ بلدةٍ تكاد تشم فيها رائحة قِصَّةٍ ما. رأينا قلعة تيلبوري وتذكرنا الأرمادا الإسپانية، وجريڤسند ووولويتش وجرينتش، تلك الأماكن التي كنتُ أسمع عنها في وطني.

في النهاية رأينا أبراج كنائس لندن الكثيرة، وبرج كنيسة سانت پول يرتقي فوقها كلها، ومعه برج لندن الشهير في التاريخ الإنجليزي.

الفصل التاسع عشر

كانت لندن مستقرَّنا الحالي الذي نستريح فيه، وقرَّرنا البقاء بضعة شهورٍ في هذه المدينة الرائعة. كان كليرڤال ينشد صُحبة رجال العِلم والمعارف الذين ازدهرت أسماؤهم في تلك الفترة، لكن ذلك كان هدفًا ثانويًّا بالنسبة لي، فقد كنتُ منشغلًا بشكلٍ أساسي بالحصول على المعلومات اللازمة للوفاء بوعدي، وبسرعةٍ بدأتُ في إرسال خطابات التقديم التي جلبتها معي، والموجَّهة إلى بعض علماء الفلسفة الطبيعيَّة المرموقين.

لو كنتُ قد قُمتُ بهذه الرحلة خلال أيام دراستي وسعادتي لكانت منحَتني بهجةً تفوق الوصف، لكن سحابةً غائمةً صارت تُظَلِّل وجودي، ولم أزُر هؤلاء الناس إلا بغرض الحصول على المعلومات التي أحتاجها في مهمَّتي الكريهة التي شغلت تفكيري كله. كنتُ أنفر من الرِّفقة، وفقط عندما أكونُ وحيدًا كنتُ أملأ حواسي بمَشاهِد الأرض والسماء. صوت هنري كان يريحني، ومع سماعه كنتُ أخدع نفسي وأتظاهَر بحلول سلامٍ مؤقَّت. لكن الوجوه البشوشة المشغولة المضجرة كانت تعيدني إلىَ بؤسي، ورأيتُ حاجزًا لا يُمكن تخطِّيه بيني وبين بقيَّة البَشَر، وهذا الحاجز كان مختومًا بدماء ويليام وچستين؛

twitter @baghdad_library

وكان التفكير في الأحداث المرتبِطة بهذين الاسمين يُفعِمني بالمرارة.

فقط في كليرڤال كنتُ أرى شيئًا من ذاتي القديمة. كان مليئًا بالفضول وتوَّاقًا للحصول على المعارف والخبرات، واختلاف السلوكيَّات الذي يُلاحِظه كان بالنسبة له منبعًا لا ينضب من الخبرة والتجربة والتسلية. كان يسعى أيضًا إلى هدفٍ انتواه منذ زمنٍ طويل، وهو زيارة بلاد الهند، لأنه كان يملك ما يدفعه إلى الاعتقاد بأنَّ لديه ما يكفي من معرفته بلُغات هذه البلاد لأن يُساعِد على تطوير المستعمرات والتجارة الأوربية هناك، وفي بريطانيا وحدها كان يُمكنه الشروع في تنفيذ خُطَّته. كان دائم الانشغال، والشيء الوحيد الذي كدَّر عليه متعته هو مزاجي المكتئِب. حاولتُ إخفاء هذا قَدر المستطاع كي لا أحرمه من متعته الطبيعيَّة مع فتحه لصفحةٍ جديدةٍ في حياته، ولكونه لا يرغب في أن تعيقه هموم أو أفكار سوداء. كثيرًا ما رفضتُ اصطحابه في جولاته متعلِّلًا بانشغالاتٍ أخرى كي أبقى وحدي. بدأتُ أيضًا في جمع المواد اللازمة للمخلوقة الجديدة، وفي هذا وجدت عذابًا يُشبه عذاب أن تتساقط قطرات المياه على رأسك قطرةً تلو قطرةٍ. كلُّ فكرةٍ مرتبطةٍ بمهمَّتي كانت تجعلني أصطلي بنيران الألم، وكلُّ كلمة لفظتها في تلميحٍ إليها كانت تجعل شفتيَّ ترتجفان وقلبي يخفق في عُنف.

بعد قضاء عدَّة أشهُرٍ في لندن تلقَّينا خطابًا من رجلٍ في سكوتلندا كان قد زارنا من قبل في جنيڤ. أتى على ذِكر المناظر الجميلة في بلده، وسألَنا إن كانت زيارتها تكفي لأن نمد رحلتنا إلى پرث في الشمال حيث يقطن. قرَّر هنري قبول هذه الدعوة، وقبلتها أنا كذلك رغم نفوري من الصُّحبة، إلا أنني شعرت بحنينٍ لرؤية الجبال والنُّهيرات من جديد، وغيرها من الأشياء التي تُزَيِّن بها الطبيعة بقاعَهَا. كنا قد وصلنا إلى إنجلترا في بداية أكتوبر، وصرنا الآن في فبراير، فقرَّرنا بدء رحلتنا إلى الشمال مع

نهاية شهرٍ آخَر، وقرَّرنا أيضًا ألا نسلك الطريق المعتادة إلى إدنبرة، بل أن نزور ويندسور وأكسفورد وماتلوك وبحيرات كامبرلاند، وبهذا نصل إلى نهاية الرحلة مع نهاية يوليو. حزمتُ معي معداتي الكيميائيَّة والمواد التي جمعتها، عازمًا على إنهاء عملي في بُقعةٍ منعزلة في هضاب سكوتلندا الشماليَّة.

غادرنا لندن في السابع والعشرين من مارس، وظللنا عدَّة أيام في ويندسور التي تجوَّلنا في غابتها الجميلة. كان المشهد جديدًا علينا نحن ساكني الجبال، فأشجار السنديان الساحرة وأعداد الفرائس الكبيرة وقطعان الغزلان الجميلة كانت كلها أشياءَ لم تسبق لنا رؤيتها.

من هناك اتَّجهنا إلى أكسفورد، ومع دخولنا إلى هذه المدينة امتلأ عقلانا بذكرى الأحداث التي وقعت هنا منذ أكثرٍ من قرنٍ ونِصف. في هذه المدينة حشد تشارلز الأول قوَّاته التي ظلَّت مُخلِصةً له من أجل حمل راية البرلمان والحُرِّيَّة، بعد أن تخلَّت عنه أمته كلها. لقد أعطت ذكرى هذا الملك التعس ورفيقيه -فالكلاند الدَّمِث وجورنج المتغطرس- وملكته وابنه[1] لكلِّ جزءٍ ربما كانوا قد سكنوه من هذه المدينة طابعًا خاصًّا. وجدَت روح الأيام القديمة لها مكانًا هنا، واستمتعنا نحن باقتفاء آثارها. وإذا كانت هذه المشاعر غير كافيةٍ لإرضاء الخيال، فإن مشهد المدينة نفسها كان يحوي جمالًا كفيلًا بإثارة أقصى صُور الإعجاب، فالكُلِّيَّات كانت عتيقة ورائعة التصميم، والشوارع ذاتها تكاد تكون فخمة، وأضِف إلى هذا نهر إيزيس[2]

---

(1) المقصود هنا هو هزيمة الملك على يد أوليفر كروميل في الحرب الأهليَّة الإنجليزيَّة، وكان فالكلاند وزير خارجيَّة تشارلز الأول، وجورنج كان أحد جنرالات الملك.

(2) أحد فروع نهر التايمز.

twitter @baghdad_library

الخلَّاب الذي يجري بمحاذاة المدينة عبر مروجٍ خضراء، وتنعكس على صفحته البروج والقباب البارزة من بين أشجارٍ عتيقة.

استمتعتُ بهذا المنظر بشِدَّة، لكن ذكرى الماضي وغموض المُستَقبَل نغَّصا عليَّ متعتي. إنني مخلوقٌ لأحيا حياة مسالمة هادئة، وخلال صباي لم أعرف معنى الألم، وإذا أصابني ملل أو إحباط كان يكفيني أن أنظر إلى شيءٍ طبيعي جميل أو أدرس شيئًا مهمًّا من صُنع الإنسان لتعود الطمأنينة إلى قلبي والمرونة إلى عقلي. لكنني الآن شجرة مكسورة، والصاعقة التي أصابتها نفذت إلى أعماقي، وشعرتُ بأنني سأستمر في أن أكون ما لن أكونه بعد قليل: حطام إنسان يُشفِق عليه الآخَرون ولا يطيق نفسه.

أمضينا فترة لا بأس بها في أكسفورد نتجوَّل في ضواحيها ونحاول التعرُّف على كلِّ بُقعةٍ ربما لها علاقة بأبرز حُقبةٍ في التاريخ الإنجليزي. كثيرًا ما كانت جولاتنا الصغيرة تطول من جرَّاء الأشياء المتتالية التي أفصحَت عن نفسها. زُرنا مقبرة هامپدن[1] الشهيرة والحقل الذي سقط فيه هذا المناضل. للحظةٍ ارتقت روحي فوق مخاوفها لتتأمَّل سمو أفكار الحُرِّيَّة والتضحية بالنفس التي تُعَبِّر عنها هذه الأماكن وتُبقي ذكراها حيَّة. للحظةٍ جرؤتُ على التحرُّر من قيودي والنظر حولي بروحٍ حُرَّةٍ شامخة، لكن رمح العذاب كان قد اخترق لحمي، ومن جديد عُدتُ بائسًا خائفًا مرتجفًا.

غادرنا أكسفورد على مضضٍ في الطريق إلى محطَّتنا التالية في ماتلوك. كان الرِّيف في هذه القرية يُشبِه ريفنا في سويسرا، لكن كلَّ شيءٍ كان يبدو كصورةٍ مصغَّرة، والتلال الخضراء كانت تفتقر إلى

---

(1) چون هامپدن: ابن عم كروميل الذي قُتِلَ في المعركة في عام 1643 م.

تيجان جبال الألپ البيضاء القَصِيَّة التي دائمًا ما تميل على أراضي وطني. زُرنا الكهف العجيب والبقاع الصغيرة التي تُمَثِّل التاريخ الطبيعي وتُشبِه بشِدَّة ما تراه في سرڤو وشاموني. جعلني الاسم الأخير أرتجف عندما نطقه هنري، فأسرعتُ بمغادَرة ماتلوك التي أصبحَت مرتبطة بالمشهد المخيف في ذاكرتي.

واصلنا طريقنا شمالًا، وبعد داربي أمضينا شهرين في كامبرلاند ووستمورلاند. كنتُ الآن أكاد أتخيَّل نفسي بين الجبال السويسريَّة، إذ كنتُ أرى مساحات الجليد الصغيرة التي لم تزل باقية على جوانب الجبال الشماليَّة وأرى البحيرات وأسمع صوت انكسار مياه النهيرات على الصخور، وكلها كانت أشياءَ مألوفة لي وعزيزة عليَّ. اكتسبنا هناك بعض المعارف التي كادت تُخرِجني من حالة الحزن إلى المرح، وسرور كليرڤال كان يفوق سروري بمراحِل بالطبع، ففي صُحبة أولي الموهبة والعِلم اكتشف في نفسه إمكاناتٍ أعظم مما تخيَّل أنه يملكها وهو في صُحبة رفاقه السابقين، ووجدته يقول لي:

– «يُمكنني قضاء حياتي هنا، وبين هذه الجبال لن أندم على تَركي سويسرا والراين».

لكنه اكتشف أن حياة الرحَّالة تحتوي على آلام بقَدر ما تحوي متعة، فمشاعره مشدودة دائمًا، وعندما يبدأ في الاسترخاء أخيرًا يجد نفسه مضطرًّا لهجران الشيء الذي وجد فيه سلامه النفسي من أجل السعي وراء شيءٍ جديد نجح في جذب اهتمامه، وفي النهاية سيهجره بدوره من أجل شيءٍ جديد.. وهَلُمَّ جرًّا.

كانت زيارتنا لبحيرات كامبرلاند ووستمورلاند سريعة، حيث اقترب موعد زيارتنا لصديقنا السكوتلندي، وهكذا عُدنا إلى الطريق من جديد. لم أكن آسفًا لحدوث هذا، فقد أهملتُ وعدي لوقتٍ طويل، وكنتُ أتوجَّس خيفة من رَدَّة فِعل المسخ. قد يبقى في سويسرا ويصب

twitter @baghdad_library

غضبة انتقامه على رؤوس من أحب، وهذه الفكرة أرَّقتني وعذَّبتني في كلِّ لحظةٍ كان يُمكن أن أقضيها في سلام وسَكينة. كنتُ أنتظر وصول الرسائل بصبرٍ نافد، وإذا تأخَّرَت كنتُ أصاب بالبؤس وتُطارِدني عشرات المخاوف؛ وعندما كانت تصل وأرى توقيع إليزابث أو أبي كنتُ أكاد لا أقوى على القراءة خشية أن يصدمني المكتوب. خطر لي أحيانًا أن المسخ يتبعني، وأنه سيُعاقِبني على إهمالي للوعد بقتل رفيقي، وعندها كنت ألازِم هنري طوال الوقت وأتبعه كظِلّه لأحميه من ثورة المسخ التي تخيَّلتها. شعرتُ كأنني ارتكبتُ جريمة نكراء تتبعني ذكراها حيثما ذهبت. كنتُ بريئًا، لكني بالتأكيد صببتُ على رأسي لعنة مميتة مِثلها مِثل الجريمة المزعومة.

رأيتُ إدنبرة بعينٍ فاترةٍ وعقلٍ واهِن، لكن المدينة كانت لتثير اهتمام أكثر المخلوقات بؤسًا. لم تَرُق إدنبرة لصديقي كليرفال مِثل أكسفورد، لأن قِدَم الثانية كان يجذبه أكثر، لكن جمال وتناسُق بلدة إدنبرة الجديدة -بشكلٍ عام- وقلعتها الرومانسيَّة الطابع وضواحيها الأجمل في العالم كله، بالإضافة إلى قمَّة آرثر وبئر سانت برنارد وتلال بنتلاند -كلُّ هذا عوَّضه عن التغيير وملأه سرورًا وإعجابًا، أما أنا فكنتُ متلهِّفًا على بلوغ نهاية المطاف.

غادرنا إدنبرة بعد أسبوع، ومررنا ببلدة كوپار وكاتدرائيَّة سانت أندرو وضفاف نهر تاي في الطريق إلى پرث حيث ينتظرنا صديقنا. لكن مزاجي لم يكن يسمح بالضحك والمزاح مع الغرباء أو التعليق بحرارةٍ وحماسةٍ على خُططهم بالدَّماثة المتوقَّعة من ضيف، وعلى ذلك قلتُ لكليرفال إنني أرغبُ في خوض الجولة السكوتلنديَّة وحدي، وأضفتُ:

- «استمتع أنت بوقتك وسنلتقي هنا. قد أغيب شهرًا أو اثنين، لكن أرجوك ألا تُعارِض قراري. دعني في عُزلتي وهدوئي لوقتٍ قصير، وآملُ أنني سأعودُ بقلب غير مثقَل وأتجاوبُ معك أكثر».

أراد هنري ثنيي، لكنه كفَّ عن الإلحاح مع رؤيته لإصراري الشديد. فقط ناشَدَني أن أكتب له كثيرًا، وقال:

- «أُفَضِّل أن أكون معك في جولاتك الوحيدة بدلًا من وجودي مع هؤلاء السكوتلنديِّين الذين لا أعرفهم، لكن أسرِع بالعودة يا صديقي كي أشعر بأنني في الوطن من جديد بشكلٍ ما، وهذا غير ممكن في غيابك».

افترقتُ عن صديقي، وعزمتُ على الذهاب إلى مكان قصي في سكوتلندا أنهي فيه عملي وحيدًا. لم أعد أشك في تتبُّع الوحش لي وكشفه عن نفسه مع انتهائي ليتلقَّى رفيقته مني. بهذا العزم نشدتُ الهضاب الشماليَّة، وقرَّرتُ أن أستقرَّ في إحدى أكثر البقاع عُزلة في جُزُر أوركني. كان مكانًا مناسبًا لعمل كهذا، لكونه ليس أكثر من صخرةٍ مرتفِعة تنكسر على جوانبها العالية الأمواج. التربة كانت جرداء، وبالكاد تكفي كمرعى لبعض الأبقار البائسة أو كمصدر للدَّقيق للسُّكَّان الذين لم يزيدوا على خمس أُسَرٍ تشي أبدان أفرادها الهزيلة الخشنة بفاقتهم. الخضروات والخبز -عند حصولهم على رفاهيةٍ كهذه- وحتى الماء النظيف، كانت تأتي من البلدة التي كانت تبعد خمسة أميالٍ كاملة.

لم يكن بالجزيرة كلها سوى ثلاثة أكواخ مثيرة للشفقة، وكان أحدها شاغرًا عندما وصلتُ، فاستأجرته. كان يتكوَّن من حُجرتين فحسب، وهاتان كانتا في حالةٍ يُرثى لها: السقف المصنوع من القَش كان ساقطًا، والجدران متهالِكة، والباب مخلوع عن مِفصَلاته. أمرتُ بإصلاح المكان وابتعتُ بعض الأثاث وسكنتُ هناك، الأمر الذي كان ليثير الدهشة والشَّك بالطبع لولا أن طمس الفقر والعوز حواس هؤلاء القوم. هكذا قطنتُ هناك دون أن يُعيرني أحدهم اهتمامًا، ودون حتى أن يشكروننني على الطعام والملابس التي أعطيتهم إياها. حقًّا، الفقر يعمي أكثر حواس الإنسان حِدَّة.

twitter @baghdad_library

في هذا المأوى أخذتُ أعمل نهارًا، أما ليلًا -عندما كان الطقس يسمح- فقد كنتُ أجول على شاطئ البحر الصخري أصغي للأمواج وهي تهدر وتنكسر على قدميَّ. كان مشهدًا رتيبًا وإن كان يتغيَّر باستمرار. فكَّرتُ في سويسرا التي تختلف تمامًا عن هذا المكان المقفر. تلالها مغطاة بالكروم، أكواخها متناثرة بين السهول، بحيرتها الجميلة تعكس سماءً صافية نقيَّة؛ وعندما تُزعِجها الريح لا يتعدَّى صخبها جلبة طِفلٍ نشيط يلعب مقارنةً بزئير المحيط العملاق.

بهذه الطريقة قسَّمتُ مشاغلي بعد وصولي، لكن مع تقدُّمي في عملي وجدتُ أنه قد أصبح أكثر قبحًا وبشاعةً. أحيانًا لم أستطع إجبار نفسي على دخول معمّلي لأيام طويلة، وفي أحيانٍ أخرى كنتُ أكدح ليلًا نهارًا من أجل إتمام العملَ. كانت بالفعل عمليَّة قذرة تلك التي شغلتُ بها نفسي. خلال تجربتي الأولى كنت معميًّا بحماسةٍ جنونيَّةٍ لم تجعلني أدرك فداحة ما أفعله، وكِياني كله كان منشغلًا بالوصول إلى نهايته، لكني كنتُ أعمل هذه المرَّة بدمٍ بارد، وكثيرًا ما كنتُ أصاب بالسقَم من عمل يديَّ.

مشغولًا بأكثر الأعمال إثارةً للتقزُّز، مغمورًا بوحدةٍ لا شيءَ فيها يُمكنه جذب انتباهي لحظةً بعيدًا عن عملي، صِرتُ غير متزنٍ عصبيًّا قَلِقًا. كلُّ لحظةٍ تَمُرُّ كنتُ أشعر فيها بالخوف من لقاء المسخ، وكنتُ أجلس مُسَلِّطًا عينيَّ على الأرض خائفًا من رفعهما، خشية أن أرى الشيء الكريه القابع معي في الكوخ. كنتُ أخشى أن أبتعد عن أنظار سُكَّان القرية فيأتي لي وحدي ليستلم رفيقته.

واصلتُ العمل الذي كاد يكتمل بالفعل، وتطلَّعتُ إلى هذا الاكتمال في لهفةٍ وأملٍ لم أجرؤ على التشكيك فيهما، وإن امتزجا بنذير شَرٍّ جعل قلبي يَختَلِج بين ضلوعي.

الفصل العشرون

جلستُ ذات ليلةٍ في معملي. كانت الشمس قد غربت، والقمر يصعد من بينِ أمواج البحر، ولم يكن هناك ضوء كافٍ للعمل. قبعتُ في مكاني مفكرًا إن كان يَجدُر بي أن أؤجِّل العمل إلى الليل أم أسارِع بالانتهاء منه بالجهد المتواصِل. سلسلة من الأفكار راودتني مع جلوسي وقادتني إلى التأمُّل في ما أفعله الآن. قبل ثلاثة أعوام كنت منشغِلًا بالأسلوب ذاته في عملٍ كانت نتيجته مسخ لا مثيل لوحشيَّته التي حطَّمت قلبي وملأته إلى الأبد بندمٍ مرير، والآن كنتُ على وشك صُنع مخلوقةٍ أخرى أجهل كلَّ شيءٍ عن نزعاتها. من يدري؟ إنها قد تُصبِح أكثر شرًّا من سابقها ألف مرَّةٍ وتستمتع بالقتل والخراب. لقد أقسم على هجر أراضي البَشَرِ وإخفاء نفسه في الصحاري، لكنها لم تفعل هذا، وهي -التي لا شكَّ أنها ستصبح كائنة عاقلة مفكِّرة مثله- قد ترفض تنفيذ اتفاقٍ حدث قبل مجيئها إلى العالم. بل إنه من الوارد حتى أن يمقتا بعضهما البعض. المخلوق الحي يمقت بشاعة سحنته بالفعل، أفليس الراجح إذن أن يتضاعف مقته لها عندما يراها حيَّة أمامه في نسخته الأنثويَّة؟ هي أيضًا قد تنفر منه في اشمئزاز وتجنح إلى حُسن خلقة الإنسان. قد تهجره ويصبح عندئذٍ وحيدًا من جديد، فيشتعل بنار هجر المخلوقة الوحيدة مِثله له.

twitter @baghdad_library

حتى لو تركا أوربا ولجآ إلى صحاري العالم الجديد، فإن واحدًا من أول الأشياء التي يتعطَّش لها الشيطان إنجاب الأطفال، وعندها سينتشر جِنس من المسوخ في الأرض، ويجعل حياة الإنسان ذاتها محفوفة بالمخاطر مليئة بالرُّعب.

هل أملك الحق في إطلاق هذه اللعنة على أجيالٍ كاملةٍ من أجل مصلحتي الشخصيَّة؟

لقد أثَّرَت فيَّ سفسطة الكائن الذي صنعته من قبل، وصدمَتني تهديداته الشيطانيَّة، لكن شرور وعدي تجلَّت لي للمرَّة الأولى الآن. ارتجفتُ لفكرة أن تلعنني أجيال المُستَقبَل بصفتي الطاعون الذي لم تجعله أنانيَّته يتردَّد في شراء أمنه الخاص بسِعرٍ قد يكون هلاك البشريَّة كلها.

ارتجفتُ وغاص قلبي في صدري، وإذ رفعتُ ناظريَّ رأيتُ الشيطان عند النافذة. ابتسامة مروِّعة تراقصَت على شفتيه وهو يَرمُقني وأنا مشغول بالمهمَّة التي ألقاها على عاتقي. نعم، لقد تبعني في أسفاري؛ كَمِنَ في الغابات وتوارى في الكهوف أو احتمى بالأراضي البور، والآن جاء ليرى النتيجة ويتلقَّى ناتِج عملي.

ملامحه كانت تشي بأعتى آيات الخبث والخيانة. عندها فقط أصابتني نوبة من الجنون، وبرَقَ الوعد بصُنع واحدةٍ مثله في عقلي.

وفي ثورةٍ مزَّقتُ الشيء الآخَر إربًا..

ورآني المسخ أدمِّر المخلوقة التي يبني عليها آمال مُستَقبَله، وبصرخة يأسٍ شيطاني تراجع إلى الخلف.

غادرتُ المعمل وأوصدتُ الباب، وفي سريرتي أقسمتُ أنني لن أواصِل هذا العمل أبدًا، وبخطواتٍ مرتجفة اتَّجهتُ إلى غُرفتي. كنت

وحيدًا؛ لا أحدَ إلى جواري ليُبَدِّد سُحُب الظلام وينقذني من هذا الكابوس الحي.

ساعات طويلة فاتت بقيتُ فيها بالقُرب من نافذتي أرمق البحر الذي كان ساكن الأمواج مع خمود الريح، والطبيعة كلها استرخت تحت عين القمر الهادئ. فقط كنتُ أرى قوارب صيدٍ قليلة متناثرة في الماء، ومن حينٍ إلى آخَر كان النسيم يحمل أصوات الصيَّادين الذين يُنادون على بعضهم البعض. شعرتُ بالصمت التام يحتويني رغم استغراقي في التفكير، إلى أن تناهى إلى مسامعي صوت مجاديف بالقرب من الشاطئ، ثم ترجَّل أحدهم على مقربةٍ من كوخي. دقائق قليلة مرَّت قبل أن أسمع صرير بابي، كأن أحدهم كان يحاول فتحه بهدوء. ارتجفتُ من قِمَّةِ رأسي إلى أخمص قدميَّ، وأدركتُ في لحظةٍ هويَّة القادم، وتمنَّيتُ لحظتها لو استطعتُ إيقاظ المُزارع القاطن في الكوخ المجاور. منعني العجز الذي يصيبنا جميعًا في الكوابيس، حينما تود لو تفر من خطر محدق، لكنك تشعر كأن قدميك ضاربتان في الأرض بجذورٍ عميقة.

بعد قليلٍ سمعتُ صوت خطواتٍ في الممر، ثم انفتح الباب، وظهر المسخ الذي صرت أخشاه كالموت، واقترب مني وقال في صوتٍ مخنوق:

- «لقد دمَّرت العمل الذي بدأته، فلماذا؟ كيف تجرؤ على أن تحنث بوعدك؟ لقد تحمَّلتُ الجهد والبؤس، ووراءك جئتُ من سويسرا. زحفتُ على شطآن الراين وبين جُزُره وفوق قِمَم الجبال. شهور طويلة قضيتها في مروج إنجلترا وهضاب سكوتلندا، واَستبدَّ بي الجوع والبرد والإعياء، فهل تجرؤ على تدمير أملي الأخير؟».

- «ارحل! إنني أنكث وعدي بالفعل، ولن أصنع مخلوقة تماثلك في البشاعة والشرور أبدًا».

twitter @baghdad_library

- «لقد حاولتُ التعامُل معك بالمنطق من قبل أيها العبد، لكنك أثبتَّ أنك غير جدير بتلطُّفي. تذكَّر قدراتي، ولا تحسب نفسك بائسًا بعد، فإنني أستطيع جعلك تمقت نور النهار ذاته. أنت صانعي، لكني سيِّدك، فأطِع أوامري!».

- «ساعة حيرتي مرَّت وساعة قوَّتك بدأت إذن، لكن تهديدك ووعيدك لن يسوقاني إلى إعادة ارتكاب الجريمة، وعزمي الآن على عدم صُنع كائنةٍ مثلك لن يتزعزع. لن أطلِق بدمٍّ بارد شيطانة مُتعتها القتل والتدمير. ارحل! لقد حزمتُ أمري، وكلماتك ستزيدني سخطًا على سخط».

رأى الوحش التصميم البادي في ملامحي، وصرَّ بأسنانه في شراسة وهو يصيح:

- «هل كُتِب عليَّ أن أكون وحيدًا تمامًا بينما يستمتع كلُّ إنسانٍ بدفء زوجته وكلُّ حيوانٍ بخليلته؟ لقد كنتُ أملك مشاعر يومًا، لكنها قوبِلَت بالكراهية والاحتقار. يا للبَشَر! قد تكرهني، لكن احذر، فساعاتك ستقضيها في رُعبٍ وشقاء، وقريبًا ستصيبك الصاعقة التي ستحرمك من سعادتك إلى الأبد. أتظن أنك ستهنأ بحياتك وأنا أصطلي بلهيب الوحدة؟ يُمكنك تدمير مشاعري كلها، لكن يبقى الانتقام، والانتقام أحب لي الآن من الضوء والطعام! قد أهلك، لكنك ستلعن قبلها الشمس التي ترمي أشعَّتها على عذابك أيها الطاغية الجاحد. احذر، فأنا لستُ خائفًا ولهذا أنا أقوى منك. سأراقبك بنعومة الثعبان حتى أنفث فيك سمومي، وستندم على ظُلمك وإجحافك».

- «كفى أيها الشيطان! لا تُسَمِّم الهواء بحقدك. لقد أخبرتك بقراري، ولستُ جبانًا كي تُرهِبني الكلمات. اتركني!».

- «ليكن، سأرحل. لكن تذكَّر.. سأكون معك في ليلة زفافك».

عندها انقضضتُ عليه صارخًا:

- «أيها الوغد الحقير! قبل أن توقِّع شهادة وفاتي، تأكد أنك آمن أولًا».

كنتُ على وشك الإمساك به، لكنه راوغني واندفع مغادرًا المكان، وبعد لحظاتٍ رأيته في قاربه يشق الماء بسرعة السهم، وسرعان ما اختفى بين الأمواج.

عاد الصمت يسود من جديد، لكن كلماته ظلَّت ترن في أذنيَّ. احترقتُ بثورةٍ ألحَّت عليَّ بمطاردته وإلقائه في مياه المحيط، وأخذتُ أذرع الغُرفة في وجل، بينما تكفَّل خيالي بتصوير ألف صنفٍ للعذاب يلدغني كالعقارب.

لماذا لم أتبعه وأنخرط معه في قتالٍ حتى الموت؟

لكنني سمحتُ له بالرحيل، واتَّجه هو صوب اليابسة البعيدة. ارتجفتُ وأنا أفكِّر في اسم الضحيَّة الجديدة لانتقامه المجنون. ثم إنني عُدتُ أفكِّر من جديد في كلماته الأخيرة: «سأكون معك في ليلة زفافك». هذه نهاية المطاف إذن. في تلك الساعة سأموت وأُرضي نفسه الشريرة إلى الأبد. لم تُصِبني الفكرة بالخوف، لكن عندما فكرتُ في إليزابث الحبيبة وفي دموعها وحزنها اللذين لن ينتهيا عندما يُنتزَع حبيبها منها في وحشيَّة سالت الدموع؛ أول دموع ذرفتها منذ شهورٍ طويلة، وعندئذ قرَّرتُ ألا أسقط أمام عَدُوِّي قبل أن أخوض معه صراعًا مريرًا.

مَرَّ الليل، وأشرقَت الشمس من قلب المحيط، وشعرتُ بانفعالي يهدأ، إن كان لي أن أصفه بالهدوء وهو في الحقيقة ثورة عارمة قابعة في أعماقي. تركتُ الكوخ الذي شهد المواجَهة المريعة الليلة السابقة، وسِرتُ على شاطئ البحر الذي كدتُ أعتبره حاجزًا عاليًا بيني وبين

twitter @baghdad_library

بقيَّة الناس، وتمنَّيتُ لو أقضي حياتي على هذه الصخرة الجرداء. صحيحٌ أنني سوف أقضيها متعبًا، لكنني لن أعاني صدمات البؤس على الأقل. لكن لا، أمنية كهذه لن ينجح تحقيقها في التخفيف عني. إذا عُدتُ، فإما أنني سأصير ضحيَّة أخرى، أو أرى هؤلاء الذين أحبهم حبًّا لا يوصف يموتون بقبضة الشيطان الذي صنعته بنفسي.

جُلتُ في الجزيرة كطيفٍ هائم منفصل عن كلِّ ما يحب ويتعذَّب بهذا الانفصال. استبدَّت بي الحاجة إلى النوم عندما جاءت الظهيرة وارتفعت الشمس في السماء، وغِبتُ بالفعل في نوم عميق بعد الليلة السابقة التي قضيتها ساهرًا حتى أصبحَت أعصابي ثائرة وعيناي مكدودتين. أنعشني النوم، وشعرتُ عندما استيقظتُ بأنني أنتمي إلى جِنس الإنسان من جديد، وبدأتُ في التفكير في ما حدث من جديد بهدوءٍ أكثر. لكن كلمات المسخ ظلَّت ترن في أذنيَّ كناقوس الهلاك. بدت كلماته كحُلمٍ بعيد، لكنها كانت تملك وضوح وقسوة الواقع.

مالت الشمس إلى المغيب وأنا لم أزل جالسًا على الشاطئ أشبع شهيَّتي التي صارت شديدة النهم بقطعٍ من كعك الشوفان، وكان هذا عندما رأيتُ قارب صيدٍ يرسو بالقُربِ مني، وترجَّل منه رجل يحمل حزمة من الخطابات من چنيڤ ورسالة من كليرڤال يطلب فيها مني الانضمام إليه. قال إنه يقضي وقته عبثًا حيث هو، وإنه تلقَّى خطاباتٍ من الأصدقاء الذين تعرَّف إليهم في لندن تُناشِده العودة لإكمال المفاوضات التي بدأوا فيها من أجل إتمام مغامرته الهنديَّة. لم يَعُد يستطيع تأجيل رحيله، ولأن رحلته الكبرى ستتبع رحلته إلى لندن التي عُجِّلَ بها، فقد طلب مني أن أمنحه ما استطعتُ من صُحبتي. هكذا التمس أن أترك جزيرتي المنعزلة وألتقي به في پرث لنبدأ رحلتنا جنوبًا معًا. بشكلٍ ما أعادتني هذه الرسالة إلى الحياة، وقرَّرتُ مغادرة الجزيرة بعد يومين.

لكن تبقَّت مهمَّة لا بُدَّ من إتمامها قبل رحيلي، والتفكير فيها كان يثير الرجفة: يجب أن أحزم أدواتي الكيميائيَّة، ومن أجل هذا يجب أن أدخل الغُرفة التي شهدت عملي الكريه. في فجر اليوم التالي استجمعتُ شجاعتي وفتحتُ باب المعمل. أشلاء الكائنة التي كدتُ أنتهي منها ثم دمَّرتها كانت متناثرة على الأرض، وشعرتُ كأنني أنتهك حُرمة لحم إنسانٍ حي. توقَّفتُ لأستعيد رباطة جأشي، ثم دخلتُ الغُرفة. بيدين مرتعدتين نقلتُ المعدَّات خارج الغُرفة، ثم خطر لي أنه لا يَجدُر بي أن أترك بقايا عملي في المكان لتثير رُعب وشكوك سكَّان الجزيرة، ومن ثم جمعتها في سلَّة، وأضفتُ إليها كميَّة لا بأس بها من الحجارة، مقرِّرًا أن أتخلَّص منها في المحيط في الليلة ذاتها؛ وجلستُ على الشاطئ منتظرًا حلول الليل، وشغلتُ نفسي بتنظيف وترتيب المعدَّات الكيميائيَّة.

لا شيء أكمل من التغيُّر الذي حدث في مشاعري منذ ليلة ظهور الشيطان. قبلها كنتُ أتعامل مع وعدي بكآبةٍ وقنوط، وأعتبره شيئًا لا بُدَّ من القيام به أيًّا كانت العواقب، لكني شعرتُ الآن كأن غشاوةً قد انجابت من أمام عينيَّ بحيث صِرتُ أرى للمرَّة الأولى بوضوح. فكرة العودة إلى عملي لم تخطر لي لحظة، لكن التهديد الذي تلقَّيته أثقل أفكاري، ولم أتخيَّل إطلاقًا أنني سأتطوَّعُ بعمل شيءٍ كي أتجنَّبه. استقرَّ عقلي على أن صُنع كائنٍ آخَر كالمسخ الأول هو عمل أناني آثم بلا حدود، وطردتُ منه كلَّ لَمحةٍ لفكرةٍ قد تقودني إلى نتيجةٍ أخرى.

صعد القمر في السماء بين الثانية والثالثة صباحًا، فوضعتُ السلَّة في مركب شراعيٍّ صغير، وأبحرتُ بعيدًا عن الشاطئ. السكون سائدٌ والمكان خالٍ تمامًا. فقط قوارب صيد قليلة كانت عائدة إلى الشاطئ، لكنني أبحرتُ بعيدًا عنها. إحساسي وقتها كان بأنني على وشك ارتكاب

twitter @baghdad_library

جريمةٍ مخيفة، ولهذا تجنَّبتُ لقاء أيِّ بشريٍّ آخَر. جاءت لحظة احتجب فيها القمر بسحابةٍ كثيفة، واستغللتُ الفُرصة لألقي بالسلَّة في الماء. أصغيتُ إلى صوت القرقرة مع غرق السلَّة، ثم أبحرتُ بعيدًا عن تلك البُقعة. غامت السماء، لكن الهواء ظَلَّ نقيًّا رغم اكتسابه برودة النسيم الذي كان يهب من الشمال الشرقي، إلا أنه أنعشني وملأني سَكينة، حتى إنني قررتُ البقاء لفترةٍ أطول في الماء. وجَّهتُ الدفَّة في خَطٍّ مستقيم، وتمدَّدتُ في قاع القارب. غطَّت السُّحُب القمر، وأصبح كلُّ شيءٍ معتمًا، ولم أسمع سوى صوت شَقِّ مقدِّمة القارب للماء. راودني نعاس قوي مع صوت الخرير الهادئ، وسرعان ما رُحتُ في نومٍ عميق.

لا أدري كم بقيتُ في هذا الوضع، لكني وجدتُ الشمس في مُنتَصَف السماء عندما استيقظتُ. كانت الرياح قويَّة، والأمواج كانت تُهَدِّد سلامة قاربي الصغير. وجدتُ أن الرياح شماليَّة شرقيَّة، ولا بُدَّ أنها جرفتني بعيدًا عن الشاطئ الذي جئتُ منه. حاولتُ تغيير مساري، لكني اكتشفتُ أن القارب سيمتلئ بالماء فورًا إذا حاولتُ. كان الحلُّ الوحيد هو الإبحار في اتجاه الريح، وأعترفُ بأنني شعرتُ بشيءٍ من الخوف. لم تكن معي بوصلة، ولم أكن أعرف إلا النَّزر اليسير عن طبيعة وجغرافيا هذا الجزء من العالم، فلم تُمَثِّل لي الشمس مساعَدة كبيرة. قد أنجرف إلى المحيط الأطلنطي الشاسع حيث أتضورُ جوعًا حتى الموت، أو تبتلعني المياه العميقة التي أخذَت تزأر وتهدر حولي. لقد أبحرتُ لساعاتٍ طويلة بالفعل، وبدأتُ أشعر بالعطش الحارق الذي هو مجرَّد مقدِّمة لمزيدٍ من المعاناة. نظرتُ إلى السماء التي غطَّاها سَحاب تُحَرِّكه الريح لتأتي مكانه سُحُب أخرى، ونظرتُ إلى البحر الذي سيُصبِح قبري وصرختُ:

- «نجحت مهمَّتك أيها المسخ!».

فكَّرت في إليزابث وأبي وكليرفال.. كلهم أصبحوا وحدهم، وسيُشبِع السَّفَّاح شهيَّته بسَفك دمائهم. ملأتني الفكرة برُعب ما زلتُ أرتجف له حتى الآن والستار على وشك النزول إلى الأبد.

مرَّت ساعات على هذه الوتيرة، لكن شيئًا فشيئًا بدأت الرياح تهدأ مع غياب الشمس في الأفق وتحوَّلت إلى نسيم هادئ، وسكنت الأمواج. على أن هذا منح فُرصة لظهور ألم ثقيل، وشعرتُ بالغثيان، وبالكاد استطعتُ الإمساك بالدَّفَّة. بغتةً رأيتُ خطًّا من اليابسة صوب الجنوب. كنتُ على وشك فقدان الوعي من فرط الإعياء والتوتُّر اللذين عانيتهما خلال الساعات الطويلة الماضية، لكن صورة الحياة هذه جعلت دماء السعادة تتدفَّق في عروقي، واغرورقت عيناي بالدموع.

كم هي متغيرِّة مشاعرنا، وكم هو غريب تشبُّثنا بالحياة حتى في ألعن لحظات اليأس!

صنعتُ شراعًا آخَر بجزءٍ من ثوبي، وجدَّفتُ نحو اليابسة في لهفة. كانت أرضًا صخريَّة مقفرة المنظر، لكني لمحت آثار الحضارة مع اقترابي المتواصل. رأيتُ قوارب راسية على الشاطئ، ووجدتُ نفسي فجأةً عائدًا إلى رحاب البَشَر. تتبَّعتُ منحنيات الأرض في حذر، حتى رأيتُ برج كنيسة يرتفع من خلف نتوءٍ صغير. قادني ضَعفي الشديد إلى الإبحار صوب تلك البلدة مباشرةً لأجد ما يكفيني من طعام وشراب، ولحُسن الحظ أني كنتُ أحمل مالًا معي. مع دوراني حول النَّتوء رأيتُ بلدة صغيرة ومرسىً مناسبًا دخلته وقلبي يرقص في سعادة للنجدة التي لم أتوقَّعها.

وجدتُ أناسًا كثيرين يحتشدون عند البُقعة التي رسوتُ فيها. بدوا مندهشين من ظهوري ومظهري، لكن بدلًا من عَرْض المساعدة عليَّ أخذوا يتهامسون ويتغامزون بأسلوبٍ كان ليثير فيَّ القلق في ظروفٍ

twitter @baghdad_library

أخرى. بمجرَّد أن أدركتُ أنهم يتحدَّثون الإنجليزيَّة خاطبتهم بها قائلًا:

- «هلَّا أخبرتموني باسم هذه البلدة ومكانها أيها الأصدقاء الطيِّبون؟».

أجابني رجل أجش الصوت:

- «ستعرف عمَّا قريب. لعلك جئت إلى مكانٍ لا يُناسِبك كثيرًا، لكنني أؤكِّد لك أنك لن تختار المكان الذي ستأوي إليه».

اندهشتُ بشِدَّةٍ من تلقِّي إجابةٍ بهذه الوقاحة من شخصٍ غريب، وشعرتُ بالارتباك من ملامح رفاق الرجل العابسة، وأجبتُ في سرعة:

- «لماذا تجيبني بهذه الخشونة؟ ليس من عادات الإنجليز استقبال الغرباء بهذا النفور».

قال الرجل:

- «لستُ أدري عادات الإنجليز، لكن من عادات الأيرلنديين أن يكرهوا القتلة».

مع استمرار هذه المحادَثة الغريبة لاحظتُ ازدياد الحشد، وكانت الوجوه تحمل مزيجًا من الفضول والعبوس أثار ضيقي وقلقي أيضًا. سألتُ عن الطريق إلى الخان، لكن أحدًا لم يُجِبني، فتقدَّمتُ إلى الأمام ليرتفع صوت لغط من الجمع الذي أحاط بي وتبعني. ثم إن رجلًا خبيث الملامح اقترب مني وربَّت على كتفي قائلًا:

- «تعالَ معي يا سيِّدي. يجب أن تأتي معي إلى السيِّد كروين لتُقَدِّم له نفسك».

- «ومَن يكون السيِّد كروين؟ ولماذا يَجدُر بي أن أقدِّم نفسي لأحد؟ أليس هذا بلدًا حُرًّا؟».

- «بالطبع يا سيِّدي، هو بلد حُر للقوم الصالحين. السيِّد كروين هو

قاضي البلدة، وستحكي له عن موت شاب عُثِرَ عليه مقتولًا هنا ليلة أمس».

جعلَتني إجابته أجفل، لكني استعدت هدوئي بعد قليل. كنتُ بريئًا، وإثبات هذا يسير. هكذا سِرتُ وراء الرجل في صمتٍ إلى واحدٍ من أفضل المنازل في البلدة.

كنتُ على وشك الانهيار من الجوع والتعب، لكن اجتماع هؤلاء القوم حولي جعلني أفكِّر أنه من الحِكمة أن أبدو قويًّا كي لا يشي ضعفي الجسدي بارتكابي للجريمة المزعومة بالفعل. لم أكن أتوقَّع الكارثة التي ستحل بي بعد قليل وتُحَطِّم كلَّ خوفٍ من الخزي أو الموت.

يجب أن أتوقَّف هنا، لأن تَذَكُّر الأحداث المخيفة التي أوشك على حكيها بدِقَّةٍ يتطلَّب كلَّ ما لديَّ من ثبات.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي والعشرون

مثلتُ بعد قليلٍ أمام القاضي، وكان رجلًا هَرِمًا طيِّب الملامح مهذَّب الأسلوب، لكنه نظر إليَّ بشيءٍ من التجهُّم، ثم التفت إلى من اصطحبوني وطلب أن يتقدَّم الشهود. هؤلاء كانوا نِصف دستةٍ تقريبًا، واختار القاضي أحدهم ليتحدَّث، فبدأ يروي أنه كان يصطاد الأسماك في الليلة السابقة مع ابنه وزوج أخته دانييل نوجنت، وفي العاشرة مساءً تقريبًا لاحَظوا ريحًا شماليَّة قويَّة تبدأ في الهبوب، ومن ثم قرَّروا الرسو. كانت ليلة شديدة الإظلام مع عدم ظهور القمر، ولم يرسوا في المرفأ، بل في خليجٍ صغير على بُعد ميلين. خرج الرجل أولًا حاملًا جزءًا من عُدَّة الصيد، وتبعه رفيقاه بمسافة، وبينما كان يشق طريقه في الرمال ارتطمت قدمه بشيء وتعثَّر ساقطًا على الأرض. جاء رفيقاه لمساعدته، وعلى ضوء الفانوس رأوا أنه سقط على جسد رجلٍ يبدو أنه ميِّت. افترضوا أولًا أنها جُثَّة شخصٍ غرق وألقته الأمواجُ على الشاطئ، لكن مع فحصهم للجُثَّة وجدوا أن ملابسه كانت جافَّة، والجسد نفسه لم يكن باردًا. حملوه في الحال إلى كوخ امرأةٍ عجوز بالقُرب من البُقعة التي وجدوه فيها، وحاولوا إسعافه لكن عبثًا. كان ميِّتًا بالفعل. كان شابًّا وسيمًا في الخامسة والعشرين من عُمره تقريبًا، وكان من

الواضح أنه خُنِقَ خنقًا، لأن جسده لم يكن يحمل أيَّ علامات عنفٍ سوى آثارٍ سوداء لأصابع على عُنُقه.

استمعتُ إلى الجزء الأول من الشهادة في ضجرٍ وبلا أدنى اهتمام، لكن عندما أتى الرجل على ذِكر آثار الأصابع، تَذكَّرتُ مقتل أخي ويليام، وشعرتُ بأسىً عميق. ارتجفَت أطرافي، وغطَّت غشاوة عينيَّ، واضطررتُ للارتكان إلى أحد المقاعد، فرمقني القاضي بنظرةٍ حادَّة، فقد أثار تصرُّفي هذا شكوكه بالطبع.

أكَّد الابن رواية والده، لكن عندما استُدعي دانييل نوجنت هذا للشهادة أقسم إنه رأى، قبل سقوط رفيقه، قاربًا يجلس فيه رجل واحد على بُعد مسافةٍ قصيرة من الشاطئ، ورأى على ضوء النجوم الشاحب أنه القارب ذاته الذي جئتُ منه.

شهدت امرأة أنها تعيش بالقُرب من الشاطئ، وكانت واقفة عند عتبة دارها في انتظار عودة الصيَّادين قبل ساعةٍ من سماعها باكتشاف الجُثَّة، عندما رأت قاربًا يقوده رجل واحد بعيدًا عن البُقعة التي عُثِرَ فيها على الجُثَّة لاحقًا.

وأكَّدت امرأة أخرى رواية الصيَّادين الذين أتوا بالجُثَّة التي لم تَبرُد بَعد إلى كوخها ووضعوها في فِراشٍ وأخذوا يُدَلِّكون أطرافها، وهُرِعَ دانييل نفسه إلى البلدة كي يأتي بالنطَّاسي، لكن الروح كانت قد فارقت الجسد بالفعل.

تَمَّ استجواب عددٍ كبيرٍ من الرجال الآخَرين بخصوص نزولي إلى الشاطئ، واتَّفقوا جميعًا على أنه مع الريح الشماليَّة العنيفة التي هبَّت خلال الليل، فإنه من المرجَّح للغاية أنني صارعتها لساعاتٍ طويلة قبل اضطراري للعودة إلى البُقعة التي أبحرتُ منها. قالوا أيضًا إنه من الواضح أنني أتيت بالجُثَّة من مكانٍ آخَر، وإنه من الجلي أنني لا أعرف

twitter @baghdad_library

الشاطئ، وكان من الممكن أن أدخل المرفأ غير عالمٍ بوجود البلدة على مقربةٍ منه.

استمع القاضي كروين إلى هذه الأدلَّة، وأمر بدخولي إلى الغُرفة التي تقبع فيها الجُثَّة من أجل تجهيزها للدفن كي يتم تسجيل وقع رؤيتي لها عليَّ. لعل الدافع وراء هذا هو ردَّة الفعل التي صدرت مني مع سماعي لطريقة القتل، وهكذا تَمَّ اقتيادي بصُحبة القاضي وعددٍ من الرجال إلى الخان. لم أستطِع منع نفسي من الشعور بالدهشة للمُصادَفات الغريبة التي وقعَت خلال تلك الليلة الزاخرة بالأحداث، لكن مع ثقتي بوجودي مع سُكَّان الجزيرة التي كنتُ أسكنها وقت وقوع الجريمة كنتُ مطمئنًّا إلى النتيجة.

اقتادوني إلى الغُرفة التي مدَّدوا فيها الجثمان في تابوت.

كيف يُمكنني وصف شعوري لحظة رؤيتها؟

ما زالت ذكرى اللحظة تُفعِمني رُعبًا، ولا يُمكنني تذكُّر الموقف الرهيب دون أن أرتجف ألمًا.

مَرَّ الاستجواب وحضور القاضي والشهود في ذاكرتي كالحُلم وأنا أنظر إلى جُثَّة هنري كليرڤال الممدَّدة أمامي، وشهقتُ وألقيتُ بنفسي على الجُثَّة صارخًا:

- «هل حرمتك جرائمي أنت أيضًا من الحياة يا هنري؟ اثنان دُمِّرا بسببي، والآخَرون ينتظرون مصيرهم، لكن أنت يا كليرڤال يا صديقي و..».

ولم يَعُد جسدي البشري يستطيع احتمال الآلام التي تعرَّضتُ لها، وحُمِلتُ خارج الغُرفة مصابًا بنوبة هياج شديدة.

أُصِبتُ بحمَّى عنيفة، وتأرجحتُ على حافَّة الموت طوال شهرين

كاملين. عرفتُ لاحقًا أن هذياني كان مخيفًا: كنتُ أسمِّي نفسي قاتل ويليام وچستين وهنري، وكنتُ أتوسَّل أحيانًا أن يُساعِدوني في تدمير المسخ الذي عذَّبني، وفي أحيانٍ أخرى كنتُ أشعر بأصابع الوحش تلتف حول عُنُقي بالفعل، فكنتُ أصرخ في ألمٍ ورُعب. لحُسن الحظ أنني كنتُ أتكلَّم بلُغتي الأم، ولم يفهمني سوى السيِّد كروين، لكن تعبيرات وجهي وصرخاتي المريرة كانت كفيلة بإثارة هلع الشهود الآخَرين.

لماذا لم أمت؟

لماذا لم يَطوِني النسيان والراحة الأبديَّة، وقد كنتُ أكثر بؤسًا من أيِّ إنسانٍ آخَر؟

الموت يَقتَنِص الكثير من الأطفال الأبرياء الذين يبني عليهم آباؤهم كلَّ الآمال، وكم من العُشَّاق كان في أوج الشباب ذات يومٍ وفي اليوم التالي صار طعامًا لديدان القبور.

من أيِّ طينةٍ إذن كنت مخلوقًا لأقاوِم كلَّ تلك الصدمات التي ظلَّت تُجَدِّد العذاب كأنها عجلة تدور بلا نهاية؟

لكن كُتب عليَّ أن أحيا، وبعد شهرين وجدتُ نفسي كأنني أفيق من حُلم عميق، لأجدني ممدَّدًا على فِراشٍ حقير ومحاطًا بالسَّجَّانين والقضبان والمزاليج وغيرها من مظاهر الزنازين المُقبِضة. أذكرُ أنه كان الصباح عندما استعدتُ وعيي، وكنتُ قد نسيتُ تفاصيل ما حدث بالضبط، لكني أدركتُ أن مصيبةً ما قد حلَّت بي فجأة. إلا أنني عندما نظرتُ إلى النوافذ المسدودة بالقضبان وحالة المكان التي يُرثَى لها، لمعت الأحداث الرهيبة في ذهني، وأطلقتُ أنَّة مريرة.

أزعج هذا الصوت امرأةً عجوزًا كانت جالسة على كرسي بالقرب

twitter @baghdad_library

مني. كانت ممرِّضة مأجورة وزوجة لأحد السَّجَّانين، وعبَّرت ملامحها عن كلِّ الصفات السيئة التي تتَّسم بها تلك الطبقة. تقاسيم وجهها كانت خشنة وتشي بالوقاحة، وصوتها عبَّر عن لامبالاتها التامَّة بي عندما خاطبَتني بالإنجليزيَّة قائلةً بصوتٍ بدا مألوفًا لي من أحلامي:

- «هل تشعر بتحسُّن الآن يا سيِّدي؟».

أجبتُ بصوتٍ ضعيف باللُّغة نفسها:

- «أعتقدُ ذلك. لكن إذا لم يكن هذا حُلمًا، فإنني آسفٌ لأنني ما زلتُ حيًّا».

قالت العجوز:

- «إذا كنت تَقصِد الشاب الذي قتلته، فأعتقد أنه من الأفضل لو مُتَّ بالفعل، لأن الأمور ستسوء بالنسبة إليك كثيرًا! هذا ليس من شأني على كلِّ حال. إنني هُنا لأمرِّضك وأعتني بك، وإنني أقوم بواجبي بضميرٍ نقي. ليت الجميع كانوا كذلك».

أشحتُ بوجهي إلى الناحية الأخرى في نفورٍ من المرأة التي لفظت هذه الكلمات القاسية لشخصٍ تم إنقاذه للتو من الموت، لكني كنتُ أوهَن من أن أفكِّر في كلِّ ما حدث، وتاريخ حياتي كله بدا لي كحُلم، لدرجة أنني ارتبتُ أحيانًا في أن كلَّ ذلك كان حقيقيًّا، لأن الأحداث لم تَدُر في عقلي بوضوح الواقع.

بدأت الصور المارَّة بمخيِّلتي تتَّضح، وعندها عادت الحمَّى من جديد واحتشد الظلام حولي. لا أحدَ بالقُرب مني يواسيني بصوت الحُب الدافئ، ولا يد حنون تعينني. جاء النطاسي ووصف بعض العقاقير فأعدَّتها لي العجوز، لكن لامبالاة كاملة كانت جليَّة في ملامح

الأول، والثانية كانت تتعامل معي بمنتهى الكراهية. من قد يهتم بمصير قاتلٍ سوى الجلَّاد الذي سيتلقَّى أجره؟

كانت هذه هي أفكاري اللحظيَّة، لكني عرفتُ سريعًا أن السيِّد كروين كان يُعامِلني برفقٍ شديد. لقد أمر بإعداد أفضل غُرَف السجن لي (على حالتها المزرية هذه كانت أفضل غُرفة)، وهو الذي جاء لي بنطاسي وممرِّضة. صحيحٌ أنه لم يأتِ لزيارتي كثيرًا، لكن هذا كان لأنه، على الرغم من رغبته في تخفيف آلام أيِّ إنسان، لم يرغب في أن يكون حاضرًا يستمع لهذيان وهلاوس قاتل. كان فقط يأتي ليرى أنني لا أُعامَل بإهمال، لكن زياراته كانت قصيرة وتفصلها فترات طويلة.

أجلسوني ذات يومٍ في مقعد عندما بدأت صِحَّتي تتحسَّن تدريجيًّا، لكن عينيَّ كانتا نِصفَ مغلقتين، ووجهي ممتقعًا كوجوه الأموات. غمرتني الكآبة، وكانت أفكاري كثيرًا ما تدور حول أنه خير لي أن أموت بدلًا من البقاء على قيد الحياة في هذا العالم المكتظ بالآلام، وذات مرَّةٍ فكَّرتُ أن أعترف بالجريمة وأتلقَّى العقوبة القانونيَّة كما فعلت چستين المسكينة التي كنتُ أقلَّ براءةٍ منها. كانت تلك هي الأفكار الدائرة في خَلَدي عندما فُتِحَ باب الزنزانة ودخل السيِّد كروين. كانت ملامح وجهه تشي بالتعاطُف والمودَّة، وسحب كرسيًّا ليجلس على مقربةٍ مني وقال بالفرنسيَّة:

- «أخشى أن هذا المكان صادم لك كثيرًا، لكن هل من شيءٍ أستطيع تدبيره لك لأجعلك أكثر راحة؟».

- «أشكرك، لكن كلَّ ما تقوله لا يعني لي شيئًا. لا يوجد سبيل واحد للراحة لي على الأرض بأسرها».

- «أعرفُ أن تعاطُف الغريب لا يكفي لرجلٍ مثلك حدث له

twitter @baghdad_library

ما حدث بسبب مصادفةٍ غريبة، لكني آملُ أنك ستُغادِر هذا المكان الكئيب قريبًا، لأن من السهل الإتيان بدليلٍ لا شكَّ فيه يعفيك من الاتِّهام بارتكاب الجرم».

- «لم أعد أبالي. لقد أصبحتُ بعد سلسلةٍ من الأحداث الغريبة أكثر الفانين بؤسًا، فهل اضطهادي وتعذيبي يجعلان الموت شرًّا لي حقًّا؟».

- «لا شيءَ يؤلم بالتأكيد أكثر من المصادَفات العجيبة التي وقعت مؤخَّرًا. مصادفة مدهشة ألقت بك على الشاطئ المعروف بكرم ضيافة أهله، وأُلقي القبض عليك في الحال، واتُّهِمت بجريمة قتل. أول مشهد وقعت عليه عينك هو جُثَّة صديقك الذي قتله مسخ ما ووضعه في طريقك».

رغم ألمي ومعاناتي شعرتُ بدهشةٍ كبيرةٍ للمعلومات التي يملكها السيِّد كروين عني، وأعتقدُ أن هذه الدهشة تجلَّت في ملامحي، لأنه أسرع يقول:

- «بعد سقوطك في نوبة المرض مباشرةً، جُلِبَت إليَّ جميع الأوراق التي كانت معك، وقرأتها ناشدًا العثور على عنوان لأقاربك لأخبرهم بما حدث لك. عثرتُ على خطاباتٍ عديدة، وعرفتُ من أحدها أنه مُرسَلٌ من أبيك، ومن ثم بعثتُ برسالةٍ إلى چنيڤ في الحال، ومَرَّ شهران منذ ذلك الحين. لكنك مريض، وتبدو مرتجفًا وغير قادر على احتمال أيِّ إثارة».

- «هذا التشويق أسوأ ألف مرَّةٍ مما حدث. قُل لي من قُتِلَ هذه المرة، وأيُّ أحبائي سأبكي على موته؟».

قال السيِّد كروين مبتسمًا:

- «عائلتك في خير حال، والحقيقة أن صديقًا جاء لزيارتك».

لا أدري كيف راودَتني الفكرة بالضبط، لكن عقلي اشتعل في الحال بخاطِر أن القاتل جاء ليسخر مني في بؤسي ويقول لي متهكِّمًا إن موت كليرڤال ليس إلا تحريضًا لي على الإذعان لرغباته الشيطانيَّة.

وضعتُ يدي على عينيَّ صارخًا:

- «لا! خُذه بعيدًا! لست أريد رؤيته! بالله عليك لا تسمح له بالدخول!».

نظر إليَّ السيِّد كروين بارتباك، ولم يستطِع سوى أن يعتبر أن صراخي ما هو إلا قرينة على ذنبي، وقال في صرامة:

- «حسبتُ أن وجود والدك سيُسعِدك أيها الشاب بدلًا من إثارة ارتياعك هكذا».

هتفتُ وكل خلجة في وجهي تسترخي فجأة:

- «أبي؟! هل أبي هنا بحق؟ رائع! رائع حقًّا! لكن أين هو، ولِمَ لم يُسرع للقائي؟».

عادت ردَّة فعلي تُدهِش القاضي، وإن امتزجت دهشته بالسرور هذه المرَّة. لعله افترض أن انفعالي الأول كان عودة مؤقَّتة لهذيان الحمَّى، فعاد ينظر إليَّ برفق، ثم نهض وخرج من الغُرفة مع الممرِّضة، وبعد لحظةٍ دخل أبي.

لا شيءَ في تلك اللحظة كان ليُسعِدني كما أسعدني مجيء أبي، ومددتُ يدي إليه هاتفًا:

- «هل أنت بخير إذن؟ وإليزابث وإرنست؟».

أكَّد لي مهدِّئًا أنهم جميعًا بخير، وحاول بالخوض في الكلام عن عائلتي، بكلِّ ما يُسَبِّبه لي هذا من راحة، أن يرفع من روحي المعنويَّة التي كانت في الحضيض، لكنه سرعان ما أدرك أن السجن ليس

twitter @baghdad_library

بالمكان المناسب للأحاديث السارَّة، وقال ناظرًا في حزنٍ إلى قضبان النوافذ وحالة المكان المزرية:

- «يا له من مكان هذا الذي تقطنه يا ولدي! لقد سافرت بحثًا عن السعادة، لكن الهَمَّ يُطارِدك. وكليرڤال المسكين..».

كان ذِكر اسم صديقي القتيل يحمل من الألم ما لم أستطع احتماله في حالتي، وسالت الدموع من عينيَّ وأنا أجيب:

- «نعم. للأسف يا أبي ثمَّة مصير مُخيف يُلاحِقني، ويجب أن أعيش لأشهده يتحقَّق، وإلا لكنتُ مِتُّ على تابوت هنري».

لم يكن مسموحًا لنا بالحديث لوقتٍ طويل، لأن حالتي الصِّحِّيَّة الضعيفة جعلت اتخاذ كلِّ إجراءٍ يضمن هدوئي ضروريًّا. دخل السيِّد كروين وأصرَّ أنني لا يجب أن أُعَرِّض نفسي للخطر بالإفراط في الانفعال، لكن ظهور أبي كان كظهور ملاكي الحارس، وبدأتُ أسترد صِحَّتي تدريجيًّا. وعلى الرغم من مغادَرة المرض لجسدي، إلا أن سحابة كئيبة مُظلمة احتوتني، ولم يكن من شيءٍ يُمكنه تبديدها. صورة صديقي كليرڤال كانت حاضرة أمامي دائمًا وهو قتيل، وأكثر من مرَّةٍ خاف أصدقائي أن يصيبني الألم الذي ألقتني فيه هذه الأفكار بنكسة.

عجبًا! لماذا كانوا يحاولون الحفاظ على حياةٍ بهذا البؤس؟

من المؤكَّد أنني سألقى نهايتي التي تدنو الآن، وقريبًا -قريبًا جدًّا- سيُصمِت الموت نبضات قلبي ويُريحني من العبء الذي يحملني إلى التراب، وعندها سأستريحُ. عندها تتحقَّق العدالة. وقتها كان الموت عزيز المنال، رغم أن فكرته كانت دائمة الحضور في مخيِّلتي، وكثيرًا ما كنتُ أجلس لساعاتٍ دون حراك ودون أن أنبس ببنت شفة، متمنيًا أن تقوم ثورة عنيفة تدفنني مع مدمِّري إلى الأبد.

اقترب موسم الجلسات القضائيَّة، وكنتُ قد قضيتُ ثلاثة شهورٍ في السجن بالفعل. ورغم أني كنتُ ما زلت أعاني الضَّعف، وفي خطرٍ مستمر من الإصابة بنكسة، إلا أنني كنتُ ملزَمًا بالسفر لمسافة مئة ميلٍ تقريبًا إلى البلدة التي تُعقَد فيها المحاكمات. تولَّى السيِّد كروين تدبير الشهود والترتيب للدفاع عني، وهكذا أُعفيتُ من الظهور أمام العامَّة كمجرم، بما أن القضيَّة لم تتولَّها المحكمة التي تُقَرِّر حياتي أو موتي، إذ رفضَت هيئة المحلفين اتهامي مع إثبات أنني كنتُ موجودًا في جُزُر أوركني في الساعة التي عُثِرَ فيها على جُثَّة صديقي، وهكذا خرجتُ من السجن بعد أسبوعين من انتقالي.

شعر أبي بسعادةٍ بالغة مع تحرُّري من عار الإدانة بالجرم ومع السماح لي بتنفُّس الهواء النقي من جديد والعودة إلى وطني أخيرًا. لم أشاركه تلك المشاعر، فجدران زنزانة أو قصر كانت كريهة لي على حدٍّ سواء. كأس الحياة صارت مسمومة إلى الأبد، وعلى الرغم من أن الشمس كانت تغمرني بضوئها كما تغمر السعداء، فإنني لم أرَ حولي سوى ظلمة مخيفة لا يخترقها شيء سوى بريق العينين الحاضرتين أمامي دومًا. أحيانًا كانتا عيني هنري الصادقتين وقد أصابهما الموت بالذبول، والبؤبؤين الداكنين يغطيهما الجفنان والأهداب الطويلة، وأحيانًا كانتا عيني الوحش الدامعتين كما رأيتهما للمرَّة الأولى في غُرفتي في إنجولشتادت.

حاوَل أبي أن يوقظ عواطفي من جديد. كان يتحدَّث عن چنيڤ التي سأعود إليها قريبًا، وعن إليزابث وإرنست، لكن هذه الكلمات كانت تجعلني أئن في حرارة. بالطبع تمنَّيتُ السعادة أحيانًا، وفكَّرتُ باستمتاع في ابنة عمي الحبيبة، وجعلَني الحنين إلى الوطن أشتاق لرؤية البحيرة الزرقاء ونهر الرون المتدفِّق الذي كان محبَّبًا لي منذ طفولتي. لكن

twitter @baghdad_library

حالة مشاعري العامَّة اتسمت بالبلادة، حتى إن جدران السجن كانت لا تختلف عندي عن أبهى مناظر الطبيعة، ولم يكن يعترض هذه المشاعر المحايدة أيُّ شيءٍ سوى نوبات اليأس. في تلك اللحظات كنتُ أحاول وَضْع نهايةٍ لوجودي الذي صِرتُ أمقته، وكان الأمر يتطلَّب يقظة دائمة من أبي لمنعي من ارتكاب أيِّ فعلٍ عنيف. لكن واجبًا واحدًا تبقَّى لي، وتفكيري فيه انتصر على يأسي الأناني: من الضروري أن أعود إلى چنيڤ بلا إبطاء، وهناك سأعتني بأحبائي وأنتظر القاتل حتى تقودني الصُّدفة إلى مكمنه أو يجرؤ هو على الظهور من جديد، وعندها لن أخيب في وضع نهايةٍ لصورته الوحشيَّة التي اكتسبت روحها بشاعةً أكبر. أراد أبي تأجيل رحيلنا خشية عدم احتمالي لإرهاق الرحلة، فقد كنتُ أبدو كظِلٍّ إنسانٍ لا أكثر. اختفَت قُوَّتي وبِتُّ مجرَّد هيكلٍ عظمي، والحمَّى كانت تلتهم جسدي الهزيل بلا توقُّف.

لكنني ألححتُ على أبي بمغادرة أيرلندا بصبرٍ نافد، ولم يكن يملك سوى الخضوع. حجزنا مكانًا على قاربٍ في طريقه إلى هاڤر دو جراس، وأبحرنا بريحٍ مواتية بعيدًا عن الشواطئ الأيرلنديَّة. كنا في مُنتَصَف الليل، واستلقيتُ على ظَهر القارب أرمق النجوم وأصغي إلى انكسار الأمواج. رحَّبتُ بالظلام الذي جعل أيرلندا تغيب عن ناظريَّ، وخفق قلبي بالسرور مع بدء رحلة العودة إلى چنيڤ. بدا لي الماضي كحُلم قديم، لكن القارب الذي حملني والرياح التي أبعدتني عن شواطئ أيرلندا الكريهة والبحر الذي أحاط بي من كلِّ حدبٍ وصوب.. كلُّ هذه الأشياء أخبرَني بقسوةٍ بأنني لم أكن أحلم، وأن كليرڤال أعز وأصدق أصدقائي قد سقط ضحيَّة لي وللوحش الذي صنعته. في عقلي أخذتُ أستعرض حياتي كلها: سعادتي الهادئة أثناء معيشتي مع عائلتي في چنيڤ، موت أمي، رحيلي إلى إنجولشتادت. تذكَّرتُ

مرتجفًا الحماسة المجنونة التي جعلَتني أسارع بصُنع عَدُوِّي البشع، وتذكَّرتُ الليلة التي جاء فيها إلى الحياة. كنتُ غير قادرٍ على قطع تسلسُل الأفكار، واجتاحني ألف شعور وشعور، وأخذتُ أبكي بمرارة.

منذ إفاقتي من الحمَّى اعتدتُ على تعاطي مقدارٍ ضئيل من صبغة الأفيون في كلِّ ليلة، فهذا المخدِّر وحده كان يستطيع جعلي أحصل على الراحة الضروريَّة، لكني تعاطيتُ ضِعف الجُرعة في تلك الليلة مع مطارَدة الأفكار لعقلي، وبعد قليل غِبتُ في النوم. لكن النوم لم يمنحني الراحة من الأفكار، وأحلامي كانت تعج بالأشياء المخيفة، وصوب الصباح راودني كابوس عنيف شعرتُ فيه بقبضة المسخ تُطَوِّق عُنُقي حتى لم أعُد أستطيع التقاط أنفاسي، قبل أن أستيقظ على صوت صياح.

لاحَظ أبي الذي كان يُراقِبني اضطرابي فأسرع بإيقاظي، ورأيتُ الأمواج حولي والسماء الغائمة فوقي، والمسخ لم يكن هناك. شعرتُ حينها ببعض الأمان، وبأن هناك هدنة قائمة بين الحاضر والمحتوم، و منحَني المُستَقبَل الكارثي بشكلٍ غريب شيئًا من النسيان الذي يتعرَّض له العقل البشري في بعض الأوقات.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني والعشرون

انتهت الرحلة ورَسَوْنا في هاڤر دو جراس قبل أن نتَّخذ طريقنا إلى پاريس. اكتشفتُ سريعًا أنني أرهقتُ نفسي أكثر من اللازم، وأنني يجب أن أستريح قبل استكمال الرحلة. رعاية واهتمام أبي كانا بلا حدود، لكنه لم يكن يعرف مصدر معاناتي، وحاول بمختلَف الطُّرُق علاج المرض العُضال. أرادني أن أستمتع بصُحبة الآخَرين، لكنني نفرتُ من وجوه البَشَر.. لا، لم أنفر منها! إنهم إخوتي في الإنسانيَّة، وكنتُ منجذبًا حتى إلى الأكثر وضاعة بينهم، كأنهم كائنات ملائكيَّة ليست من هذا العالم، لكنني شعرت بأني لا أملك الحق في الوجود بينهم. لقد أطلقتُ بينهم خصمًا يستمتع بإراقة دمائهم ويجد سعادته في عذابهم. إن عليهم النفور مني أنا، بل وطردي من عالمهم إذا عرفوا الآثام والجرائم التي كنتُ مصدرها.

أذعن أبي أخيرًا لرغبتي في تجنُّب الرِّفقة، وكافح بشتَّى الوسائل لطرد اليأس مني. حسب أحيانًا أنني أشعر بعار المثول أمام المحكمة مُتَّهمًا بجريمة قتل، وكان عندها يُحاوِل إقناعي بعبث الغرور، لكنني قلت له:

– «للأسف يا أبي إنك لا تعرفني إلا قليلًا. العار كلُّ العار أن يشعر

مَنْ مثلي بالغرور، فهو إهانة للبَشَر. چستين المسكينة كانت بريئة مثلي وواجهت التهمة ذاتها وماتت، وأنا السبب. أنا قتلتها وقتلت ويليام وهنري بيديَّ هاتين».

كان أبي خلال سجني قد سمعني كثيرًا وأنا أؤكِّد الشيء ذاته، وعندما كنتُ أتَّهم نفسي بهذه الجرائم كان يطلب تفسيرًا، وأحيانًا كان يعتبر قولي نتاجًا للحمَّى التي أصابتني، وأن هذه الفكرة قد راودَتني خلال مرضي بشكلٍ ما حتى صاحبَتني في فترة نقاهتي. تحاشيتُ التفسير وحافظتُ على صمتٍ دائم بخصوص المسخ. كنتُ مقتنعًا بأنه سيعتبرني مجنونًا، وهذه الفكرة وحدها كانت كافية لوضع الأغلال على لساني إلى الأبد. بالإضافة إلى هذا لم أستطِع الإفصاح عن سِرٍّ يملأ سامعي برُعبٍ سيُصاحِبه ما حيي، ولهذا كبحتُ رغبتي في التعاطُف ولُذتُ بالصمت عندما كان بإمكاني البوح بالسِّرِّ المميت. ومع ذلك، كانت كلمات كهذه تخرج مني رغمًا عني ولم أستطِع تقديم تفسيرٍ لها، لكن ما حملته من الحقيقة كان بشكلٍ ما يُخَفِّف العبء.

في مناسَبةٍ كهذه قال أبي بدهشةٍ لم يستطِع مواراتها:

– «عزيزي ڤيكتور، أيُّ هراءٍ هذا الذي تقوله؟ أرجوك، لا تقل هذه الأشياء مرَّة أخرى يا بني».

هتفتُ بانفعال:

– «لستُ مجنونًا! الشمس والسماوات شاهدة على أفعالي وخطاياي. إنني قاتل هؤلاء الضحايا الأبرياء. هُم ماتوا بسببي. كان يُمكنني ألف مرَّةٍ أن أذرف دمائي قطرة قطرة لأُنقِذهم، لكنني لم أستطِع يا أبي. لم أستطِع التضحية بالجِنس البشري كله».

أقنعَت خاتمة هذا الحديث أبي بأن أفكاري مضلَّلة، فحوَّل مسار

twitter @baghdad_library

المناقَشة في الحال محاولًا تغيير مجرى أفكاري. كان يبغي بكلِّ جوارحه أن يزيل ذكرى الأحداث التي وقعت في أيرلندا من ذاكرتي، فلم يُشِر إليها قَطُّ ولم يسمح لي بأن أتكلَّم عنها.

أمسيتُ أكثر هدوءًا مع مرور الوقت. كان البؤس قابعًا في قلبي لا يزال، لكني لم أعُد أتكلَّم عن جرائمي بالأسلوب المرتبِك السابق، فوعيي بها كان يكفي ويزيد.

بكلِّ ما أوتيتُ من قوَّةٍ وصبرٍ كبحتُ الصوت القاسي الذي أراد كثيرًا أن يهتف معلِنًا عن نفسه للعالَم كله، والنتيجة أن تصرُّفاتي صارت أهدأ وأكثر اتزانًا منذ خرجتُ في رحلتي إلى بحر الجليد.

قبل عدَّة أيام من مغادرتنا پاريس في الطريق إلى سويسرا تلقَّيتُ هذه الرسالة من إليزابث:

«صديقي العزيز،

أسعدَني للغاية أن أتلقَّى رسالة من عمي مُرسَلَة من پاريس، ما يعني أنك لم تَعُد بعيدًا إلى تلك الدرجة، وآملُ أنني سأراك قبل مرور أسبوعين. لا بُدَّ أنك عانيت كثيرًا يا ابن العم المسكين. إنني أتوقَّع أن أراك أكثر مرضًا مما كنت قبل مغادرتك چنيڤ. لقد مَرَّ هذا الشتاء عليَّ ثقيلًا والقلق يُعَذِّبني، لكني آملُ أن أرى ملامحك تنضح بالطمأنينة، وأن أجد قلبك غير خالٍ تمامًا من الهدوء والسَّكينة.

لكنني ما زلتُ أخشى أن المشاعر التي أصابتك بالقنوط منذ عامٍ لا تزال تُصاحِبك، ولعلها تزايدَت مع مرور الوقت. لن أزعجك في هذه الأثناء وأنت تعاني من أعباءٍ كثيرة، لكن ثمَّة حوارًا دار بيني وبين عمي قبل رحيله يجعل من الضروري أن أعطيك تفسيرًا قبل أن نلتقي.

تفسير! رُبما تقول: وما الذي لدى إليزابث لتُفَسِّره؟ إن قلت ذلك حقًّا، فإن أسئلتي أُجيبت وشكوكي أُزيلت. لكنك بعيد عني، ومن الوارد أنك تخشى هذا التفسير، وفي الوقت ذاته تُسَرّ به. فإذا كانت هذه هي الحال، فلا أستطيع أن أؤجِّل ما تمنَّيت التعبير لك عنه ولم أملك الشجاعة لفِعله طوال فترة غيابك.

تعرف جيدًا يا ڤيكتور أن زواجنا كان أمنية والديك منذ طفولتنا. عرفنا هذا ونحن صغار، وتعلَّمنا أن نتطلَّع إليه على أنه حدث لا بُدَّ من وقوعه. كنا رفيقَي لعبٍ متحابَّيْن في الطفولة، وصديقَين مُخلِصَين ونحن نكبر، لكن بما أن المعتاد أن الأخ وأخته لا تجمعهما سوى مشاعر الأخوَّة الطبيعية دون التطلُّع إلى ما هو أكثر، أفليس من الجائز أن تكون هذه هي الحال معنا؟ قل لي يا ڤيكتور العزيز، أناشدك أن تجيبني بحقِّ ذكرياتنا المشتركة على سؤال بسيط: هل تحب امرأة أخرى؟

لقد سافرت وقضيت سنواتٍ طويلة من حياتك في إنجولشتادت، وأعترفُ لك يا صديقي بأنني عندما رأيتك في الخريف الماضي تعيسًا تنشد العُزلة بعيدًا عن أي مخلوق، لم أستطِع منع نفسي من افتراض أنك آسف لارتباطنا وتحسب نفسك ملزَمًا بشرفك بتحقيق أمنية أبويك، على الرغم من تعارُضها مع نِيَّتك ورغبتك. لكن هذا استنتاج خاطئ. أعترفُ لك يا صديقي بأنني أحبك، وبأنك في أحلامي المُستَقبَلِيَّة كنت دائمًا صديقي ورفيقي. إنها سعادتك التي أريد، وسعادتي أيضًا، عندما أعلن لك أن زواجنا سوف يجعلني بائسة إلى الأبد إذا لم يكن نابعًا من رغبتك وبكامل إرادتك الحُرَّة. إن دموعي تسيل الآن وأنا أفكِّر أنك في حالتك هذه قد تجنح إلى خنق كلِّ آمال الحب والسعادة التي ستعيدك إلى نفسك، فقط لأنك

twitter @baghdad_library

مقيَّد بكلمة شرف، وأنا التي أحمل لك عاطفة ليس لها مثيل قد أكون العائق الذي يحول بينك وبين أمانيك. آه يا ڤيكتور! ثِق بأن ابنة عمك ورفيقة صباك تُحِبُّك بإخلاصٍ يجعلها لا تتمنَّى لك سوى السعادة، فكُن سعيدًا إذن يا صديقي. وإذا لبَّيت لي هذه الرغبة الوحيدة، فتأكَّد أن لا شيءَ في العالم سيجرؤ على تبديد سلامي النَّفسي.

لا تجعل هذه الرسالة تُزعِجك، ولا تردّ عليها غدًا أو بعد غد، أو حتى قبل أن تعود إذا كان الرد سيؤلمك. سيُرسِل لي عمي أخبار صحَّتك، وإذا رأيت ابتسامة واحدة على شفتيك عندما نلتقي فسأصبح قانعةً إلى الأبد.

إليزابث لاڤنزا،

چنيڤ، الثامن عشر من مايو، القرن الثامن عشر».

ذكَّرني هذا الخطاب بالذي كنتُ قد نسيته: تهديد المسخ بأنه سيكون معي ليلة زفافي. تلك كانت عقوبتي، وفي تلك الليلة سيفعل الشيطان أيَّ شيءٍ لتدميري وحرماني من لمحة السعادة الواعدة بتخفيف آلامي ولو جزئيًا. في تلك الليلة قرَّر إكمال جرائمه بموتي.

ليكن.. لكن صراعًا مميتًا لا بُدَّ أن يقع قبلها، فإذا انتصر فسأستريح أخيرًا وتنتهي سيطرته عليَّ. إما إذا هُزِم فسأصير رجلًا حُرًّا.

لكن أيُّ حُرِّيَّةٍ تلك؟

إنها حُرِّيَّة المُزارع البسيط الذي ذُبِحَت أسرته أمام عينيه واحترق كوخه وبارت أرضه وصار شريدًا معدمًا وحيدًا. تلك هي حُرِّيَّتي، فيما عدا أنني -في إليزابث- لديَّ كنز ثمين ستُصاحِبه بشاعات الندم التي ستُرافِقني ما حييت.

إليزابث الحبيبة! قرأتُ رسالتها وأعدتُ قراءتها عدَّة مرَّات،

وتسلَّلَت بعض المشاعر الناعمة إلى قلبي لتهمس له بأحلام السعادة والطمأنينة. لكن التفاحة التُهِمَت بالفعل، ويد الملاك امتدت لحرماني من كلِّ أمل[1]، ومع ذلك يُمكنني الموت في سبيل إسعادها. إذا نفَّذ الوحش تهديده فلا مفرَّ من الموت. لكنني عُدتُ أفكر في أن زواجي سوف يُعَجِّل بمصيري، وقد يقع دماري بعد شهورٍ قليلة. لكن إذا ارتاب المسخ في تأجيلي له فقد تثور ثائرته ويجد سبيلًا آخَر كي ينتقم مني. لقد أقسم أنه سيكون معي في ليلة زفافي، لكنه لم يعتبر أن هذا التهديد يُلزِمه بالابتعاد عني قبل ذلك الحين، وهذا لأنه قتل هنري بمجرَّد أن ألقى بتهديده ليُريني أن دمويَّته لم تشبع بعد. هكذا توصَّلت إلى أنه لو كان زواجي العاجل بابنة عمي سيُفضي إلى سعادتها وسعادة أبي، فإن خُطط خصمي لتدميري لن تعيقه ساعة واحدة.

بهذه الحالة العقليَّة كتبتُ إلى إليزابث، ورسالتي كانت هادئة موزونة:

«أخشى يا فتاتي الجميلة أن سعادة قليلة تبقَّت لنا على الأرض، لكن سعادتي كلها تدور في فلكك أنتِ. اطردي أفكاركِ السخيفة، فأنتِ وحدكِ تملكين قلبي وحياتي. إن لديَّ سرًّا واحدًا يا إليزابث، سرًّا مخيفًا سوف يُجَمِّد الدِّماء في عروقكِ من فرط الرُّعب. وعندما تزول دهشتكِ من أسباب بؤسي لن يثير عجبكِ سوى أنني نجوتُ من كلِّ ما حدث لي. سأحكي لكِ هذه الحكاية بعد زفافنا بيوم واحد، لأنه يجب أن تكون بيننا ثقة تامَّة، لكنني أطلب منكِ حتى ذلكَ الحين ألا تَذكُري الأمر أو تُلَمِّحي إليه. هذا كلُّ ما أريد، وأعرفُ أنكِ سوف تُلَبِّين رغبتي».

عُدنا إلى چنيف بعد وصول رسالة إليزابث بأسبوعٍ تقريبًا. استقبلَتني

---

(1) إشارة إلى الطرد من الجنة في «الفردوس المفقود».

twitter @baghdad_library

الفتاة الجميلة بحرارة، لكني رأيتُ العبرات تترقرق في عينيها عندما رأت بدني الهزيل ووجهي الشاحب. هي أيضًا تغيَّرت: كانت أنحل قَدًّا وفقدَت تلك الهالة المشعَّة بالحيويَّة التي فتنتني من قبل، لكن رِقَّتها ونظرتها الرفيقة جعلتها أنسب صاحبة لإنسانٍ بائسٍ مثلي.

لم يَدُم الهدوء الذي استمتعتُ به طويلًا، والذكريات جلبت معها جنونًا، وعندما فكَّرتُ في ما حدث أصابني خبال فعلي. أحيانًا كنتُ أحترق بنيران الثورة، وأحيانًا كنتُ هادئًا كمياه بحيرةٍ راكدة. لم أتحدَّث مع أحد ولم أنظر إلى أحد. فقط كنتُ أجلس بلا حراكٍ مُستغرِقًا في التفكير.

إليزابث وحدها امتلكت القُدرة على إخراجي من تلك النوبات. صوتها الرقيق كان يُريحني عندما تستبد بي عواطف الغضب ويَبُثُّ فيَّ المشاعر الإنسانيَّة عندما تتملَّكني البلادة. كانت تبكي معي وتبكي من أجلي.

بعد عودتي بقليل تحدَّث أبي عن زواجي العاجل من إليزابث، وعندما لم أجبه قال:

- «ألديك ارتباطات أخرى؟».

- «مُطلقًا. إنني أحب إليزابث وأتطلع إلى زواجنا بلهفة. يُمكنك تحديد يوم الزفاف، ويومها سأكرِّس نفسي كلها لسعادتها، سواءً بحياتي أو بموتي».

- «لا تقل هذا يا بني. لقد حلَّت بنا مصائب ثقيلة، لكن دعنا نتشبَّث بما تبقَّى لنا من سعادة وننقل حُبَّنا من هؤلاء الذين فقدناهم إلى الذين ما زالوا أحياء. دائرتنا ستكون صغيرة لكن مترابطة بالمشاعر المشترَكة في السرَّاء والضرَّاء. وعندما يُخَفِّف الزمان أحزانك ستجد أشياءَ جديدة تُعنى بها لتُعَوِّضك عمَّا حُرمت منه».

تلك كانت الدروس التي تعلَّمتها من أبي، لكن التهديد ظَلَّ يُطارِدني طوال الوقت. لن تتعجَّب من تفكيري في أن الجرائم الدَّمويَّة التي ارتكبها المسخ جعلتني أراه لا يُقهَر، وأنه عندما قال إنه سيكون معي في ليلة زفافي اعتبرتُ وعيده قَدَرًا محتومًا. لكن الموت لم يكن شرًّا لي إذا صاحبه فقدان إليزابث، وبهذا وجدتني بملامحٍ راضية -بل وبشوشة- أقولُ لأبي إننا يجب أن نتم زواجي بابنة عميَ قريبًا. قرَّرنا إقامة مراسم الزفاف بعد عشرة أيام، وعندها تخيَّلتُ أن مصيري قد تحدَّد تمامًا.

يا إلهي! إذا تخيَّلتُ لحظة واحدة النِّيَّة الحقيقيَّة لخصمي الشيطاني، لكنتُ نفيتُ نفسي بعيدًا عن وطني وجُبتُ أرجاء الأرض وحيدًا بدلًا من إتمام الزيجة الملعونة. لكن المسخ -كأني به يملك قوىً سحريَّة- أعماني عن مخطَّطه الحقيقي، وعندما ظننتُ أنني استعددتُ لموتي كنتُ في الحقيقة أسارع بموت ضحيَّةٍ أغلى بكثير.

مع دُنُوِّ موعد زواجي -وسواءً بدافع الجبن أو شعورٍ تنبُّؤيٍّ ما- شعرتُ بقلبي يسقط بين قدميَّ، لكنني أخفيتُ مشاعري وراء قناعٍ زائفٍ من المرح نجح في بَثِّ السرور في ملامح أبي، لكنه لم ينجح في خداع عين إليزابث اليقظة. كانت تتطلَّع إلى زواجنا بقناعةٍ هادئة، وإن كان يشوبها بعض الخوف النابع من الأحداث السابقة من أن ما بدا وقتها سعادة حقيقيَّة ملموسة قد يستحيل قريبًا إلى حُلمٍ عابر لن يترك سوى آثار ندمٍ عميق.

جرت الاستعدادات للمناسَبة على قدمٍ وساق، وتلقَّينا زيارات التهنئة، وكانت الابتسامات تملأ الوجوه. بقَدر استطاعتي كبحتُ التوتُّر القابع في قلبي، وانغمستُ بمرحٍ ظاهرٍ في خُطط أبي، على الرغم من أنه كان مجرَّد قناعٍ لمأساتي لَا أكثر. بجهود أبي استعادت

twitter @baghdad_library

إليزابث جزءًا من إرثها من الحكومة النمساويَّة، وكان عبارةً عن مِلكٍ صغير على شاطئ بحيرة كومو. اتفقنا أنه بمجرَّد إتمام الزفاف سنتجه إلى ڤيلا لاڤنزا لنقضي أيام سعادتنا الأولى بالقُرب من البحيرة الجميلة. في تلك الأثناء اتخذتُ كلَّ الاحتياطات الممكنة للدفاع عن نفسي في حال قرَّر الوحش مهاجمتي مُباشرةً. حملتُ معي مسدَّساتٍ وخنجرًا باستمرار، وكنتُ دائم اليقظة لمنعه من تنفيذ حِيَلِه، ومنحني ذلك الكثير من الهدوء. الحقيقة أنه مع دُنُوِّ الموعد المقرَّر بدا التهديد كوهم بعيد غير قادر على إزعاجي، في حين أن السعادة المتوقَّعة من زواجيَ بدت حقيقيَّة أكثر مع اقتراب موعده أكثر وأكثر، وطوال الوقت كنتُ أسمع أن إتمام الزواج شيء لا مفر منه، ولا شيءَ يُمكنه إعاقته.

بدت إليزابث سعيدة، وساعد سلوكي الهادئ على تهدئتها هي بدورها، لكنها أصيبت بالوجوم في اليوم الذي سوف تتحقَّق فيه أمانيَّ ويتحدَّد مصيري، وطاردَها نذير شَرٍّ مؤكَّد، ولعلها كانت هي أيضًا تُفكِّر في السِّر المخيف الذي وعدتها بالإفصاح عنه في اليوم التالي. كان أبي في ذلك الوقت مشغولًا بإعدادات الزفاف، ولم يعتبر وجوم إليزابث سوى حياء العروس الطبيعي.

اجتمع حشد كبير من الأصدقاء والمعارف في منزل أبي بعد إتمام الزفاف، لكننا اتفقنا أن رحلتي وإليزابث ستكون بَحريَّة، بحيث نقضي الليلة الأولى في إڤيان ونواصل الرِحلة في اليوم التالي. كان اليوم جميلًا والريح مواتية، وابتسم كلُّ شيءٍ لرحلتنا معًا كزوجين للمرَّة الأولى.

وكانت تلك هي آخِر اللحظات التي أستمتعُ فيها بالسعادة في حياتي.

تحرَّكنا بسرعة، وكانت الشمس تبعث حرارة عالية، لكننا احتمينا من

أشعَّتها بمظلَّةٍ بينما استمتعنا بجمال المنظر، سواءً على جانب البحيرة الذي يلوح فيه مونِ ساليڤ وضفاف مونتاليجر الجميلة ومن بعيد يحيط مون بلان بكلِّ شيءٍ ومن حوله الجبال الجليديَّة الأخرى التي تُحاوِل منافسته عبثًا، أو على الجانب الآخَر حيث چورا العظيم الذي يُواجِه جانبه الداكن الطَّموح الذي ينشد مغادرة وطنه، وفي الوقت ذاته يقف كعائقٍ ضخم أمام الغازي الذي يُحاوِل دخول هذا الوطن.

أمسكتُ بيد إليزابث وقلتُ لها:

– «تبدين حزينة يا حبيبتي. إذا عرفتِ ما عانيتُ وما قد أعانيه بَعد، ستحاولين جعلي أذوق الحُرِّيَّة من اليأس التي يسمح لي بها هذا اليوم فقط».

– «لا تقلق يا عزيزي ڤيكتور. آملُ أنه لا يوجد ما يثير ضيقك. وإذا كان وجهي لا يُعَبِّر عن الفرح فإن قلبي مُفعَم به. شيء ما يهمس لي ألا أبني آمالًا كبيرة على المُستَقبَل الذي أمامنا، لكني لا أصغي لهذا النذير المشؤوم. أترى السرعة التي نتحرَّك بها والسُّحُب التي تُظلِم تارةً وترتفع فوق قِمَّة مون بلان تارةً لتجعل جمال المشهد لا يُقاوَم؟ انظر أيضًا إلى أعداد الأسماك الغفيرة التي تسبح في المياه الصافية التي تجعلنا نرى كلَّ حصاةٍ في القاع. يا له من يوم جميل! وكم تبدو الطبيعة بهيَّة!».

هكذا حاولَت إليزابث إبعاد أفكارها وأفكاري عن أيِّ موضوعٍ كئيب، لكن مزاجها ظَلَّ متقلِّبًا، فكانت تبدو مرحةً في أحيان، وفي أحيانٍ أخرى كان الوجل يحل محل المرح في عينيها.

مالت الشمس إلى المغيب، وعبرنا نهر درانس حتى لاح لنا كاملًا بين أودية التلال المرتفعة والمنخفضة. في هذه البُقعة اقتربَت جبال الألپ أكثر من البحيرة واقتربنا من التكتُّلات التي تُشكِّل حدودها

twitter @baghdad_library

الشرقيَّة. تألَّقت قمة إڤيان بين الغابات التي تحيط بها وبين القمم الأخرى التي تعلو واحدة فوق الثانية لتُظَلِّلها.

كانت الريح قد حملتنا بسرعةٍ بالغةٍ حتى هذه النقطة، قبل أن تتحوَّل إلى نسيمٍ هادئ مع الغروب، وأخذ الهواء يُحَرِّك صفحة المياه بنعومةٍ ويبعث حركة طريفة بين الأشجار مع اقترابنا من الشاطئ الذي انبعث منه شذى الزهور مختلطًا برائحة التِّبن.

غابت الشمس تمامًا مع نزولنا من القارب، وعندما لمسَت قدماي الشاطئ شعرتُ بالمخاوف تتجدَّد، وبعد قليلٍ كانت في طريقها إلى احتوائي لتتمكَّن مني إلى الأبد.

الفصل الثالث والعشرون

كانت الساعة الثامنة عندما ترجَّلنا. تمشَّينا بعض الوقت على الشاطئ نستمتع بالضوء العابر، ثم أوينا إلى الخان حيث جلسنا نُشاهِد المنظر الجميل من مياهٍ وغاباتٍ وجبالٍ يُغَلِّفها الظلام، وإن كانت حدودها السوداء لم تزل ظاهرة.

عادت الريح التي كانت قد اتجهت جنوبًا تهب من جديد بعنفٍ من الغرب، وبلغ القمر ذُروته في السماء وبدأ يختفي والسُّحُب تمر به أسرع من النَّسر لتحجب أشعَّته، بينما عكست البحيرة مشهد السماء المضطرب لتزيده اضطرابًا بالأمواج التي بدأت تتحرَّك؛ وفجأة بدأت الأمطار تنهمر بغزارة.

كنتُ هادئًا خلال النهار، لكن بمجرَّد أن هبط الليل واحتجبت الأشياء تحرَّك في قلبي ألف خوف. كنتُ قلقًا مشدود الأعصاب، بينما أطبقَت يمناي على مسدَّسٍ أخفيته في طيَّات صدري. كلُّ صوتٍ كان يُجفِلني، لكنني قرَّرت ألا أبيع حياتي بثمنٍ رخيص، وألا أرهب القتال حتى تنتهي حياتي أو حياة خصمي.

راقبَت إليزابث توتُّري في صمتٍ خائف، لكن شيئًا في نظراتي بعث الرُّعب فيها، وسألتني مرتجفةً:

twitter @baghdad_library

- «ماذا بك؟ ما الذي يُخيفك؟».

- «اهدئي يا حبيبتي، اهدئي. هذه الليلة فحسب ثم نصبح آمنين. لكن هذه الليلة مُخيفة، مُخيفة للغاية».

كنتُ قد قضيتُ ساعةً في هذه الحالة العقليَّة عندما خطر لي فجأةً كم سيكون القتال الذي أنتظر وقوعه في أيِّ لحظةٍ قوي الوطأة على زوجتي، فألححتُ عليها أن تَخلُد إلى النوم مقرِّرًا عدم الانضمام إليها قبل أن أعرف ما يكفيني عن موقف عَدُوِّي. تركَتني إليزابث، واستمريْتُ أنا في قطع ممرَّات المكان وفحص كلِّ ركنٍ قد يختفي فيه المسخ. لم أجد له أثرًا، وبدأتُ أحسب أن شيئًا ما حدث ومنعه من تنفيذ مخطَّطه ضدي، عندما سمعتُ صرخة مريعة قادمة من غُرفة إليزابث. تجلَّت لي الحقيقة كلها مع سماعي الصرخة، وتجمَّدتُ تمامًا في مكاني. تجمَّدتُ في مكاني ثانية واحدة، ثم تكرَّرت الصرخة لأجدني أندفع إلى الغُرفة.

ويا لأهوال الدنيا كلها!

لماذا لم أمُت في تلك اللحظة؟

لماذا ما زلت هنا أحكي عن دمار أنقى مخلوقة على وجه البسيطة؟

كانت هناك.. جُثَّة هامدة ملقاة على الفراش، رأسها مدلًّى على صدرها وملامحها المشوَّهة نِصف مغطَّاةٍ بشَعرها. أينما ذهبتُ أرى المشهد ذاته: ذراعيها الخاليتين من الدِّماء مطويَّتين على صدرها وهي ممدَّدة بثوب الزفاف.

كيف أمكنني رؤية هذا المشهد والحياة بعدها؟

لكن الحياة -للأسف- عنيدة، وتتشبَّث بنا أكثر عندما نفقد كلَّ رغبةٍ فيها.

للحظةٍ فقدتُ إحساسي بكلِّ شيءٍ وهويتُ على الأرض، ووجدتني عندما أفقتُ محاطًا بنزلاء الخان الذين تجلَّى الرُّعب بلا حدود في ملامحهم. لكن رُعبهم كان مجرَّد دعابة مقارَنةً برُعبي وظِلٍّ باهت لما شعرتُ به. فررتُ منهم إلى الغُرفة التي استلقت فيها إليزابث، حبيبتي، زوجتي التي كانت مُفعَمة بالحياة منذ قليل، صاحبتي ورفيقة عُمري. كان أحدهم قد عدَّل من الوضع الذي وجدتها عليه، فكانت الآن ممدَّدة ورأسها مرتكن على ذراعها، وثمَّة منديل يغطِّي وجهها وعُنُقها، حتى إنني كنتُ لأحسبها نائمةً لا أكثر. اندفعتُ نحوها واحتضنتها في حرارة، لكن أطرافها المتراخية الباردة قالت لي إن ما أعانقه الآن لم يَعُد إليزابث التي أحببتها من كلِّ قلبي. آثار قبضة المسخ كانت على عُنُقها، ولم تَعُد الأنفاس تنبعث من بين شفتيها.

كنتُ ما زلت متمسِّكًا بها عندما رفعتُ ناظريَّ إلى أعلى. كانت نافذة الغُرفة مغلقة من قبل، لكنها كانت مفتوحة الآن، وشعرتُ بشيءٍ من الهلع عندما رأيتُ ضوء القمر الأصفر يضيء المكان. المصراعان كانا مفتوحين تمامًا، وبرُعبٍ لا يوصَف رأيتُ المسخ يبتسم ساخرًا وهو يشير بإصبعه إلى جُثَّة زوجتي. اندفعتُ صوب النافذة ساحبًا المسدَّس من صدري وأطلقتُ النار، لكنه تفادى الطلقة وقفز من مكانه ليعدو بسرعة البرق ويثب في مياه البحيرة.

جذب صوت الطلقة الناس إلى الغُرفة، وأشرتُ إلى البُقعة التي اختفى فيها، فخرجنا بالقوارب لنقتفي أثره. جرَّبنا كلَّ شيءٍ وألقينا الشباك في الماء لكن عبثًا، وبعد ساعاتٍ طويلة عُدنا في قنوط ومعظم من معي يعتقدون أنني كنتُ فقط أتخيَّل. بعد ترجُّلنا بدأوا في البحث في الرِّيف المحيط مُشَكِّلين عدَّة فِرَقٍ في اتجاهاتٍ مختلِفة بين الغابات والحقول. حاولتُ الذهاب معهم، وابتعدتُ بالفعل عن الخان لمسافةٍ

twitter @baghdad_library

قصيرة، لكن ساقيَّ كانتا ليِّنتين كساقيِّ رجلٍ ثَمِل، وسقطتُ في النهاية خائر القوى. غطَّت غشاوة عينيَّ، وبدأ جِلدي يحترق بالحمَّى، وفي هذه الحالة حُمِلتُ ووُضِعتُ في فِراشٍ ما وأنا أكاد لا أعي ما يدور حولي وعيناي تجوبان الغُرفة كأنني أبحث عن شيءٍ ضاع مني.

نهضتُ بعد فترةٍ قصيرة، وبشعورٍ غريزي زحفتُ نحو الغُرفة التي استلقت فيها جُثَّة حبيبتي. وجدت نساءً يبكين حول الجثمان، وانضمَّت دموعي إلى دموعهنَّ وأنا أتعلَّق بها من جديد. طوال هذا الوقت لم تبرز فكرة واضحة في عقلي الذي تعاقبَت أفكاره في ارتباكٍ حول بلواي وأسبابها. كنتُ مشوَّشًا تمامًا، وتتابعَت في ذهني أحداث موت ويليام وإعدام چستين ومصرع هنري، وأخيرًا زوجتي. في تلك اللحظات كنتُ أجهل تمامًا إن كان من تبقَّوا لي آمنين من المسخ. لعل أبي يختنق الآن بقبضته، ولربما كان إرنست ميِّتًا بالفعل عند قدميه. جعلتني الفكرة أرتجف، وأعادت إليَّ الحركة، فنهضتُ مقرِّرًا العودة إلى چنيڤ بأقصى سرعةٍ ممكنة.

لم أتمكَّن من تدبير حصانٍ في تلك الساعة، فكان عليَّ الإبحار في البحيرة، لكن الريح لم تكن مواتية والأمطار كانت تهطل بلا توقُّف. كان نور النهار قد بدأ ينتشر ليُمَكِّنني بشكلٍ ما أن أصل مع حلول المساء. استأجرتُ بعض الرجال للتجديف، وأمسكتُ أنا نفسي بمجدافٍ ناشدًا بعض الخلاص النَّفسي بقيامي بمجهودٍ بدني. لكن الحزن الذي غمرني والألم الذي اشتعل في داخلي منعاني من القيام بأيِّ جهد. ألقيتُ بالمجداف جانبًا وركنتُ رأسي على يدي مُطلِقًا العنان لكلِّ فكرةٍ سوداء فرضت نفسها عليَّ. إذا نظرتُ حولي كنتُ أرى مَشاهد مألوفة لي منذ أيام السعادة، مَشاهد كنتُ أتأمَّلها منذ يوم واحدٍ فقط بصُحبة تلك التي لم تعد سوى ظِلٍّ وذكرى. اغرورقت عيناي بالدموع،

ومع توقُّف المطر لفترةٍ قصيرة رأيتُ الأسماك تلعب في المياه كما كانت تفعل منذ ساعاتٍ قليلة عندما أشارت إليها إليزابث. لا شيء يؤلم العقل البشري سوى التغيير المفاجئ. قد تستمر الشمس في الشروق والغروب، وتُواصِل السُّحُب احتشادها وانقشاعها، لكن لا شيءَ بدا لي كما كان منذ يوم واحد. المسخ انتزع مني آخِر أملٍ في حياةٍ سعيدة، ولا مخلوقَ أصيبَ بكلِّ البؤس الذي أصابني في حدثٍ واحدٍ لم يشهد مثله تاريخ البشريَّة.

لكن لماذا أروي بقيَّة الأحداث التي تلت ذلك الحادث الأخير؟ حكايتي كانت حكاية رُعبٍ بلغ الذُّروة، وما سأحكيه الآن قد يكون مُملًّا لك. اعلم أن أحبائيَ قد سُلِبوا مني واحدًا تلو الآخَر وتُرِكتُ وحيدًا. إن قواي تخور، ويجب أن أخبرك الآن -في كلماتٍ وجيزة- ببقيَّة قِصَّتي الشنيعة.

وصلتُ إلى چنيف ووجدتُ أبي وإرنست على قيد الحياة، لكن الأول طُعِنَ طعنة نجلاء بالخبر الذي جئتُ به. إنني أراه الآن، رجلًا هَرِمًا عيناه صارتا ترمقان الفراغ بعد أن فقدتا قُرَّتهما وبهجتهما، فقدتا إليزابث التي كانت أكثر من ابنته التي احتواها بكلِّ حنانٍ وحُبٍّ وكان يتشبَّث بها كسببٍ للحياة في أيام الذبول. ملعون المسخ الذي صبَّ اللعنة على شعرهِ الأشيب وألقى به في هوَّة الهلاك!

لم يستطِع أبي الحياة في ظِلِّ الكوارث التي أحاطت به، وتدهورت صِحَّته يومًا بعد يوم حتى لم يَعُد يستطيع النهوض من فراشه، وبعد أيامٍ قليلة مات بين ذراعَيَّ.

وما الذي حدث لي بعدها؟

لا أدري. فقدتُ كلَّ شعورٍ ولم أعد أحس بشيءٍ سوى ظلامٍ وأغلال. أحيانًا كنتُ أحلم بنفسي أجول مع أصدقاء الصِّبا بين المروجَ

twitter @baghdad_library

المزهرة، لكنني كنتُ أفيق لأجد نفسي في زنزانة. كآبة عارمة غمرَتني، لكنني بدأتُ أُدرِك موقفي تدريجيًّا، وعندها أطلقوا سراحي. عرفتُ أنهم اعتبروني مجنونًا، ولشهورٍ طويلة كان مسكني عبارة عن حبسٍ انفرادي.

لم تكن الحُرِّيَّة ذات نفع لي على كلِّ حال، إذ إنني في الوقت نفسه الذي أفقتُ فيه على التعقُّل أفقتُ أيضًا على الانتقام. بدأتُ أدرس سبب جميع مآسيَّ، وكان يتمثَّل في شيءٍ واحدٍ فقط هو الوحش الذي صنعته، الشيطان اللعينِ الذي أطلقته في العالم كي يُدمِّرني. تملَّكني غضب جنوني وأنا أفكِّرُ فيه، وتمنَّيتُ ودعوت الله أن يقع في قبضتي لأُنزِل به انتقامًا أخيرًا ونهائيًّا. لكن كراهيتي لم تحصر نفسها في الرغبات التي بلا طائل لوقتٍ طويل، وبدأتُ في التفكير في وسيلةٍ للإيقاع به. لهذا بعد شهرٍ من إطلاق سراحي ذهبتُ إلى قاضي جنايات في البلدة وأخبرته بأن لديَّ اتهامًا وبأنني أعرف مُدمِّر عائلتي، وطلبتُ منه أن يستغل سُلُطاته كلها في سبيل القبض على القاتل.

استمع إليَّ القاضي في لُطفٍ وانتباه، ثم أجابني:

- «تأكَّد يا سيِّدي أننا لن ندَّخر جهدًا في سبيل الإيقاع بهذا القاتل».

أجبته:

- «أشكرك كثيرًا. استمع إذن إلى شهادتي. إنها بالتأكيد حكاية غريبة، وربما لن تُصَدِّقها، لولا أن الحقائق التي تحملها بها أدلَّة الإدانة. ترابُط الحكاية لا يجعل خلطها بحُلمٍ واردًا، ولست أملك أيَّ دافعٍ للتضليل».

كان الأسلوب الذي خاطبته به مؤثِّرًا وهادئًا، وعزمتُ في سريرتي على أن أطارد مُدمِّري حتى الموت، وهذا القرار وحده خفَّف من ألمي

وبشكلٍ ما أعادني إلى الحياة. حكيتُ قِصَّتي للقاضي باختصارٍ لكن بدِقَّة، مُحدِّدًا التواريخ والأوقات كلها، ودون أن أقع في فَخِّ السباب أو الصراخ. بدا القاضي مرتابًا للغاية في البداية، لكنه صار أكثر اهتمامًا وتركيزًا مع مواصلتي للحكي. رأيته يرتجف رُعبًا، تتسع عيناه دهشةً، يلوح التصديق في ملامحه؛ وعندما ختمتُ حكايتي قلتُ:

– «هذا هو الكائن الذي أتهمه، ومن أجل القبض عليه وعقابه أطلبُ منك بذل جهدك كله. هذا واجبك كقاضٍ، وآملُ أن مشاعرك كإنسانٍ لن تُنَفِّرك من تنفيذ المطلوب في هذه المهمة».

أحدثَت الرواية تغييرًا كبيرًا في ملامح الرجل. لقد استمع إليها بنِصف التصديق الذي نستمع به لحكايات الأرواح والخوارق، إلا أنه عندما طُلِبَ منه القيام بإجراءٍ رسمي عادت إليه ريبته بالكامل، لكنه على كلِّ حالٍ أجابني في رِفق:

– «أودُّ حقًّا أن أمدك بكلِّ مساعدةٍ ممكنة في مسعاك، لكن المخلوق الذي وصفته يتحدَّى جميع جهودي. من يُمكنه مطاردة حيوانٍ يستطيع عبور بحر الجليد وسُكنى كهوفٍ وأوكارٍ لا يستطيع أن يبلغها بَشَر؟ كما أن شهورًا عدَّة قد مضت منذ ارتكابه لجريمته الأخيرة، ولا أحد يُمكنه معرفة المكان الذي يكمن فيه الآن».

– «ليس لديَّ شكٌّ في أنه كامن بالقُرب من البُقعة التي أسكنها. وإذا كان يكمن في جبال الألبِ نفسها فيُمكن مطاردته كالظباء وصيده كالفرائس. لكني أعرف ما تُفَكِّر فيه. إنك لا تثق بصِحَّة حكايتي، ولا تنوي مطاردة عَدُوِّي ومعاقبته كما يستحق».

اشتعل الغضب في عينيَّ وأنا أتكلَّم، ولا بُدَّ أن القاضي شعر بشيءٍ من الرهبة، لأنه قال:

twitter @baghdad_library

- «أنت مخطئ. سوف أبذلُ قصارى جهدي، وتأكَّد أنني إذا استطعتُ القبض على ذلك الوحش فإنه سيتلقَّى العقاب الجدير بجرائمه. لكنني أخشى -من الصفات التي وصفتها بنفسك- أن ذلك صعب التحقيق، ويجب أن تُجَهِّز نفسك للأسوأ رغم الجهود التي سنَبذُلها».

- «مُحال. كلُّ ما أقوله لن يكون ذا فائدة، وانتقامي ليس بالشيء المهم لك، لكني أعترف بأنه صار هدفي الوحيد. إن غضبي لا يوصَف وأنا أفكِّر في أن ذلك الوحش القاتل الذي أطلقته بين الناس لا يزال موجودًا. إنك ترفض طلبي العادل، ولم يتبقَّ لي سوى تكريس نفسي لتدميره، سواءً بحياتي أو موتي».

كنتُ أرتجف سخطًا وأنا أتكلَّم حتى بدوتُ كالمجاذيب، ولا أشك في أن شيئًا من الغطرسة العنيفة التي يقال إن شهداء الماضي امتلكوها كان ضِمن مشاعري ساعتها. لكن بالنسبة لقاضٍ چنيڤي عقله مشغول بأفكارٍ تبعد كثيرًا عن البسالة والبطولة لم أبدُ لهَ سوى كشخصٍ مختلٍّ عقليًّا. حاول تهدئتي كما تفعل ممرِّضة مع طِفل، وعزا حكايتيَ إلى أنها هذيان الحمَّى، فصرخت:

- «كم أنت جاهل في خِضَمِّ غرورك بحكمتك يا رجل! كفى! إنك لا تعي ما تقول!».

واندفعتُ خارجًا من المحكمة في حنقٍ وانزعاج، وهُرِعتُ إلى منزلي لأفكِّر في طريقةٍ أخرى لتحقيق العدالة.

الفصل الرابع والعشرون

موقفي الحالي كان ذلك الذي يطرد أيَّ فكرةٍ أخرى لا علاقة لها بالأفكار التي ابتلعت كِيانك ذاته. كان غضبي لا يوصَف، والرغبة في الانتقام وحدها منحتني القوَّة والتركيز وحيَّدَت مشاعري وجعلتني قادرًا على التفكير بإمعانٍ في أوقاتٍ كانت لتشهد في ظروفٍ أخرى انهياري أو موتي. قراري الأول كان ترك چنيڤ بلا رجعة. وطني الذي كان عزيزًا عليَّ عندما كنتُ سعيدًا محبوبًا صار كريهًا في محنتي. هكذا زوَّدتُ نفسي بقدرٍ من المال مع بعض الجواهر التي كانت أمي تملكها وغادرتُ.

وبدأتُ جولاتي التي لن تنتهي إلا مع نهاية حياتي. قطعتُ نِصف الأرض، واحتملتُ كلَّ الصعوبات التي يحتملها كلُّ من يعبرون الصحراء وأراضي الهمج. أكادُ لا أدري كيف واصلتُ العيش. كثيرًا ما مدَّدتُ أطرافي المتراخية على أرض السهل الرملي وتمنَّيت الموت، لكن الانتقام أبقاني حيًّا، ولم أجرؤ على الموت والمسخ لا يزال موجودًا.

أول هدفٍ سعيتُ له مع تَركي چنيڤ كان الحصول على معلومةٍ ما أقتفي بها أثر الوحش. لكن خُطَّتي كانت مضطربة، وقضيتُ ساعاتٍ

twitter @baghdad_library

طويلة أجوب أرجاء البلدة دون أن أدري أيَّ طريقٍ أسلك. مع اقتراب الليل وجدتني عند مدخل المقبرة التي يرقد فيها ويليام وإليزابث وأبي. كلُّ شيءٍ كان صامتًا ما خلا أصوات أوراق الشجر التي حرَّكها النسيم بهدوء. الظلام كان شِبه سائد، وجلال المشهد كان ليجذب انتباه أكثر الكائنات لامبالاة. بدت أرواح الراحلين كأنها تُحَلِّق حول رأسي، وتلقي بظِلٍّ شعرتُ به وإن لم أرَه.

الحزن العميق الذي أثاره المشهد في البداية سرعان ما أفسح طريقًا للغضب واليأس. كانوا موتى وأنا حي وقاتلهم حي، ولأدمِّره يجب أن أشحذ كِياني ذاته. ركعتُ على العُشب ولثَّمت الأرض، وبشفتين مرتجفتين تمتمتُ:

- «بالأرض المقدَّسة التي أركع عليها، بالأطياف التي تهيم حولي، بالحزن الأبدي العميق الذي أشعر به، وبك أيها الليل وبالأرواح التي تسكنك، أقسم إنني سأطارد الشيطان الذي تسبَّب في كلِّ هذا البؤس حتى أموت أو يموت في صراعٍ مُهلِك. لأجل هذا الهدف سأحافظ على حياتي، ولأجل نيل هذا الانتقام الثمين سأرى الشمس مرَّة أخرى وأخطو على الكلأ الأخضر الذي سيختفي من أمام عينيَّ بعدها إلى الأبد. إنني أناديكِ يا أرواح الموتى، وأناديكم يا سفراء الانتقام لتساعِدونني وتُرشِدونني في رحلتي. فليتجرَّع الوحش الملعون كؤوس الألم، وليشعر باليأس الذي يُمَزِّقني الآن».

بدأتُ قَسَمي في تصميم ورهبةٍ صِرتُ معهما شِبه واثقٍ من أن أرواح أحبائي القتلى سمعتني وتَقبَّلت ما قلتُ، لكن الغضب تملَّكني وأنا أنهي كلماتي، فاختنقَت في حلقي.

لم يُجِبني في صمت الليل إلا ضحكة شيطانيَّة مدوِّية رنَّت في أذنيَّ طويلة ثقيلة وردَّدت الجبال صداها، وشعرتُ كأن أبواب الجحيم قد

انفتحَت عن آخِرها لتَصُبَّ عليَّ سخريتها. كان يجب في تلك اللحظة أن تنتابني نوبة جنون تجعلني أضع نهاية لوجودي، لولا أن قَسَمي قد سُمِعَ وأنني كنتُ مُصرًّا على الانتقام. تلاشَت أصداء الضحكة، ثم إن صوتًا مقيتًا مألوفًا همس لي:

- «إنني راضٍ أيها المسخ البائس. قد قررت أن تعيش، وهذا يُرضيني».

انقضضتُ على البُقعة التي جاء منها الصوت، لكن الشيطان ضلَّلني، وفجأة ارتفع قرص القمر وتألَّق على هيئته البشعة وهو يفر بسرعةٍ غير طبيعيَّة. طاردته، ولشهورٍ طويلة كانت هذه مهمَّتي الوحيدة. لم تُرشِدني سوى آثار بسيطة وأنا أعبر منحنيات الرون عبثًا. ظهرت مياه البحر المتوسِّط الزرقاء، وبمصادفةٍ غريبة رأيت المسخ يُخفي نفسه ليلًا في سفينةٍ متجهة إلى البحر الأسود. صعدتُ إلى متن السفينة نفسها، لكنه فرَّ ولا أدري كيف.

عبر براري بلاد التتار وروسيا طاردته رغم تضليله لي. أحيانًا كان الفلَّاحون الذين أصيبوا بالهلع من منظره يُخبِرونني بالطريق التي سلكها، وأحيانًا كان هو نفسه -مدفوعًا بخشيةَ أن أفقد أثره تمامًا فأموت قنوطًا- يترك لي أثرًا أتبعه. تساقطَت الثلوج على رأسي، ورأيتُ آثار خطواته الضخمة على السهل الأبيض.

إنك ما زلت جديدًا على الحياة، والهموم والآلام شيء غير مألوفٍ لك، فكيف أصف لك ما شعرتُ ولم أزل أشعر به؟

البرد والجوع والتعب كانوا أقل الآلام التي عليَّ التعرُّض لها. كنتُ ملعونًا من شيطانٍ وأحمل أمام عينيَّ جحيمًا دائمًا، لكن روحًا خيِّرة ما ظلَّت تُوَجِّهني وتُعينني، وعندما كان اليأس يُصيبني كانت تُخرِجني منه بمعجزةٍ ما. أحيانًا، عندما كان الجوع يستبد بي أيما استبداد، كَنتُ أجد

twitter @baghdad_library

طعامًا ينتظرني في الصحراء ليُقَوِّيني ويُساعِدني على المضي. لم يكن الطعام كثيرًا، بل هو قليل رديء كالذي يأكله الفلَّاحون، لكنني لا أشك في أن من وضعه هناك هي الأرواح التي استحضرتها كي تُساعِدني. كثيرًا عندما كان الجفاف يصيب كل شيءٍ والظمأ يحرق حلقي كانت سحابة صغيرة تطهر في السماء وتُسقِط بضع قطرات تُنعِشني ثم تختفي.

اتبعتُ مجاري الأنهار عندما استطعتُ، لكن الشيطان كان يتجنَّبها بشكلٍ عام، بما أن سكان البلاد كانوا يحتشدون عندها كثيرًا. في أماكنٍ أخرى كانت رؤية البَشَر نادرة، وكنتُ أقتات على الحيوانات البريَّة التي تَمُرُّ بطريقي. كان معي مال، وحُزتُ صداقة القرويين بتوزيعه عليهم أو عن طريق إعطائهم معظم لحم فرائسي مقابل تزويدي بنارٍ وآنيةٍ للطهي.

مرور حياتي على هذه الوتيرة جعلها كريهة للغاية، ولم أكن أذوق طعم السرور إلا أثناء النوم وحده. النوم! كثيرًا وقد تعبتُ من كلِّ شيءٍ كنتُ أغيب في النوم، وكانت أحلامي تمنحني سَكينة تصل إلى حَدِّ النشوة، فالأرواح التي أرشدَتني كانت تُوَفِّر لي تلك اللحظات -أو الساعات بالأحرى- لأسترد ما يكفيني من قوَّةٍ لمواصَلة رحلتي الطويلة، ولولا فترات الراحة هذه لكنتُ قد انهَرتُ تحت وطأة الإعياء. خلال النهار كنتُ أتعيَّش بالأمل في مجيء الليل، فأثناء النوم فقط كنتُ أرى زوجتي وأصدقائي ووطني. أثناء النوم فقط كنتُ أتطلَّعُ إلى ملامح أبي الوقورة الباسمة، أسمعُ صوت إليزابث الفِضِّي، أرمقُ كليرڤال في ريعان الصِّحَّة والشباب. كثيرًا، عندما يصيبني المشي الطويل بالإنهاك، كنتُ أقنِع نفسي بأنني أحلمُ حتى يأتي الليل، وعندها سأستمتعُ بالواقع بين أحضان أصحابي. يا لولعي المؤلم بهم! وكم تمسَّكتُ بصورهم الغالية وهي تُصاحِبني في ساعات يقظتي حتى تكاد تُقنِعني بأنهم ما زالوا أحياء! في تلك اللحظات كان الانتقام المضطرم في أعماق قلبي

يخمد، وكنتُ أواصل طريقي نحو تدمير المسخ كأنه مهمَّة كُلِّفتُ بها من السماء، فكأنني كنتُ أتحرك آليًّا بقوَّةٍ خفيةٍ ما، أكثر من رغبتي الشخصيَّة في الانتقام.

لم أدرِ شيئًا عن مشاعر طريدتي. بالطبع كان أحيانًا يترك لي رسائل محفورة في لحاء الشجر أو الصخور ليُرشِدني وفي الوقت ذاته يؤجِّج غضبي. وذات مرَّةٍ ترك لي رسالة تقول:

«سيطرتي لم تنته بعد. إنك حي، وسلطاني كامل عليك. اتبعني، فإنني أنشد ثلوج الشمال السرمديَّة حيث تشعر ببؤس البرد والصقيع اللذَين لا أبالي بهما. إذا لم تتباطأ ستجد بالقُرب من هذا المكان أرنبًا ميتًا. كله وانتعش، ثم واصِل طريقك، فإننا يجب أن نتصارع من أجل حياتينا. لكن ساعاتٍ طويلة مريرة تنتظرك قبل حدوث هذا».

أيها الوغد الهازئ! من جديدٍ أقسمُ على الانتقام. من جديد أتعهَّدُ بعذابك وموتك أيها المسخ التعس. لن أتوقَّف عن البحث عنه أبدًا حتى أموت أو يموت، وعندها فقط سأنضم إلى إليزابث وأحبائي الراحلين الذين يُعِدُّون لي الآن مكافأتي على التعب الطويل والشقاء المريع.

مع مواصلتي لرحلتي شمالًا ازداد الجليد سُمكًا، وصار البرد قارصًا إلى درجةٍ تكاد لا تُحتمَل. احتمى القرويون بأكواخهم، والأقوياء القلائل منهم فقط غامروا بالخروج من بيوتهم لصيد الحيوانات كي لا يقعوا فريسةً للجوع. تغطَّت الأنهار بالجليد، ولم يعد صيد الأسماك ممكنًا، وبهذا حُرِمتُ من سبيل طعامي الرئيس.

ازداد تفوُّق خصمي بزيادة مجهودي وإرهاقي، ووجدتُ كلماتٍ أخرى حَفَرها تقول:

«استعد! إنها البداية فحسب. دَثِّر نفسك بالفراء وامضغ بعض الطعام، فقريبًا نبدأ رحلة تُرضي معاناتك فيها كراهيتي».

twitter @baghdad_library

جدَّدَت هذه الكلمات شجاعتي ومثابَرتي، ولم يَخْبُ عزمي على مواصَلة الطريق. دعوتُ السماء أن تعينني، وعُدتُ أقطع الصحارى الجليديَّة مترامية الأطراف بحماسةٍ متوهِّجة حتى تجلَّى المحيط من بعيد ليُحدِّد نهاية الأفق. عجبًا! كم كان شديد الاختلاف عن بحار الجنوب الزرقاء! مغطًّى بالثلوج كان، ولا تستطيع تمييزه عن اليابسة إلا بوعورته وقسوته التي بلا حدود. الإغريق بكوا من فرط الفرحة عندما رأوا البحر المتوسط من فوق تلال آسيا، أما أنا فلم أبكِ، بل ركعتُ بقلبٍ راضٍ شاكرًا روحي المرشِدة التي أوصلتني سالمًا إلى المكان الذي نشدته، على الرغم من استهزاء خصمي، كي ألقاه وأقاتله.

قبل هذا اليوم بعدَّة أسابيع كنت قد دبَّرت زلَّاجة وكلابًا، وهكذا عبرتُ الأرض الجليديَّة بسرعةٍ لا بأس بها. لا أدري إن كان المسخ يملك وسيلة مماثلة، لكنني وجدتُ أنه كما تفوَّق عليَّ من قبل بسرعته فإنني كنت أقترب منه الآن، بحيث كان يسبقني بيوم واحدٍ فقط يوم رأيت المحيط للمرَّة الأولى، وأملتُ أن أستطيع محاصَرته قبل أن يبلغ الساحل. هكذا بشجاعةٍ تجدَّدَت واصلتُ التقدُّم، وبعد يومين وصلتُ إلى قريةٍ صغيرةٍ على الشاطئ. سألتُ السُّكَّان عن المسخ، وحصلتُ منهم على معلوماتٍ مؤكَّدة. قالوا إن وحشًا عملاقًا وصل في الليلة السابقة ومعه بندقيَّة ومسدَّسات كثيرة، ودفع أصحاب كوخ بعيد إلى الفرار من هيئته البشعة. استولى على مخزون طعامهم الشتوي وحمَّله على زلَّاجة يَجُرُّها قطيعٌ من الكلاب المدرَّبة، وفي الليلة ذاتها -لسعادة القرويين المرعوبين- واصل طريقه عبر البحر في اتجاهٍ لا يقود إلى أيِّ أرض، وتكهَّنوا بأنه لا بُدَّ أنه قد لَقِيَ حتفه في تشقُّقٍ جليدي ما أو حتى بالتجمُّد من فرط الصقيع الرهيب.

أصبتُ بنوبة يأسٍ مؤقَّتة مع سماعي لهذه المعلومة. لقد فَرَّ مني،

ويجب الآن أن أبدأ رحلة مدمِّرة لانهائيَّة عبر جليد المحيط ووسط البرد الذي لا يستطيع احتماله سوى قلائل من أهل المنطقة الأصليين، ولا أمل لي في النجاة منه بالطبع وأنا ابن بيئةٍ دافئةٍ لا تغيب عنها الشمس. لكن فكرة حياة المسخ وانتصاره أعادت إليَّ غضبي الذي اكتسح جميع مشاعري الأخرى كطوفانٍ عاتٍ، وبعد راحةٍ قصيرةٍ زارتني فيها أرواح الموتى لتُشَجِّعني وتمدّني بالصبر استعديْتُ لبدء الرحلة.

استبدلتُ بزلّاجتي واحدة أخرى تناسب الارتحال على مياه المحيط المتجمِّدة وابتعتُ مخزونًا من الطعام، ثم غادرتُ اليابسة. لا أدري كم يومًا مَرَّ منذ ذلك الحين، لكنني تعرَّضتُ لآلام كثيرة لمجرَّد أن رغبتي في تحقيق القصاص العادل التي اتقدَت في قلبي كان من شأنها تخفيفها. كثيرًا ما كانت كُتَل الجليد العملاقة تعترض طريقي، وكثيرًا ما سمعتُ رعد تشقُّق الأرض أسفلي مُهدِّدًا بهلاكي، لكن الصقيع كان يأتي من جديد ويجعل طُرُقات البحر قابلةً للاجتياز.

بحساب الزاد الذي استهلكته أحسبُ أنني قضيت ما يقرب من الأسابيع الثلاثة في هذه الرحلة، والتأجيل المستمر لتحقُّق الأمل الذي عاد إلى القلب كان يجعلني أذرف دموع القهر والمرارة. كان اليأس قد احتوى ضحيَّته تمامًا، وكنتُ على وشك السقوط والانهيار النهائي تحت وطأته. لكنني ذات يوم، بعد أن أوصلتني الحيوانات المسكينة التي تَجُرُّ زلَّاجتي إلى أعلى قِمَّة جبل منحدِر ونفق أحدها من فرط الجهد، تطلعتُ إلى المساحات الشاسعة أمامي في قنوط، قبل أن تقع عيني بغتة على بقعةٍ سوداء في الأرض البيضاء تحت السماء المظلمة. تطلَّعتُ إليها في إمعان لأكتشف كنهها، ثم خرجت مني صيحة ظَفَرٍ عنيفة عندما ميَّزتُ زلَّاجة يقودها شبح عملاق أعرفه جيدًا. عاد الأملُ يتدفَّق في عروقي من جديد، وامتلأت عيناي بدموعٍ دافئة سرعان

twitter @baghdad_library

ما مسحتها كي لا تُعيق رؤيتي للشيطان من بعيد. لكن الدموع ظلَّت تحجب بصري بقطراتها الحارقة قبل أن أستسلم لها تمامًا وأطلق لها العنان لأبكي بصوتٍ مرتفع.

لكن ذلك لم يكن بالوقت المناسب للتأخير. خلَّصتُ الكلاب من رفيقها الميِّت، ومنحتها مقدارًا وافرًا من الطعام، وبعد ساعةٍ من الراحة -كانت ضرورية إليَّ أقصى حد ومُضجِرة في الوقت ذاته- واصلتُ المطاردة. كانت الزلَّاجة لا تزال مرئيَّة ولم تَغِب عن ناظريَّ اللهم إلا عندما تُخفيها صخرة جليديَّة ما. كنتُ أقترب منها باضطراد بالفعل، وعندما رأيتُ الوحش على بُعد ميلٍ واحدٍ بعد رحلةٍ استغرقت يومين شعرتُ بقلبي يثب بين ضلوعي.

لكن.. عندما بدا خصمي في متناوَل يدي أخيرًا تداعى الأمل كاملًا، وهذه المرَّة فقدتُ كلَّ أثرٍ له. سمعتُ صوت الجليد ينشق والمياه تضطرب أسفلي حتى باتت كلُّ لحظة مهدِّدة بالنهاية. واصلتُ التقدُّم لكن بلا جدوى. هبَّت الرياح بعنفٍ وزأرت الأمواج، وكأنّ زلزالًا عنيفًا ضرب البحر وانشقَّ الجليد بصوتٍ مرعب. انتهى كلُّ شيءٍ في لحظات، ووجدتُ بحرًا واسعًا يفصل بيني وبين المسخ، ووجدتني على قطعة جليدٍ أخذ حجمها يتناقص باستمرار واعدًا إياي بنهايةٍ قريبة.

بهذه الطريقة مرَّت ساعات طويلة. كثير من كلابي مات، وأنا نفسي كدتُ أغرق من اليأس المتراكم على كتفيَّ. كان هذا عندما رأيتُ سفينتك عالقةً وتحملٍ لي فرصة الإسعاف والحياة. لم أدرِ قَطُّ أن السُّفُن يُمكنها خوض كلِّ تلك المسافة في أقصى الشَّمال، وأثار المشهد ذهولي بالفعل. أسرعتُ بتحطيم جزءٍ من الزلَّاجة لأصنع مجدافًا، وبهذه الطريقة نجحت بجهدٍ جهيد في تحريك الطوف الجليدي إلى حيث السَّفينة. كنتُ قد قرَّرتُ في حالة كنتم متجهين إلى

الجنوب أن أضع نفسي تحت رحمة البحر وألا أهجر مهمَّتي، وأملتُ أن أقنعك بمنحي قاربًا أواصل فيه مطاردة الوحش. لكنك كنت متجهًا إلى الشَّمال، وجعلتني أصعد إلى متن سفينتك عندما خارت قواي كلها، وقريبًا سأغيب في موتٍ أبدي لا أخشاه إلا لأن مهمتي لم تكتمل.

متى ستسمح لي روحي الحارسة بالراحة التي أتمناها؟ أم أنني سأموت بالفعل ويحيا هو؟

إذا مِتُّ، عدني يا والتون أنه لن يفرّ، أنك ستُطارِده وتريحني في ميتتي بموته. لكن هل أجرؤ على تكليفك بمهمَّتي التي ستعاني فيها كما عانيت؟ كلا، أنا لست أنانيًّا إلى تلك الدرجة. لكن إذا ظهر، إذا قادته رُسُل الانتقام إلى طريقك، اقسِم لي إنه لن ينجو. اقسِم لي أنه لن ينتصر بعد كلِّ ما جشَّمني من آلام ويُواصِل الحياة لضَمِّ آخَرين إلى قائمة جرائمه السوداء. إنه فصيح ومُقنِع، وكلماته نجحت في التأثير في قلبي مرَّة بالفعل، لكن إياك أن تثق به. إن روحه شيطانيَّة كما شكله، ملأى بالخيانة والحقد والخبث. لا تسمعه، بل اصرخ بأسماء ويليام وچستين وكليرڤال وإليزابث وأبي وڤيكتور فرانكنشتاين البائس، واغرس سيفك في قلبه. ساعتها ستُرَفرِفُ روحي حولك وتُحسِن توجيه النَّصل.

twitter @baghdad_library

تتمَّة رسالة والتون

السادس والعشرون من أغسطس، القرن الثامن عشر.

ها قد قرأتِ هذه القِصَّة الغريبة المريعة يا مارجريت، فهل تشعرين بالدَّم يتجمَّد في عروقكِ من فرط الرُّعب الذي جمَّد دمائي في عروقي قبلكِ؟

أحيانًا كان يتملَّكه ألم مفاجئ فلا يقدر على إكمال حكايته، وأحيانًا بصوتٍ مكسور -وإن كان ثاقبًا- كان بصعوبةٍ ينطق الكلمات المفعَمة بالألم. عيناه الرقيقتان ليس فيهما الآن سوى النِّقمة وقد تدهورَت حالته كثيرًا. في أحيانٍ كان يُسَيطِر على ملامحه ونبراته ويروي الأحداث البشعة بصوتٍ شديد الهدوء ضاغطًا على كلِّ كلمةٍ موجِعة، ثم كبركانٍ تفجَّرت حممه كانت سحنته تنقلب إلى ثورةٍ عارمة وهو يصرخ لاعنًا معذِّبه.

إن حكايته مترابطة، وبدت وهو يحكيها تحمل بساطة الحقيقة، لكني أعترف لكِ بأن رسائل فيلكس وصافي التي أراني إياها وظهور الوحش الذي رأيناه من السَّفينة أقنعني بصِدق ما رواه أكثر بكثير من قِصَّته، مهما كان أسلوب حكيه لها مترابِطًا منظَّمًا.

ذلك الوحش موجودٌ بالفعل!

لا يُمكنني الشَّك في هذا، لكنني أجد في نفسي دهشةً وإعجابًا بالغين. لقد حاولتُ أحيانًا أن أحصل من فرانكنشتاين على تفاصيل صُنعه للمخلوق، لكنه كان صارمًا قاطعًا تمامًا في هذه النقطة، وقال لي ذات مرَّة:

- «هل جُنِنت يا صديقي أم أن فضولك الأعمى هو الذي يقودك؟ هل تريد أنت أيضًا أن تخلق لنفسك والعالم خصمًا شيطانيًّا؟ اصمت! اصمت! تعلَّم من بؤسي ولا تحاول زيادة بؤسك».

اكتشف فرانكنشتاين أنني دوَّنتُ ملاحظاتٍ على قِصَّته فطلب أن يراها، ثم قام بنفسه بتنقيحها وتزويدها في غير موضع، لكن بشكلٍ عام في الأجزاء التي كان يتحدَّث فيها مع خصمه، وقال لي:

- «بما أنك دوَّنت حكايتي، فلا أريدها أن تنتقل مبتورةً إلى الأجيال القادمة».

هكذا مَرَّ أسبوع وأنا أصغي إلى حكايةٍ أغرب من الخيال. أفكاري ومشاعري كلها كانت مُكرَّسة لضيفي وحكايته، كما تأثَّرتُ أيضًا بأسلوبه المهذَّب الجذَّاب. أتمنَّى لو أستطيع مواساته، لكن أنَّى لي بمواساة إنسانٍ بلغ حضيض البؤس، بحيث فقد كلَّ أملٍ يجعله يتمسَّك بالحياة؟ لا، إن البهجة الوحيدة التي يُمكن أن يشعر بها الآن لن تأتي إلا عندما تستكين روحه الكسيرة إلى راحة الموت. هو لا يستمتع الآن إلا براحةٍ واحدةٍ منشأها العُزلة والهذيان، فهو مؤمن بأنه يلتقي بأصدقائه عندما يحلم، ويجد في وجوده معهم مواساةً لآلامه أو تشجيعًا على الانتقام، ويؤمن بأنهم ليسوا من نسج خياله، بل هُم مخلوقات تأتي لتزوره بالفعل من العالم الآخَر. هذا الإيمان يمنح أحلام يقظته مهابة غريبة تجعلها بالنسبة لي بقوَّة وتأثير الحقيقة.

twitter @baghdad_library

محادثاتنا لا تدور في فلك قِصَّته دائمًا، إذ كنا نتحدَّث مثلًا عن الأدب الذي أبدى معرفة كبيرة به وكان يُلقي بملاحظات سريعة مهمَّة. بلاغته قويَّة ومؤثِّرة، ولا يُمكنني سماعه عندما يحكي حادثًا مؤثِّرًا أو يحاول وصف مشاعر الشفقة والحُب إلا وسالت الدموع من عينيَّ. لا بُدَّ أنه كان مخلوقًا رائعًا بالفعل في أيام سعادته طالما هو نبيل جذَّاب هكذا وقد بلغ القرار، ويبدو أنه يشعر بقيمة نفسه فعلًا وبفداحة سقوطه، حيث قال لي مرَّة:

- «عندما كنتُ غلامًا كنتُ واثقًا بأن قَدَري أن أخوض مغامرة عظيمة. من الصعب فهم مشاعري، لكني كنتُ أملك قُدرة على الحكم على الأشياء جعلتني واثقًا من بلوغ المجد. هذا الشعور بقيمة طبيعتي أعانني عندما كنتُ لا أتلقَّى عونًا من الآخَرين، لأنني اعتبرتها جريمة أن يُبَدِّد الحزن مواهبي التي قد تنفع الناس. وعندما فكَّرتُ في العمل الذي خرج من بين يديَّ -لا أقل من كائنٍ يشعر ويفكِّر- لم أعتبر نفسي إنسانًا عاديًّا ممن يعملون في خدمة الناس، وهذه الفكرة التي أعانتني في بداية عملي ليست إلا ما يجعلني مغمورًا بالتراب الآن. كلُّ توقُّعاتي وآمالي لا شيء، وكالملاك الذي طمع في الحصول على القُدرة الكُلِّيَّة ها أنذا محكوم عليَّ بجحيم أبدي. خيالي كان جامحًا، لكن قُدرتي على التحليل والتطبيق كانت قويَّة، وباجتماع هذين العنصرين معًا برزت في عقلي فكرة صُنع مخلوقٍ بشري ونجحتُ في تنفيذها. حتى الآن لا يُمكنني استرجاع حماستي قبل اكتمال عملي دون أن أشعر بالشغف. أفكاري بلغت عنان السماء، فكنتُ مغرورًا بقُدُراتي قبل أن أشعر بها تحرقني الآن. منذ صباي وأنا أملك آمالًا عظيمة وطموحًا بلا حدود، لكن انظر لي الآن. لو كنت قد عرفتني كما كنتُ يومًا يا صديقي لما تعرَّفت عليَّ الآن. نادرًا ما زارت الكآبة قلبي، وبدوتُ كأنني مدفوع إلى الأمام بسِحرٍ ما حتى سقطتُ سقطة لن أقوم بعدها أبدًا».

أما من بُدٍّ من أن أفقد هذا المخلوق الرائع؟

لقد تطلَّعتُ طويلًا إلى العثور على صديق، وبحثتُ كثيرًا عن واحدٍ يتعاطف معي ويحبني، وإذا بي أجد واحدًا في صحراء البحر هذه، لكني أخشى أنني لم أجده إلا لأعرف قيمته قبل أن أخسره. أودُّ لو أعيده إلى الحياة، لكنه ينبذ الفكرة، ويقول لي:

- «أشكرك يا والتون على رغبتك الصادقة نحو حطام إنسانٍ مثلي، لكن عندما تتحدَّث عن روابطِ وعواطفِ جديدة، فهل تعتقد أنها تستطيع الحلول محلِّ الذين ذهبوا؟ هل يُمكن لأيِّ رجلٍ أن يكون لي كما كان كليرڤال؟ هل يمكن لأيِّ امرأةٍ أن تصير إليزابث أخرى؟ حتى لو لم تكن مشاعرنا نحوهم نابعة من روعتهم، فإن أصدقاء الطفولة دائمًا يملكون مكانة في عقولنا وقلوبنا لا يُمكن لأيِّ صديقٍ بعدهم احتلالها. إنهم يعرفون نزعاتنا الصبيانيَّة، ومهما نضجت هذه النزعات لاحقًا فهي تَظَلُّ موجودة، ويُمكنهم الحكم على أفعالنا أحكامًا صادقة نابعة من دوافعنا. لا يُمكن للأخ أو الأخت أن يَشُكَّ أحدهما في أن الآخَر يخدعه أو يحتال عليه، اللهم إلا إذا كانت هناك دوافع قويَّة للغاية، بينما الصديق -مهما كان قريبًا منك- قد يتمكَّن منه الشك رغمًا عنه. لكنني استمتعتُ بوجود أصدقائي معي، ليس فقط لتشابُه العادات والهوايات، بل لسماتهم الشخصيَّة. أينما كنتُ سيَظَلُّ صوت إليزابث الدافئ ومحادَثات هنري الشيِّقة في أذنيَّ. إنهم موتى، ولا يوجد سوى سبيل واحدة لإقناعي بالتمسُّك بالحياة: أن أنغمس في عملٍ مهمٍّ ينفع الناس، وعندها سأعيش لأنجزه، لكن ذلك ليس مصيري. يجب أن أطارد الكِيان الذي منحته الحياة وأدمِّره، وعندها أكونُ قد قمتُ بواجبي نحو العالم، ثم أموتُ مستريحًا».

***

twitter @baghdad_library

الثاني من سبتمبر.

أختي الحبيبة،

أكتب إليكِ والخطر يحيط بي، وأجهل إن كنت سأرى إنجلترا الحبيبة والأعزَّاء الذين يسكنونها مرَّة أخرى. إنني محاطٌ بجبالٍ جليديَّةٍ لا يبدو منها مَفَرّ تُهَدِّنني في كلِّ لحظةٍ بسَحق سفينتي بينها. الرجال الشجعان الذين أقنعتهم بمرافَقتي يتطلَّعون إليَّ ناشدين مساعَدتي، لكن فاقد الشيء لا يُعطيه. ثمَّة شيء ما مرعب في موقفنا، لكن شجاعتي وأملي لم يتخلَّيا عني، إلا أن التفكير في أن حياة كلِّ هؤلاء الرجال في خطرٍ بسببي مخيف، فعندها سوف تكون مخطَّطاتي ومشاريعي المجنونة هي السبب إذا ضعنا.

وماذا عنكِ أنتِ يا مارجريت؟

إنكِ لن تعرفي ما حدث لي وستنتظرين عودتي في توتُّرٍ ولهفة. ستمر السنون وسيزورك اليأس فيما يُعذِّبكِ الأمل. آه يا شقيقتي العزيزة! إن تلاعُب المشاعر بقلبكِ لهو أقسى عندي من الموت. لكن لديكِ زوجًا وأطفالًا تُحِبِّينهم، وسوف تكونين سعيدة في صُحبتهم. فلتُباركِ السماء وتُسعِدكِ.

ضيفي البائس يتعامل معي بمنتهى الرِّفق، يحاول بَثَّ الأمل فيَّ ويتكلَّم كأن الحياة لها قيمة عنده بالفعل. يقول لي كثيرًا إن حوادث مماثلة وقعت للكثير من الملَّاحين الذين خاضوا هذا البحر، ورغمًا عني يملأني بتوقعاتٍ مُطَمْئِنَة. حتى البحَّارة أنفسهم يشعرون بقوَّة بلاغته ويتخلَّى عنهم اليأس عندما يتكلَّم. إنه يرفع من روحهم المعنويَّة ويَبُثُّ فيهم الطاقة، وعندما يسمعون صوته يجدون في أنفسهم ثقة بأن هذه الجبال الجليديَّة ما هي إلا تلال صغيرة ستختفي مع عزمهم. لكنها

في النهاية مجرَّد مشاعر عابرة، وكلُّ يوم يمر دون نجدةٍ يملأهم خوفًا، وأخشى بالفعل أن يدفعهم القنوط إلى التمرُّد.

***

الخامس من سبتمبر.

شيء ما غير معتاد حدث للتو، ورغم أن هذه الأوراق قد لا تصل إليكِ أبدًا، إلا أنني لا أستطيع الامتناع عن تسجيله.

ما زلنا محاطين بجبال الجليد، وما زال خطر انسحاقنا بينها يتهدَّدنا. البرد شديد، وكثيرون من رفاقي التعساء وجدوا لهم قبورًا في هذا المكان الموحش. صِحَّة فرانكنشتاين تتدهور يومًا تلو الآخَر، ورغم أن عينيه ما زالتا تتألَّقان بالنيران، إلا أنه خائر القوى وأقل مجهود يجعله أقرب إلى الجُثَّة الهامدة.

كنتُ قد ذكرتُ في تدوينتي السابقة أنني أخشى من وقوع تمرُّد، وهذا الصباح وأنا جالس أرمق ملامح صديقي السقيمة -عيناه نِصف مغلقتين ويداه متدلِّيتان بلا حياة- وجدتُ نِصف دستةٍ من البحَّارة يطلبون دخول القمرة. ثم إنهم دخلوا بالفعل وخاطبَني قائدهم قائلًا إنه ورفاقه الخمسة قد اختيروا من قِبَلِ الآخَرين للتفاوُض معي حول مطلبٍ لا يُمكنني رفضه كما تقتضي أصول العدل. إننا محاصَرون بالجليد ولا مفر غالبًا، لكنهم يخشون أنني إذا ما تشقَّق الجليد وانفتح طريق للخلاص سأواصل تهوُّري ورحلتي جالبًا عليهم المزيد من الأخطار بعد أن يكونوا قد تغلَّبوا أخيرًا على الخطر الحالي. طلبوا مني أن أعدهم بالعودة إلى الجنوب إذا ما تحرَّرت السَّفينة. وأزعجني هذا الحديث، فلم أكن قد فقدتُ الأمل بَعد ولم أضع فكرة العودة في الحسبان إذا ما تحرَّرنا.

twitter @baghdad_library

لكن هل كان العدل -أو حتى الإمكانيَّة- يقتضي أن أرفض مطلبهم؟

تردَّدتُ في إجابتهم، ثم إن فرانكنشتاين -الذي ظَلَّ صامتًا، بل وغير قادرٍ على النطق أصلًا- نهض بصعوبة، ورأيتُ في عينيه بريقًا وفي وجنتيه حُمرة لم أعتدها وهو يقول:

- «ماذا تَقصِدون؟ وما الذي تطلبونه من قائدكم؟ بهذه البساطة تتخلُّون عن مهمَّتكم؟ ألم تسمُّونها المهمَّة المجيدة؟ ولماذا كانت مجيدة؟ ليس لأن الطريق كان هادئًا ناعمًا كبحار الجنوب، بل لأنه كان مكتظًّا بالأخطار والمخاوف، لأنه مع كلِّ خطرٍ جديد كان يتم اختبار ثباتكم ورباطة جأشكم وشجاعتكم، لأن الخَطر والموت يحومان فوق الطريق، وأمام هذين كنتم شجعانًا بواسل وتغلَّبتم عليهما. لهذا هي مهمَّة مجيدة، لهذا هي مسعى شريف. قريبًا سوف يعرفكم الناس بأنكم عملتم من أجل صالح إخوانكم البَشَر، وأسماؤكم ستُذكَر مع أسماء الشجعان الذين تحدوا الموت من أجل مصلحة البشريَّة. والآن مع أول لمحةٍ للخطر، أو لنقل إنها أول امتحان حقيقي لشجاعتكم، يصيبكم الخوف وتقنعون بأن تظلوا رجالًا لا يملكون ما يكفي من قوَّةٍ لتحدِّي البرد والخطر، وعندها تعودون أيها المساكين إلى حياتكم الدافئة القديمة. لم يكن الأمر بحاجةٍ إلى كلِّ هذا، ولم تكن بكم حاجة للإتيان بقائدكم إلى هذه البُقعة البعيدة فقط لتُشعِروه بعار الهزيمة وتُثبِتوا أنكم جبناء. فلتكونوا رجالًا بحق، أو كونوا أكثر من رجال. اثبتوا على أهدافكم ثبات الصخر. هذا الجليد ليس قويًّا كقلوبكم، ولا يُمكنه احتمال بأسكم إذا قرَّرتم التغلُّب عليه. لا تعودوا إلى عائلاتكم والعار يُكلِّلكم، بل عودوا أبطالًا ناضلوا وحاربوا ولا يعرفون معنى الفرار من الخصم».

قال هذه الكلمات بصوتٍ هادئ يتنافى مع المشاعر المتوهِّجة

في حديثه، وبعينٍ مليئة بالشموخ والبطولة، فهل من المدهش إذن أن كلماته قد أثَّرت في الرجال حقًّا؟

تبادَل الرجال النظرات ولم يجدوا ردًّا. خاطبتهم أنا وقلتُ لهم أن يستريحوا الآن ويُفَكِّروا فيما قيل، وقلتُ إنني لن أقودهم شمالًا أكثر من هذا إن كان قرارهم الأخير هو العودة إلى الجنوب، وأضفتُ أنني آملُ أن تعود شجاعتهم بعد التفكير. غادروا القمرة، والتفتُّ إلى صديقي، لكنه كان قد عاد إلى غيبوبته من جديد يكاد لا يُمَيِّزه شيء عن الموتى. لا أدري كيف سينتهي كلُّ هذا، لكنني أُفَضِّل الموت على العودة مكلَّلًا بالعار دون أن أحقِّق هدفي. على أنّي أخشى بالفعل أن هذا هو مصيري، فالرجال دون أن تدعمهم أفكار وصُور البسالة والمجد، لا يُمكن إجبارهم على التعرُّض للمزيد من المتاعب.

***

السابع من سبتمبر.

أُلقي النَّرد وحُسِمَت المسألة: لقد وافقتُ على العودة إذا لم نلاقِ حتفنا ها هنا. ها هي آمالي تتحطَّم بسبب الجُبن والضَّعف، وسأعودُ جاهلًا محبَطًا. الأمر يتطلَّب فلسفة أكثر مما أملك لأتحمَّل هذا الظُّلم في صبر.

***

الثاني عشر من سبتمبر.

قُضي الأمر. سأعودُ إلى بريطانيا فاقدًا كلَّ أملٍ في المجد والشُّهرة.

لقد فقدتُ صديقي أيضًا، وسأحاول أن أقُصَّ عليكِ تفاصيل وفاته المريرة يا شقيقتي الحبيبة، ولن تخور عزيمتي وأنا في طريقي إلى الوطن وإليكِ.

twitter @baghdad_library

في التاسع من سبتمبر بدأ الجليد يتحرَّك، ومن مسافةٍ بعيدةٍ سمعنا الجُزُر تتشقَّق وتنفصل بصوتٍ كالرعد في كلِّ اتجاه. كنا في خطرٍ وشيك، لكن بما أننا لم نملك ما نفعله، فاهتمامي الرئيس كان بضيفي البائس الذي ازداد مرضه إلى درجةٍ جعلته لا يُغادِر الفراش إطلاقًا. طقطق الجليد حولنا، وتفتَّت متجهًا إلى الشمال بسرعة. هبَّت الريح من الغرب، وفي الحادي عشر من سبتمبر انفتح الطريق نحو الجنوب بالكامل. عندما رأى البحَّارة هذا وأدركوا أن عودتهم لوطنهم صارت وشيكة، انبعثت منهم صيحات البهجة الصاخبة وأخذوا يُرَدِّدونها طويلًا. أفاق فرانكنشتاين على صوت الصخب وسألني عن سببه، فأخبرته، فسألني:

- «هل قرَّرت العودة إذن؟».

- «نعم للأسف. لا يُمكنني رفض مطلبهم، ولا يُمكنني اقتيادهم إلى الخطر بإرادتي. يجب أن أعود».

- «افعل إذا أردت، لكني لن أعود. قد تهجر مهمَّتك، لكن مهمَّتي أنا كُلِّفتُ بها من السماء ولا أجرؤ على تركها. إنني ضعيف، لكنني واثق بأن الأرواح التي تُساعِدني في انتقامي ستمنحني القوَّة والصمود».

قالها وحاول النهوض من الفراش، لكن الإجهاد كان أقوى منه بمراحل، فعاد يسقط وفقد الوعي.

مَرَّ وقت طويل قبل أن يستردَّ وعيه، وجاءت عليَّ أوقات ظننتُ فيها أن الحياة غادرته بالفعل. فتح عينيه في النهاية، وتنفَّس في عُسرٍ دون أن يقوى على النطق. أعطاه نطاسي السفينة جرعة مقوية وأمرنا بألا نزعجه، ثم قال لي إن ساعات صديقي في الحياة معدودة. ها قد صدر الحكم وليس بيدي سوى الحزن والصبر. جلستُ إلى جوار الفراش أرمقه. عيناه كانتا مغلقتين، وحسبت أنه غاب في النوم، لكنه ناداني بصوتٍ ضعيف بعد قليل، وطلب مني أن أقترب منه، ثم قال:

- «للأسف خارت القوَّة التي اعتمدت عليها. أشعرُ بأن موتي وشيك، وخصمي ومعذِّبي لا يزال حيًّا. لا تعتقد يا والتون أنني في لحظاتي الأخيرة ما زلتُ أشعر بالكراهية الحارقة والرغبة المشتعلة في الانتقام، وإن كنتُ أعرف أن رغبتي في موت المسخ عادلة. خلال هذه الأيام الماضية انغمستُ في دراسة وتأمُّل الماضي، ولا أجد فيه ما أُلام عليه. في نوبةٍ من الحماسة المجنونة صنعتُ كائنًا مفكِّرًا، وكان يَجدُر بي أن أعمل على سعادته وسلامته قَدر المستطاع. كان هذا واجبي، لكن كان أمامي واجب آخَر أهم من ذلك: واجبي نحو إخوتي البَشَر كان يستحوذ على اهتمامي أكثر، لأنه كان ينطوي على قَدرٍ أكبر من السعادة أو التعاسة. من هذا المنطلَق وحده رفضتُ -وكنتُ على حقٍّ في رفضي- أن أصنع رفيقة للكائن الأول. لقد أظهر شرًّا وخبثًا لا مثيل له، ودمَّر أصدقائي، وأقسم على تدمير أيِّ مخلوقٍ يملك مشاعر أو سعادة أو حِكمة، ولا أدري كيف أو أين ينتهي هذا الظمأ للانتقام. الحلُّ الوحيد أن يموت كي لا يُواصِل الإيذاء والتدمير، ومهمَّة تدميره كانت واقعة على عاتقي، لكنني أخفقتُ فيها.

لقد طلبتُ منك أن تُواصِل مهمَّتي عندما تملَّكتني الأنانية، وها أنذا أكرِّرُ طلبي الآن، لكن دافعه الوحيد هذه المرَّة هو العقل والرغبة في فِعل الخير. لكنني لا أستطيع أن أطلب منك هجر وطنك وأصدقائك لتُتِمَّ المهمَّة. الآن وقد نويت العودة إلى إنجلترا، فإن فرصة لقائك به ضعيفة. لكنني أترك لك مهمَّة التفكير في هذه النقاط وتقدير واجباتك، فحُكمي على الأمور يضعف وأفكاري يُشَوِّشها اقتراب الموت. لا أجرؤ على أن أطلب منك أن تفعل ما أظنه صوابًا، لأنني قد أكونُ ما زلتُ مضلَّلًا بعواطفي. فقط فكرة حياته ليواصِل التدمير تؤلمني. ومن ناحيةٍ أخرى، هذه الساعة التي أنتظر فيها إطلاق سراحي في أيَّة لحظة

twitter @baghdad_library

هي أسعد ساعةٍ مرَّت عليَّ منذ دهر. أشباح الموتى الأعزَّاء تطوف أمامي، وها أنا أسرعُ إلى أحضانهم.

وداعًا يا والتون. ابحث عن السعادة في السَّكينة وتجنَّب القاتل من الطموح، حتى إذا كان طموحًا بريئًا في أن تشتهر في العلوم والاكتشافات. لكن لماذا أقول هذا؟ لأنّي أنا أخفقتُ، لكن قد يظفر غيري ببُغيته».

أخذ صوته يضعف وهو يتكلَّم، وفي النهاية تمكَّن منه المجهود ولاذ بالصمت التام. حاول بعد نِصف ساعةٍ تقريبًا أن يتكلَّم مرَّة أخرى، لكنه لم يستطِع. فقط ضغط على يدي في ضعف، وانغلقت عيناه إلى الأبد، وتلاشت البسمة الرقيقة من على شفتيه.

كيف يُمكنني وصف مشاعري مع رحيل هذه الروح الرائعة السابق لأوانه يا مارجريت؟ ما الذي يمكنني قوله لأجعلكِ تفهمين عُمق ألمي؟ إن كلَّ ما سأقوله هو كلمات ضعيفة بلا تأثير. إن دموعي تسيل وعقلي تُظَلِّله سحابة حزنٍ وخيبة أمل، لكنني مُبحِر الآن إلى إنجلترا، وأتمنَّى أن أجد السلوى هناك.

ثمَّة شيء ما يتحرَّك. ما هذه الأصوات؟

إنه مُنتَصَف الليل والنسيم يَهُبُّ خفيفًا، والمراقِبون على ظهر السفينة لا يتحرَّكون إلا لمامًا. أسمع صوتًا أقرب إلى صوت البَشَر لكنه أكثر خشونة يأتي من القمرة التي يرقد فيها جثمان ڤيكتور فرانكنشتاين.

يجب أن أنهض لأرى ما يحدث. ليلة طيبة يا أختاه.

***

رباه! يا له من مشهد ذلك الذي رأيته منذ قليل! ما زال ما حدث يُصيبني بالدُّوار، وأكادُ لا أدري إن كنتُ أقوى على تسجيله، لكن

الحكاية التي كتبتها لكِ لن تكتمل من دون هذا الفصل المأساوي الأخير.

دخلتُ القمرة التي يرقد فيها صديقي المسكين، وعليه مال شيء لا أملك كلماتٍ تكفي لوصفه. كان عملاق القامة، لكن جسده بدا متناسِقًا. توارى وجهه وراء خصلات شَعرٍ أشعث طويل وهو يميل على التابوت، لكنه مَدَّ يدًا واحدة تُشبه في لونها وشكلها يد مومياء. كَفَّ عن الصراخ والعويل عندما سمعني أدخل واندفع نحو النافذة، ولم أرَ في حياتي شيئًا ببشاعة وجهه الذي أصابني بالرُّعب والاشمئزاز في آنٍ واحد. أغلقتُ عينيَّ لاإراديًّا وحاولتُ تذكُّر واجبي نحو هذا المدمِّر، فهتفتُ طالبًا إليه أن يبقى. توقَّف بالفعل ونظر إليَّ في حيرة، ثم إنه التفت من جديد إلى جُثَّة صانعه وبدا كأنه نسيَ وجودي وكلَّ خلجة من خلجاته بدت ناضحة بتعبيرٍ لا يوصَف.

صرخ الكائن:

– «هذا أيضًا ضحيَّتي! بقتله اكتملت جرائمي وبلغ وجودي البائس نهايته! فرانكنشتاين! أيها الإنسان المخلص الشهم! ما فائدة أن أطلب منك العفو الآن؟ لقد دمَّرتك بتدمير كلِّ من أحببت. يا للخسارة! إن هو إلا جُثَّة باردة لا يُمكنها إجابتي».

بدا صوته مختنِقًا، وأفكاري التي دارت أولًا حول تنفيذ مطلب صديقي المحتضِر وتدمير عَدُوِّه أصابها الآن الشلل مع مزيج من الفضول والتعاطُف وجد طريقه إلى مشاعري. اقتربتُ من المخلوق الضخم، لكنني لم أجسر على رَفْع عينيَّ إلى وجهه الذي لا يُشبه شيئًا من فرط قبحه. حاولتُ أن أنطق، لكن الكلمات ماتت على شفتيَّ، فيما واصَل الوحش إطلاق نحيبه العنيف.

أخيرًا استطعتُ تمالُك نفسي، وخاطبته في لحظة صمت فيها قائلًا:

twitter @baghdad_library

- «ندمك الآن بلا جدوى. لو كنت قد أصغيت إلى صوت الضمير ووضعت مصير فرانكنشتاين في الاعتبار قبل أن تغمره بانتقامك الشيطاني، لكان حيًّا بيننا الآن».

قال الشيطان:

- «هل تحلم؟ أتظنني لم أعانِ الندم والألم وقتها؟».

ثم أشار إلى الجثمان واستطرد:

- «هو.. هو لم يعانِ مثلي في النهاية ولا حتى بمقدار واحد على عشرة آلاف مما عانيت. أنانية مُخيفة دفعتني دفعًا إلى ما فعلتُ بينما كان الندم يُمزِّق قلبي. أتحسب أن آهات كليرڤال كان لها وقع الموسيقى على أذني؟ إن قلبي مخلوق للحُبِّ والعاطفة، لكن عندما تملَّكه البؤس والكره والغضب لم يتحمَّل هذا التغيير دون عذابٍ لا تعرفه حتى أكثرأحلامك سوادًا. بعد قتل كليرڤال عُدتُ إلى سويسرا بقلبٍ مُنهَكٍ مكسور. أشفقتُ على فرانكنشتاين واستحالت شفقتي إلى رُعبٍ وصِرتُ أمقت ذاتي. لكنني عندما اكتشفت أنه -وهو سبب وجودي وعذابي الذي لا تُعَبِّر عنه كلمات- ما زال يجرؤ على الأمل في السعادة، عندما عرفت أنه في الوقت الذي تراكَم عليَّ فيه يأس قاتل ما زال يسعى إلى الاستمتاع بالعواطف التي حُرِمتُ منها، امتلأ قلبي بحسدٍ ونِقمةٍ لم يكن من سبيلٍ للتخلُّص منهما سوى الانتقام. تذكَّرتُ عندها تهديدي وقرَّرتُ أن أنفِّذه. كنتُ أعرف أني أعد لنفسي عذابًا مُهلِكًا، لكني كنتُ عبدًا لا سيِّدًا لرغبةٍ نفرتُ منها وإن لم أستطع عصيانها. لكن عندما ماتت هي.. لا، وقتها لم أشعر بالبؤس ولم أَلُم نفسي. لقد تخلَّصتُ من جميع مشاعري وقرَّرتُ أن أعربد بكامل يأسي. وقتها أصبح الشَّر خيرًا عندي، وبهذا لم يكن أمامي خيار سوى تكييف طبيعتي مع عنصرٍ جديد اخترته بإرادتي: أن أواصل انتقامي.

وهكذا واصلتُ انتقامي الشيطاني بالفعل في شغفٍ ونَهَم. لكن كلَّ شيءٍ انتهى الآن، وها هي ذي ضحيَّتي الأخيرة».

تأثَّرتُ في البداية بتعبيره عن مشاعره، لكنني تذكَّرتُ ما قاله فرانكنشتاين عن فصاحته وقُدرته على الإقناع، ومرَّة أخرى نظرتُ إلى جُثَّة صديقي، وشعرتُ بالكراهية تعتمل بداخلي من جديد، فصحتُ:

– «أيها المسخ! يُسعِدني أن أتيت إلى هنا كي تندب الدمار الذي أحدثته. كأني بك تلقي بمشعلٍ وسط مجموعةٍ من البنايات، وعندما تلتهمها النيران وتأتي عليها كلها تجلس بين الخرائب لتبكي ما حدث. وحش كاذب! لو كان هذا الذي تبكيه الآن لا يزال حيًّا، كنت لتواصِل التلاعُب به والتسلية بانتقامك الملعون. إنك لا تشعر بالشفقة، بل أنت حزين فقط لأن ضحيَّة شرورك لم تَعُد في متناوَل يدك».

سارع يهتف:

– «كلا، ليس الأمر هكذا، ليس هكذا إطلاقًا. إنه الانطباع الذي تركَته أفعالي فقط. لكنني لا أبحث عمن يتعاطَف معي الآن، فلم يَعُد من الممكن أن أجد أيَّ تعاطُف. عندما نشدته في البداية كنتُ مدفوعًا بحُبِّ الخير ومشاعر السعادة والنقاء التي أُفعِمَ بها كِياني حتى تمنيتُ لو ينالني قسط منها. لكن الخير صار في نظري الآن ظِلًّا لا أكثر، والنقاء والسعادة استحالا إلى يأسٍ مرير، فلماذا أبحث عن أيِّ تعاطُف؟ إنني راضٍ بالمعاناة وحدي طالَما دامت معاناتي، وعندما أموتُ سأموت راضيًا بأن العار والاحتقار يُكلِّلا ذكراي. قديمًا كان خيالي يَعُجُّ بأحلام الخير والمتعة والسمعة الطيبة، قديمًا كنتُ آمل أن ألتقي بمخلوقٍ لا ينظر إلى مظهري بل إلى جوهري، قديمًا كانت أفكار الشرف والبسالة السامية لا تُفارِق عقلي، لكن جرائمي تضعني الآن في منزلةٍ أحَطُّ من أحطِّ حشرة. لَا ذنب أو ألم أو بؤس أو يأس يُعادِل ما لديَّ من كل

twitter @baghdad_library

هذه الأشياء. عندما أستعرِض قائمة آثامي لا أكاد أصدِّق أنني المخلوق نفسه الذي امتلأت مخيِّلته يومًا بأفكار الخير والجمال.

لكن الحال هكذا دائمًا: الملاك الساقط لا بُدَّ وأن يصير شيطانًا خبيثًا. المؤلم أنه حتى أعداء الله وأعداء الإنسان يجدون من يُرافِقهم في وحدتهم، أما أنا فوحيد.

أنت يا من تقول إن فرانكنشتاين صديقك تبدو عليمًا بجرائمي ونكباته، لكنه حينما رواها لك لم يُمكنه تلخيص الساعات والأيام والشهور التي بدَّدتها في مشاعر عقيمة. لقد دمَّرتُ آماله، لكني لم أحقِّق رغباتي التي لم يُفارِقها توهُّجها قَطُّ. تمنَّيتُ الحُبَّ والرِّفقة، لكني لم أنل سوى الاحتقار والكراهية. أترى هذا عدلًا؟ هل سأظلُّ المجرم الوحيد بينما ارتكب البشر أجمعين جرائم في حقِّي؟ لماذا لا تكره فيلكس الذي طرد صديقه من بيته بازدراء؟ لماذا لا تمقت القروي الذي أراد قتل من أنقذ طِفلته؟ لا، هذان مخلوقان طاهران نقيَّان، وأنا فقط الوحش المجرم الذي يستحق السخرية والازدراء والمقت والطرد! حتى الآن يغلي الدَّم في عروقي من هذا الظُّلم.

صحيحٌ أنني مسخ قتل الأبرياء العاجزين، وصحيحٌ أنني خنقتُ الضعفاء في نومهم وأطبقتُ على أعناقهم حتى الموت وهُم لم يجرحوني أو يجرحوا مخلوقًا غيري. حطَّمتُ صانعي الذي كان نموذجًا لكلِّ ما هو جديرٌ بالحُبِّ والإعجاب وطاردته إلى هلاكٍ لا رجعة منه. ها هو يرقد شاحبًا باردًا في موته. إنك تمقتني، لكن مقتك لا يساوي ذرَّة من مقتي لنفسي. لا تخشَ من ارتكاب هاتين اليدين لأيِّ شرورٍ أخرى، فعملي بلغ نهايته، ولا موتك أو موت مخلوقٍ غيرك ضروري لخاتمتي، بل هو موتي أنا.

لا تحسب أنني سأتباطأ في تقديم هذه التضحية. سأغادرُ سفينتك في الطوف الجليدي الذي جاء بي إلى هنا وأنشد أقصى شمال الأرض.

سأجمع حطب جنازتي وأعهد بهذا الوجه البشع إلى النار، وما سيتبقَّى مني لن يكفي لإرشاد إنسانٍ فضوليٍّ آخَر إلى صُنع مسخٍ مثلي. سأموتُ ولن أشعر بعدها بالألم الذي يلتهمني والمشاعر التي لن تزول إلا بزوالي. الذي جاء بي إلى الوجود مات، وعندما أموت أيضًا ستفنى ذكرانا معًا. منذ سنواتٍ قليلة، عندما تفتَّحَت عيناي على صُور هذا العالم، وعندما شعرتُ بدفء الصيف وسمعتُ حفيف أوراق الشجر وتغريد الطيور، كان يجب أن أبكي حتى الموت، لكن هذه الصُّور هي سلواي الوحيدة الآن. أين يُمكنني العثور على أيِّ راحةٍ إلا في الموت بعد أن أثقلتني الجرائم وأرهقني الندم؟

وداعًا. أتركك وأنت آخِر بشري تقع عيناه عليَّ. وداعًا يا فرانكنشتاين. لو كنت لا تزال حيًّا وتتوق إلى الانتقام لكنت رأيته في حياتي لا مماتي. لكنك لم تُرِد هذا، بل أردت هلاكي كي لا أواصل الإفساد. وإذا كنت بوسيلةٍ ما أجهلها لا تزال تشعر وتُفكِّر، فلن تتمنى انتقامًا مني أكبر مما أشعر به بالفعل. حتى في حالتك هذه عذابي أكبر من عذابك، لأن مرارة الندم لن تزول قبل أن تنغلق عيناي إلى الأبد».

ثم هتف فجأةً في تصميم:

– «لكنني سأموت قريبًا ولن أشعر بما أشعر به الآن. قريبًا سيفنى هذا البؤس الحارق. سوف أحترقُ وأبتهجُ بعذاب اللهب، ثم تنطفئ نيران الحريق وتَنثُر الريح رفاتي في البحر. ستنام روحي في سلام، وإن كنتُ أستبعد أن أجد سلامًا حتى في الموت. وداعًا».

قالها، ووثب من نافذة القمرة إلى الطوف الجليدي الرَّابض إلى جوار السَّفينة، وسرعان ما حملته الأمواج إلى بعيد، وغاب في الظُّلُمات بلا أثر.

النهاية

twitter @baghdad_library

تصميم الغلاف نجاح طاهر

فرانكنشتاين

أو بروميثيوس هذا العصر

غالبًا ما يُنظر إلى رواية فرنكنشتاين على أنها رواية رُعب، وهذا ظلم لعمل أدبيٍّ رفيع يُعتبر من دُرَر الأدب الإنجليزي والعالمي وأكثرها قراءةً في أنحاء العالم، بالإضافة إلى كونها من أكثر النُّصوص الأدبيَّة التي دُرِسَت وحُلِّلَت نظرًا لما تحمله من قيمة أدبية وفكرية رفيعة، ولأنها نصٌ سَلِسٌ ومشوِّق.

لكن مسار هذه الرواية بالتحديد أكثر تعقيدًا من غيرها، فقد طرحت شِلي فيها أفكارًا جريئةً جديدةً بالنسبة لعَصرها عن الإبداع عندما يتخطى حدود الطبيعة. وقد تعاظَم هذا المسار واستقلَّ بشكلٍ ما عن الرواية نفسها، وصار في حَدّ ذاته نوعًا من المجاز والأسطورة شَقّ لنفسه طريقًا في الفنون الأخرى مثل السينما والمسرح والكاريكاتور والكومِكس.. وصار اسم فرانكنشتاين مُرادِفًا لكل إبداع عندما يصير هوسًا يَجلِب عواقب وخيمة على المُبدِع والعالم، ومرادفًا للوحشيَّة وقد تحرَّرَت من عِقالها.

يَعرِف الجميع تقريبًا، حتى الذين لم يقرأوا الرواية ولم يَسمَعوا باسم ماري شِلي، موضوع الحَبكة الرئيسة والأحداث الغريبة التي قاد إليها العالِم الشَّاب الطَّموح الذي يَسعى إلى العثور على سِرّ الحياة ويتوصَّل إليه. ومن أجزاءٍ مُجَمَّعة من جُثَثٍ مختلفةٍ يَصنَع كائنًا عملاقًا يتَّضح أنه وحشٌ قبيحٌ لا تخلو شخصيَّته من مشاعرٍ مُرْهفة.

لكن الذين لم يقرأوا الرواية، أو ظنّوا أنها مجرّد حكاية أسطورية مرعبة، خسروا متعة اكتشاف ذلك الجمال وتلك القوّة في هذا العمل الأدبي المتع.

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-977-6483-17-0
9 789776 483170

للطباعة والنشر والتوزيع
تونس - بيروت - القاهرة